ISSN:1112-5071

أبوليوس

مجلة الآداب واللغات

مجلة علمية محكمة ومفهرسة تصدر كل سداسي عن كلية الآداب و اللغات

جامعة محمد الشريف مساعدية - سوق أهراس - الجزائر

المجلد 05 العدد 09 جوان 2018

أبوليوس

مجلة الآداب واللغات

مجلة علمية محكّمة مفهرسة تصدر كل سداسي عن كلية الآداب واللغات

جامعة محمد الشريف مساعدية - سوق أهراس - الجزائر

الرئيس الشرفي

الأستاذ الدكتور: زوبير بوزبدة

مدير جامعة محمد الشريف مساعدية – سوق أهراس–

مدير المجله

الأستاذ: مخلوف لـــوني

عميد كلية الآداب و اللغات

رئيس التحرير

د.جموعي سعدي

d.saadi@univ-soukahras.dz

هيئة التحرير:

من جامعة محمد الشريف مساعدية سوق اهراس :

د. مداني زيقم madani.zikem@univ-soukahras.dz

د. عماد شارف imed.charef@univ-soukahras.dz

د. لمياء مباركي lamia.mebarki@univ-soukahras.dz

د. هارون بوراس haron.bouras@univ-soukahras.dz

من خارج الجزائر:

- أد. أبو بكر العزاوي / جامعة مولاي سليمان [المغرب] azzaouiboubker@yahoo.fr
- أد. خيري دومة / جامعة القاهرة [مصر] abou.el.khier62@gmail.com
- أد. محمد القاضي/ جامعة منوبة [تونس] medelkadhi@hotmail.com
- أد. عبد المالك أشهبون / جامعة فاس [المغرب] abdelmalek.achahboune@gmail.com
- أد. عبد الرحيم مراشدة/جامعة عجلون الوطنية [الأردن] abd_marashdeh@yahoo.com
- أد.رزان محمود إبراهيم/ جامعة البترا [الأردن] ibrahim@hotmail.com
- د. نادر كاظم / جامعة البحرين [البحرين] naderkadhim@gmail.com
- د. علي الشبعان/ جامعة الدمام [السعودية] alichabaane@yahoo.fr
- د خالد كاظم الحميدي / جامعة النجف [العراق] khalidhomedi@yahoo.com

من داخل الجزائر:

- أد. الطيب بودربالة / جامعة باتنة 1 tayebouderbala@yahoo.fr
- أد. علي خفيف / جامعة عنابة alikhefif@yahoo.fr
- أد. صالح جديد/ جامعة الطارف djedid.salah@ymail.com
- أد. الشريف حبيلة/ جامعة تبسة habilacherif@gmail.com
- أد. نوال بودشيش/ جامعة الطارف boudechiche2005@yahoo.fr
- د. نبيلة معارفية/ جامعة عنابة maarfianabila@yahoo.fr
- د. وافية بن مسعود/ جامعة قسنطينة 1 wafia.benmessaoud@umc.edu.dz.

أبوليوس

مجلة الآداب واللغات

مجلة علمية محكّمة مفهرسة تصدر كل سداسي عن كلية الآداب واللغات

جامعة محمد الشريف مساعدية - سوق أهراس - الجزائر

9

المجلد: 05

العدد: 09

جوان 2018

رقم الإيداع القانوني: 1802 – 2004

الترقيم الدولي الموحد للمجلات:

ISSN : 1112 – 5071

المراسلات:

توجه جميع المراسلات إلى البريد الالكتروني للمجلة :

apuleiusrevue@gmail.com

العنوان البريدي :

كلية الآداب واللغات ـ جامعة محمد الشريف مساعدية

سوق أهراس 41000 ـ الجزائر

الهيئـــة العلميـــة

من خارج الجزائر

أد . عبـد الله ابـراهيـم جـامعة قطـر **قطر**

أد . سعـد البـازعي جـامعة الملك سعود **لسعودية**

أد . نعمـان بوقـرة جـامعة أم القـرى **السعودية**

أد . مبـارك حنون جـامعة قطـر **قطر**

أد . عبـد القـادر فيـدوح جـامعة قطـر **قطر**

أد . عبـد المـالك أشهبون جـامعة فـاس **المغرب**

أد . محمـد القـاضي جـامعة منوبة **تونس**

أد . عبـد الرّحيـم مـراشـدة جـامعة عجلون **الأردن**

أد . محمـد لطفي اليوسفي جـامعة منوبة **تونس**

Pr.Marc-Mathieu Münch Université de Paris France

أد . أبو بكـر العـزاوي جـامعة مولاي سليمـان **المغرب**

أد . خـيري دُومة جـامعة القـاهـرة **مصر**

Pr.Laurence Denooz Université de Lorainne France

أد . بسـام قطّوس جـامعة اليـرموك **الأردن**

Pr.Nejmeddine Khalfallah Université de Lorainne France

أد . فـاضل عبود التـميـمي جـامعة ديـالى **العراق**

من داخل الجزائر

أد . الطيب بودربـالة جـامعة بـاتنة 1

أد . الطـاهـر روابنية جـامعة عنـابة

أد . بوجمعة بوبعيو جـامعة سكيكـدة

أد . الصـادق عوادي جـامعة عنـابة

أد . محمـد خـان جـامعة بسكـرة

أد . عبـد القـادر دامخي جـامعة بـاتنة 1

أد . بلقـاسـم بلعـرج جـامعة قـالمة

أد . العلمي المكي جـامعة ام البواقي

أد . رشيـد رايس جـامعة تبسة

أد . عبـد الحق بموشي جـامعة ام البواقي

أد . علي خفيف جـامعة عنـابة

أد . عـمـر زرفـاوي جـامعة تبسة

أد . نوال بودشيش جـامعة الطـارف

من داخل جامعة سوق أهراس

أد . عبـد الوهـاب شعـلان جـامعة سوق أهـراس

أد . عبـد الحفيظ حـرزلي جـامعة سوق أهـراس

أد . سليـمة لوكـام جـامعة سوق أهـراس

أد . محمـد صـاري جـامعة سوق أهـراس

د . عبـد الرّحمن مشنـتل جـامعة سوق أهـراس

د . جـلال خشـاب جـامعة سوق أهـراس

د . مـديحة عتيق جـامعة سوق أهـراس

د . بهـاء بن نوّار جـامعة سوق أهـراس

د . مـالك عوادي جـامعة سوق أهـراس

د . يحي دعّـاس جـامعة سوق أهـراس

د . شـدّاد بوقـرة جـامعة سوق أهـراس

د . كبلوتي قنـدوز جـامعة سوق أهـراس

د . يـاسـين سـرايعية جـامعة سوق أهـراس

قـــواعد النشـــــر

1. "أبوليوس" مجلة علمية دولية محكّمة ومفهرسة، تصدر كل سداسي عن كلية الآداب واللغات بجامعة محمد الشريف مساعدية- سوق أهراس- الجزائر، لها نسخة ورقية مطبوعة، وأخرى إلكترونية ذات تحميل حر ووصول مفتوح، تعنى بالبحوث والدراسات في ميدان الآداب واللغات، التي تستجيب لأصول البحث العلمي المؤسس على العمق والأصالة والابتكار، وتنشر المجلة بحوثها باللغات الثلاث؛ العربية والإنجليزية والفرنسية. تفتح أبوليوس صفحاتها للباحثين في مجال الآداب واللغات من داخل الوطن وخارجه، من أجل تقديم مساهماتهم المعرفية لتكون ساحة للحوار العلمي الجاد، منطلقة من روافد الهوية، ومستلهمة نظرة كونية منفتحة، ومشرعة نوافذها لتيارات الفكر الإنساني بثقة و تبصر وأناة. تشق "أبوليوس" طريقها في البحث العلمي وسط عدد كبير من المجلات و الدوريات الأكاديمية في الجامعات الجزائرية والعربية و العالمية، ورهانها الأكبر أن تجد موطئ قدم بينها، لا بل أن تتميز و تحقق فرادة معرفية.

2. يجب أن يكون البحث المقدّم مستوفيا لشروط البحث العلمي المتعارف عليها، بحيث يشتمل على (تمهيد، طرح الإشكال، عرض للجوانب المعرفية المختلفة للموضوع ومناقشتها، حوصلة لأهم النتائج المتوصل إليها، تكون الإحالات والمراجع والملاحق في آخر البحث، وترقم بالتسلسل حسب ظهورها).

3. يرفق الباحث ملخصاً عن البحث لا يزيد عن 250 كلمة، مع ضرورة وجود ملخصين 02 باللغة العربية وكذا الإنجليزية بالنسبة للمقالات باللغة العربية وباللغة الإنجليزية، أما المقالات باللغة الفرنسية ضرورة وجود ثلاثة 03 ملخصات (الفرنسية، العربية، الإنجليزية) ،مع ضرورة إدراج الكلمات المفتاحية (Keywords) التي يجب أن لا تتعدى سبع 07 كلمات ترتب حسب ورودها في المقال.

4. ترفق المادة المقدمة للنشر بورقة مستقلة يكتب فيها عنوان البحث واسم صاحبه بالعربية وبالحروف اللاتينية مع عنوان بريده الإلكتروني الشخصي، والمؤسسة الجامعية، واسم المخبر إن وجد، ودرجته العلمية.

5. لا تتجاوز صفحات البحث عشرين 20 صفحة، ولا تقل عن اثنتي عشرة 12 صفحة.

6. ترسل البحوث إلى المجلة عبر البريد الإلكتروني للمجلة فقط. **apuleiusrevue@gmail.com**

7. ترسل المقالات وجوبا في شكل ملف مرفق عبر البريد الإلكتروني للمجلة ، ويشترط أن يكون المقال مكتوبا بصيغة الوورد (Microsoft Word)، بشرط أن يكون الملف الذي يحتوي على المقال نسخة مطابقة شكلا للملف القالب المتاح على موقع المجلة الالكتروني والذي يمكن تحميله منه.

8. توجّه كل البحوث للتحكيم العلمي- بعد ملاءمة المقال لقواعد النشر ، ويصبح مقبولا للنشر إذا نال موافقة خبيرين ؛ وفي حالة رفض أحدهما يعرض مرة أخرى على خبيرٍ ثالثٍ لينظر في صلاحية نشره ، وتكون نتيجة تحكيمه فاصلة ونهائية، وفي حالة القبول بعد التعديل فإن صاحب المقال عليه أن يجري التصحيحات المطلوبة في مدة لا تتعدى العشرين (20) يوما .

9. يأخذ البحث المرشح للنشر دوره وفق صدور أعداد المجلة.

10. يخضع ترتيب البحوث في كل عدد لاعتبارات فنية تنظيمية لا علاقة لها بدرجة الباحث العلمية.

11. لا تعاد البحوث إلى أصحابها ، ويبلغون بنشرها ، أو الاعتذار لهم عن عدم نشرها ، في موعد أقصاه شهران. كما يحق للمجلة إجراء تعديلات شكلية على المادة المقدمة للنشر دون المساس بمضمونها إن اقتضت الضرورة.

12. البحوث المنشورة تعبر عن آراء أصحابها ، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة أو رأي جامعة سوق أهراس.

13. يشترط في البحث أن يكون خاصا بمجلة أبوليوس، وألا يكون قد نُشر أو وجّه للنشر لأي جهة أخرى.

14. ينبغي على المؤلفين الاطلاع على ميثاق أخلاقيات النشر المتاح على الموقع الإلكتروني للمجلة.

فهرس الموضوعات باللغة العربية

افتتاحية رئيس التحرير .

أ د. عبد القادر فيدوح[جامعة قطر]

فضاء العنف في الرواية العربية الجديدة..... **ص 01 – 19**

د. بشرى عبد المجيد تاكَفْراست. [جامعة القاضي عياض – مراكش]

جمالية الصورة الشعرية في بردة البوصيري..... **ص 20- 31**

د . نجاة عرب الشعبة. [جامعة عنابة]

إشكاليات تلقي المقولات النقدية الغربية في الثقافة العربية: مقولة التناص أنموذجا .....**ص 32- 45**

أ. لندة قياس. [جامعة سوق اهراس]

تداولية الإشاريات في الخطاب النهضوي عند مالك بن نبي: "مجالس دمشق" نموذجا .....**ص 46- 58**

د . سمية فالق. [جامعة خنشلة]

إشكالية منظومة المناهج في دراسة النص الأدبي الشعبي.....**ص 59- 76**

د . عبدالحق سوداني. [جامعة الطارف]

علاقة السياق بالمعنى التأويلي في كتاب الموافقات للشاطبي.....**ص 77- 84**

أ. نصيرة مصابحية [جامعة سوق اهراس]

مدرسة الحوليات الفرنسية من تاريخية التوجه إلى تاريخانية التمثل.....**ص 85- 95**

الإفتتـــاحية

الأفاضل، الفضليات قرّاء **أبـوليـوس**، من الأكاديميين والأساتذة والباحثين:

تواصل مجلة **أبوليوس** مسيرتها، برويّة وتؤدة، ترنو إلى بلوغ علياء المراتب، وقد اكتست حلّة قشيبة، ودبّجت لجنتها العلميّة، وهيئة تحريرها الدّولية، وعزّزت رصيد مكتسباتها بضمّ لفيف من الأسماء الوازنة في الأوساط الأكاديميّة، والبارزة في المشهد النّقدي المعاصر، وفي اللّسانيات والتّداولية ومختلف علوم اللّغة، لنقّاد ولغويين، وبلاغيّين وسيميائيّين؛ غمروا المجلة بكرمهم، وآثروا شدّ عضدها بالانضمام إلى لجنتها العلميّة، أو هيئة تحريرها الدّولية، وقبلوا بأن يكونوا سفراء للمجلة نحو بلوغ غاياتها السّامية.

وإذا كانت المجلة عبر مسيرتها، قد قطعت شوطًا، بل أشواطًا طيّبة في تحقيق الأهداف المرجوّة من إنشائها؛ فرسمت ملامحها ورؤيتها بوضوح، وحدّدت وجهتها وسياستها في النّشر بدقّة، مؤكّدة على كونها منبراً مفتوحا لإسهامات النقّاد والأكاديميين والباحثين من مختلف الأجيال والأقطار، والتوجّهات والأفكار؛ فإنّها في عددها هذا قد عملت على تحقيق معايير/ شروط وضوابط إدراج وتصنيف المجلات في الفئة "ج". بما يضمن للمجلة حظوظا أوفر لمزيد من الرّيادة على المستوى المحلي والدّولي، وأن تصبح مصنّفة ضمن أشهر القواعد العالمية؛ كلّ ذلك بفضل تضافر واستمرار الجهود المبذولة.

يسر هيئة تحرير مجلة «**أبوليوس**» أن تضع بين أيدي قرائها العدد التاسع "09"، الذي تشارك فيه نخبة من الباحثين والأكاديميين، من بلدان مختلفة، واهتمامات متنوّعة، وبلغات متعدّدة (العربية، الفرنسية). وقد تضمّن هذا العدد بحوثاً ثريّة ومنوّعةً من حيث موضوعاتها واهتماماتها. تتوزّع بين مباحث النّقد التّطبيقي، ونقد النّقد، وقضايا الثّقافة والأدب الشّعبي، والدّراسات اللّغوية، والاهتمامات التّعليميّة. فمن مقالٍ مخصّصٍ لـ: "فضاء العنف في الرواية العربية الجديدة"، يحاول إعادة تأمّل الرّواية في إطار علاقتها بالواقع، ويسلط الضّوء على الأدب في إطار تجاذبات المعرفة/ القوّة، المركز/ الهامش، إلى مقال يتناول إشكالية الظهور المتأخر للرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية مقارنة مع نظيرتها المكتوبة باللغة الفرنسية، مستكشفا الظروف الصعبة والمعقدة التي أحاطت بظهورها، والعوامل الحاسمة التي

كانت وراء تأخرها، منتهيا بالوقوف عند المنعطفات الهامة التي حكمت تحوّلاتها. ولعّل أهمّية هذه الدّراسة تتأتّى من تبنّيها مرجعيّة فوكويّة، ومنظوراً أركيولوجياً، في مقاربة موضوعها.

وانطلاقاً من الأهميّة التي تكتسيها فنون الثقافة والأدب الشّعبي، طرحت دراسة أخرى إشكالية الأبعاد التعليمية في الأدب والثقافة الشفهية، وأهمية التركيز عليها، متّخذة من الأغاني الشّعبية التّقليدية في منطقة سوق أهراس نموذجاً للتحليل. كما ضمّ العدد أيضاً دراستين تندرجان ضمن حقل نقد النّقد؛ اتخذت الدّراسة الأولى من إشكاليات تلقي المقولات النقدية الغربيّة في الثّقافة العربيّة موضوعاً للنّقد والتّفكير، ممثلةً لذلك بمقولة التّناص. أمّا الدّراسة الثّانية فقد طرحت إشكالية قابليّة المناهج النقديّة للتّطبيق على نصوص الأدب الشّعبي، مركّزة على جوانب الخصوصيّة في هذه المنظومة الابداعيّة. وأعاد مقال آخر طرح موضوع قديم/ جديد هو موضوع الصّورة الشّعرية، متخذاً من بردة البوصيري نموذجاً تحليلياً، واقفاً عند شعريّتها، وجمالياتها.

وفي الختام، وقبل أن ترسو هذه الافتتاحية عند نقطة نهايتها؛ والتزاماً بدأب مجلة "**أبوليوس**"، والقائمين عليها، في ترسيخ فضيلة الاعتراف بالفضل، والإقرار بالجميل؛ تنوّه هيئة تحرير المجلة بالجهود الجبّارة التي بذلتها هيئة التّحرير السّابقة، وعلى رأسها الأستاذ الدّكتور **"عبد الوهّاب شعلان"**؛ في سبيل استمرارية المجلّة، وارتقائها، واشعاعيّتها. كما تشيد عالياً بالتّقاليد والضّوابط الأكاديميّة، التي اجترحها وعمل بها. كما تتوجّه هيئة التّحرير بخالص الشّكر والتّقدير للأساتذة الخبراء في الهيئة الاستشارية، واللّجنة العلميّة، ممن أسهموا بقسط وافر من الجهد والوقت والنّصيحة والتّوجيه، والدّعم اللاّمحدود في رعاية هذا المنبر الأكاديمي "**أبوليوس**"، وأسهموا في خروج هذا العدد على هذا النّحو من النّضج والاكتمال.

رئيس التحرير

د. جموعي سعدي

فضاء العنف في الرواية العربية الجديدة

أد. عبد القادر فيدوح
قسم اللغة و الأدب العربي
جامعة قطر

الملخص :

تحاول الرواية العربية الجديدة رصد فعل العنف بوصفه انعكاسا للواقع الذي باتت تحركه القسوة الإنسانية، والمصلحة الذاتية المحكومة بمنطق الزيف الذي تبنته ثقافة الآخر المتسلطة على الثقافة المحلية. وفي ضوء ذلك جاءت الرواية الجديدة لكي ترسم مجريات الأحداث اليومية في علاقتها بالقوة، وبحسب ما تمليه مصالح ثقافة العولمة، والكولونيالية الجديدة التي وظفت طاقتها للحفاظ على مكاسبها الاقتصادية من ثقافة هويات الأطراف بعد فرض أساليب السلطة بجميع أشكالها المتنوعة في ممارسة الإقصاء، والقمع، والقتل، والتهجير.

وكما كانت الرواية الواقعية مسخَّرة للواقع الإيديولوجي الفج، فإن سرد العولمة في نتاجه الإبداعي ، جاء ليكون صورة معبرة عن العناصر المؤسِّسة لهذه العولمة، أو بالأحرى هو انعكاس لعللها، واستثمار لموضوعاتها الموردة إلى ثقافة الأطراف.

الكلمات المفتاحية : الرواية، السرد، الواقع، العنف، السلطة، ثقافة، هوية، تفكيك.

ABSTRACT:

The new Arab novel attempts to monitor the act of violence as a reflection of reality, which has been driven by human cruelty and self-interest that is governed by the logic of falsehood and adopted the culture of the other that dominates the local one. In light of this, the new novel was designed to shape the daily course of events in relation to force, as dictated by the interests of the culture of globalisation, and neocolonialism, that spent its efforts to preserve its economic gains from the culture of parties' identity after imposing all forms of authority through practicing exclusion, repression, and displacement. As the realist novel was devoted to the ideological reality, the narrative of globalisation in its creative output came as a reflection of the founding elements of this globalisation, or rather a reflection of its causes, and an investment of its topics supplied to the parties' culture.

KEY WORDS : : novel, narrative, reality, violence, power, culture, identity, deconstruction.

1- السرد ومرايا السلطة:

ترسم الرواية المعاصرة مقاربة جديدة للواقع، وبأشكال جديدة في الموضوعات، بدأت تتحدد معالمها مع تركيبة ما تقدمه سرديات العالم الجديد من وظائف تفكيكية، تخبر بها عن واقع بات يتأوه باستمرار إلى أن تعذر عليه معرفة طريق الرشاد، وأصبح مرتهنا بالحياة المهمة بجميع مفاصلها، بعد أن تبددت المفاهيم التي كانت تحكم الواقع في الاتجاه الإنساني، والميل به عن كل ما له قيمة في معناها الجوهري.

وإذا كان لا بد من النظر إلى العلاقة التي تجمع بين الرواية والواقع الجديد، فإن حضور السلطة، بجميع أنساقها ووظائفها المعبرة عن القوة، تعدُّ محورا مهيمنا على جميع الأصعدة، وفي جميع مفاصل الحياة بعقباتها الكأداء. وفي ضوء ذلك يصبح من الواضح أن الرواية مع أفكار جيل زمن الـ[ما بعد] تنتج نقدًا بحجم ما تقدمه السلطة المتلاعبة، أو السلطة في **علاقاتها بالقوة**، على حد تعبير فوكو، وبجميع أشكالها في الواقع، وبحسب ما تمليه سيرورة الحياة السائلة، بوصفها نتاجا من نتاجات السلطة بمفهومها الشامل الذي يتجاوز المعنى السياسي إلى المعنى في سياقه الاجتماعي المفعم بالضغائن، نتيجة الممارسات السياسية في سلطتها المتطرفة، وهو ما أنتج واقعا مختلفا عن الواقع المعهود؛ وفي ضوء ذلك تعد السلطة، كما عبر عنها هيدجر، متضمنة القوة المفرطة، ومسهمة في تصدير العنف بوسائط جديدة، تتناسب مع وسائل أفكار العولمة حتى تصل إلى غايتها.

يعيش واقعنا المأزوم ثقافة متأثرة، كرهًا، باقتحام ثقافة العولمة التي تتحكم فيها سياقات الكولونيالية الجديدة بمنتوجاتها الاستهلاكية المادية والمعنوية، وتتعسف في استحداث ثقافة الإنكار لكل ما هو محلي؛ أي باستبدال ما هو هامشي بما هو أصيل، وفرض أساليب السطلة بجميع أشكالها المتنوعة في ممارسة الإقصاء، وتسعى إلى الاستبداد بمحو المعايير الثابتة للسرديات العظيمة الكبرى، والتنكر لها بدافع خلق حياة سائلة، بوصفها المفصل الزمني الذي باتت فيه التقاليد ذاتها تتهرأ بفعل تأثير الرأسمالية المتغولة*

وفي إثر ذلك، كيف تعاطت الرواية مع حال الواقع ومآله؟ وما هو موقفها من الفاعل الرئيس . المهيمن على فعل الوجود . الذي أبدل النقمة المفتعلة بالنعمة المطلقة، والضائقة بالمصافاة، والنائبة بالهناءة؟ وما هو السبيل لمواجهة الانحلال الذي تمارسه الكولونيالية الجديدة بتحكمها في استهلاك هويات الأطراف، وفي فرض سلطة التسويق المرن على سائر بلدان العالم؟ وكيف تعاملت الرواية مع إرادة السلطة المتعاظمة ورغبة التبعية الخاضعة؟ وبصورة أدق، هل صاغت الرواية العربية واقعنا في ظل هويتنا العربية، أو نقلت إلينا واقعا آخر أملته سياقات [**المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب**]؟ وقبل ذلك، أليس من الأجدى أن يفكر الروائي العربي في تأسيس سرديات أصيلة تبِين هويتنا على حقيقتها؟ وإذا كان الآخر يصدِّر العنف بوصفه المبرر الأجدى للاحتيال على الذات المحلية، كيف أسهمت رواياتنا في مواجهة هذا الآخر الذي أصبحنا في ثقافته جاثمين؟ وبعد ذلك هل يمكن سرديا تعيين الذات في الرواية العربية بشكل نافذ ومؤكد؟ وما هي الدلالة التي يمكن أن تحملنا على ذلك، وترغبنا فيها؟ وهل سيمنح الروائي العربي معنى دقيقًا لشخصية الرواية العربية، أو أنه سيظل رهن إفرازات المعطى السردي الغربي؟ وفيم تكمن الخصوصية؟

إن ما طرأ على منظومة العالم الجديد من تغييرات متسارعة، وإخفاقات مختلفة، وتصدعات موجعة، طالت الذات في تفاعلها مع كينونتها في جميع نواحي الحياة، وسيرورتها المطلقة في التحرر الأبدي، كما طالت المرجعيات الثقافية، ومؤسسات المجتمع المدني. وفي كل مرة تحاول هذه المقومات- بجميع مكوناتها التي بها تقوم الحياة- استعادة طاقاتها تُجبَر على الإيقاع بها في إشكالات أشد قساوة وفظاظة مما كانت عليه، وفي كل محاولة للنهوض بالحالة الفكرية أو الاجتماعية، والسعي إلى تضافر الجهود لتحقيق التقدم، تقابَل بالإحباطات والانكسارات المدبرة لها بالختل والاختلاق عن طريق التضليل، سواء أكان ذلك من الذات نفسها بالخيانة والمداهنة، أم من الآخر المحترف في نصب الدسائس والاحتيال، وفي كلتا الحالين تضمِر الكلفة فعل الدمار والتخريب بوشْمَة ناعمة، "ويطلق الخداع مباشرة فهمًا أوسع للحقيقة يتيح التعالي على الخداع... وبصرف النظر عن عدد المرات التي ينحلُّ بها عالم الذات فإنها تبقى قادرة بشكل لانهائي على تكوين عالم جديد؛ إنها تعاني السلبي لكنه لا يستطيع أبدًا أن يبتلعها تماما. في الواقع، لا تفعل المعاناة إلا تدعيم قدراتها التركيبية. السلبي دائما، وحصرًا، مفيد، فهو لايكون مدمرًا بأي معنى نهائي"[1].

ومثلما يعيش واقعنا تفكُّكًا، تقابله الرواية بالسياق نفسه في شكل سرد موزَّد بمفاهيم ومصطلحات فرضتها معرفة الآخر، توثيقًا للفعل السياسي المهيمن على مؤسساتنا الرسمية بخاصة، ما يعني أن مسيرة سرد جيل الألفية الثالثة ملتبسة في تفاصيلها الدقيقة، ولا تفهم إلا في ضوء ما تمليه موزِّدات السرديات الغربية الكبرى، المادية منها والمعنوية، والفكرية منها والثقافية، والسياسية منها والاجتماعية، لذلك لم تعد تمنحنا رواية الجيل الجديد الا ما يشفع لها من خبرة جمالية متضمَّنة في السياقات اللغوية، وبالأساليب البلاغية في استعاراتها المكنية "**المأمولة**"، وبهذا تفقد روايات الحقبة الأخيرة . في تقديرنا المبدئي ثقة المتلقي الحصيف؛ فيما كان عليها أن تمنحه من خصوصية لمواجهة سرديات الآخر، أو على أقل تقدير إمكانية إعراض المتلقي عن توظيف أفكار ما تمليه علينا ثقافة الكولونيالية الجديدة، ومحاولة تبديد ما يحرزه الفكر الميكيافيلي، المتجاهل لتوطين العدالة، وصرف ما يعتاد الاستيلاء عليه هذا الفكر في رؤاه الاستراتيجية للسياسة الداعية إلى أن: "**المتعة المضاعفة لا تكون إلا عنما تخدع المخادَع**"

يجسد السرد الجديد في منجزه الوجود الفعلي لمنظومة العالم الجديد في ثقافته، ما يعني أن البراءة فيه تنحاز إلى تمثيل معايير العولمة، ولا تقدم أي تمثيل لثقافة الأطراف في منظور الدراسات الثقافية، التي تُعنى بثقافة الهامش والمركز. والحال هذه، أن الأمر يستوجب من الرؤية السردية في إبداعنا العربي . على وجه الخصوص . إعادة النظر في الكثير من السرديات "**الناجزة**"، نظير فقدها الكتابة النزيهة في تناولها موضوعات لا تعكس جوهر هويتنا الخالصة، على خلاف ما نجده عند عبد الرحمن منيف . على سبيل المثال . في رواية "**شرق المتوسط**" التي تناول فيها موضوعات شائكة آثر فيها أن تكون الرؤية السردية متضلعة بالخصوصية المحلية، من خلال طرحه إشكالية الرواية السياسية، بوصفها جنسا رائدا . آنذاك . حين طرحت بجرأة باسلة التمرد على المؤسسات الرسمية . العربية . في منظورها السياسي من خارج معطف الأيديولوجيات الوافدة، وقد بيَّن فيها الملابسات والعلل التي أوصلت الواقع

إلى ما آل إليه من خصوصية البيئة المحلية، وتشخيصه الاعتلال والبواعث التي أدت إلى ذلك. ومن المؤكد أن سردًا في مستوى ما جاءت به رواية "شرق المتوسط"، مثلا، يفترض أن تدفع الجيل الجديد إلى إعادة بناء ما تجود به قريحتهم، بما يتلاءم مع هويتنا في طرح موضوعات ناهضة بإرادة ذاتية، تكون محكومة بالشرط الأنطولوجي الثقافي المحلي.

ولعل في التمتع بما تنتجه إرادة الذات ما يجعل العملية الإبداعية متميزة من إرادة التبعية. وفي ضوء ذلك، إذا كانت الإرادة الأولى تعِين هويتها، فإن الإرادة الثانية ترتهن بذات الآخر، وعندما تسعى أية إرادة إلى البحث عن نفسها في سياقات الآخر، وأنساقه الثقافية، تضيع مسلماتها، "وعندما تفتش تبعا لذلك، متجاوزة ذاتها... في خاصية أحد موضوعاتها، فإن التبعية هي التي تنتج عن ذلك دائما. عندئذ لا تعطي الإرادة لنفسها القانون [أي حفْز المبادرة]، بل إن الموضوع هو الذي يعطيها إياه عن طريق العلاقة التي تربط بها. هذه العلاقة، سواء أقامت على الميل أو على تصورات العقل، لا تسمح إلا بقيام الأوامر الشرطية"[2]؛ في حين أن الإرادة الذاتية لا تخلق إلا منجزًا محفزًا نشوة الانتماء بأصالة ثقافة المصدر، بخاصة حين تكون هذه الهوية في طريقها إلى الضمور، والانطواء. وحينئذ، تميل إرادة التبعية إلى التسليم بالاقتداء بالمماثلة، وفي هذه الحالة يأتي المعنى بمحاكاته ثقافة الهدف شائنا، مكدِّرًا صفاء خصوصية هوية المصدر.

1. السرد الملتبس

وإذا كان السرد . بعد أفول شهوة نجومية الشعر . هو ما يُتنافس به على خلاف بقية الأنواع الإبداعية، فإن حقيقة ما وصل إليه إبداع الجيل الجديد . في تقديرنا . عليلٌ من حيث تركيبة الموضوعات التي تتناسب مع ثقافة الهدف، وفق ما يمليه واقعنا الجديد، الداعي إلى تحقيق الخلاص من براثن التبعية. وهكذا يصبح السرد لدى مبدعينا من الجيل الجديد داعما منظومة السرديات الغربية، وأن معرفة ذلك لا تُدرك إلا بعد رصد مبررات تناول هذا الموضوع أو ذاك؛ أضف إلى ذلك أن المبدع الناجح هو من ينطلق في نصه من واقع حياته الخاصة، وإمكانية معالجة مضامين واقعه الأثيل، ومن جوانبه المختلفة، وتفاصيله الدقيقة. على الرغم من اعتقادنا بأنه من الطبيعي أن ينتقل صدى الإبداع من مشاعر إلى أخرى، ومن جنس معرفي إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى، من قبيل تجانس وحدة المشاعر العفوية؛ لكن الشرط الوحيد الذي يفصل بين هذا وذاك هو خصوصية ثقافة الهدف، التي بمقتضاها نستطيع أن نعرف مأمول الواقع، الذي تتطلع إليه الذات في ترقيها لما هو أجدى لها في حياتها.

وكما كانت الرواية الواقعية مسخَّرة للواقع الإيديولوجي الفج، فإن سرد العولمة في نتاجها الإبداعي، جاء ليكون صورة معبرة عن العناصر المؤسِّسة لهذه العولمة، أو بالأحرى هو انعكاس لعللها، واستثمار لموضوعاتها الموردة إلى ثقافة الأطراف. وفي هذا الاتجاه يكون السرد انتصارًا لمباركة النظام العالمي الجديد، الذي ألهم المبدع الخوض في جاهزية الموضوع، وأوحى إليه سرديات الآخر في طرائقه، وكأن الموضوعات باتت تستمد قيمتها من الآخر وليس من ذات ثقافة الهدف. وليس الآخر هنا إلا ثمن نتاج الكولونيالية الجديدة في ثقافتها المصدِّرة إلى ثقافة الذات التي أصبحت متلقية بالتبعية، وفي هذا التوصيف ما يجعل خصوصية السردية العربية الجديدة مُعوَزة القيمة الجمالية، نظرًا إلى أن معظم مبدعينا تماثلوا مع الآخر بالتبني؛ بفعل ظاهرة

التثاقف Acculturation، التي تتعامل مع الأفكار المُمْلاة، أو المتسللة إلى هوية الهدف، من خلال عدم قدرة المبدع على التفرد بخصوصيته، أو محاولته السعي إلى إمكانية توطين المصطلحات، والمفاهيم، والنظرات المستجدة.

وقد يكون من أكبر مزالق هذا التوجه هو أن السرد العربي، مع الجيل الجديد، لم يخرج من دائرة التجريب بعد، وأن يقين وجود المنجز السردي ما يزال محل اختلاج، على الرغم من تدفقه في المكانة التي أحرزتها الكمية المرنة، واستأثرت على سعة حجم عدد من أدعياء مبدعي السرد، الذين لم يبلورا خصوصية رؤاهم الذاتية من مكنون هويتنا. وقد نجد لهذا الطرح الكثير من المسوغات، لعل من أهمها استلاب الذات الذي أحدثه شرخ المنظومة المعرفية إلى الحد الذي غير من المدركات الملازمة للمستجدات التي تقتحم كياننا، وسط محيط يتحول بسرعة فائقة، ويعطي ظهره للمبادئ اليقينية، ويبتعد عن المعارف الحصيفة، والتكوين الناضج؛ الأمر الذي أسهم في فقدان توازن منظومتنا المعرفية بفعل الروافد الملتبسة، ومع ذلك: "**لَيْسَ مِنَ العَدْلِ سُرْعَةُ العَذْلِ**"، وأن "**فاقد الشيء لا يعطيه**"، ولكن الملاءمة بين القول والسياق، استدعت مقولة: "**لكل مقام مقال**".

إن الشكل الأكثر حضورا في الرواية المعاصرة، لجيلنا الواعد، هو ذاك الذي يعبر عن ذوق سيرورة المثاقفة، التي تستند إلى التسلية السردية، الممتحة من معظم شكل سرد الآخر، وعليه فإن تأويلات الرواية المعاصرة تنتج من المصلحة؛ بما هي" رضىً ومقدرةٌ على التمني المنبثق عن علاقة خاصة بالموضوع؛ إذ إنها تشترط مسبقا احتياجًا ما، أو أنها تنتج احتياجًا ما"، إلا أن هذه المصلحة تختلف حسب ميولها ونزعتها، فقد تكون مصلحة أداتية تجريبية، تبتذل النص الروائي، وتحوّله إلى ذريعة لا غير، وقد تكون مصلحة إنسانية تواصلية"[(3)]. وإذا كان الأمر كذلك فإن نسق السرد المستورد يغدو مكتنزا بموضوعات الآخر، وسلوكياته، وبثقافاته المفككة، وليس في ذلك ما يبدو غريبا، ما دمنا نعيش واقعا لم يعد للفن المكانة نفسها التي كان عليها من ذي قبل، وليس غريبا أيضا أن تتماثل فيه الرواية العربية . في ضوء هذا السياق . مع ما تبقى من محاكاة المفاهيم والنظريات، والأساليب، من السرديات الكبرى المعهودة، التي أصبحت في حكم إزاحتها إلى متاحف الكلاسيكيات، وإدخالها في مراقد قضبان التاريخ، ومرجعيات التراث، قد تستدعى عند الحاجة.

ولكن ما الذي يجعلنا نوقن بأن رؤية سردية تحمل في مضامينها جديدًا؟ إن الإجابة عن مثل هذا السؤال يستوجب منا معرفة ما هي أنواع الرواية الجديدة التي تبناها الكتاب في الألفية الثالثة على وجه التحديد، سواء من حيث الأصناف، أم من حيث النوعية في التناول، أم من حيث الجِدَّة في حداثة الموضوعات؟. لعل المتصفح للسرد العربي لا يجد صعوبة في معرفة أنماط هذا الجنس الذي غلب عليه مجموعة أصناف، أو أنساق، منها مثلا: الأنا والآخر، الغيرية، الجنوسة، والمسكوت عنه، وحكايات المهمّشين والمضطهدين، والسياسيين، والعنف بأشكاله، والنص التشعبي، والرواية الإلكترونية، والنص الرقمي، والنص التفاعلي، والنص المترابط Hypertext، والرواية الرقمية، وغيرها من المصطلحات التي تتداخل مع وسيط الحاسوب، والصورة البصرية للسرد، ومن مثل ما يتشاكل معها من النسوية، وما بعد البنيوية، والتفكيكية،

والسيميائية، والتاريخانية الجديدة، والدراسات الثقافية، والنقد الثقافي، وكل ما له صلة بثقافة زمن الـ "**ما بعد**" الدالة على كل ما هو جديد لم تستقر مسوغاتها بعد، وعلى جميع الأصعدة. وهناك الكثير من الأنواع الجديدة التي تعبر عن ذائقة جديدة ، تعد . في أحد مستويات التأويل . انعكاسا لأزمة الإنسان، وتتميز. أسلوبيا . بتفجير الحبكة، وتحطيم مبدأ الإيهام بالواقعية، فضلا على تكسير الزمن، مع ما يترتب على ذلك من فقدان الوحدة والتناغم، والتحديد، فأصبحنا . من ثمَّ . أمام شكل روائي غير ناضج، بل هو ينمو من داخل التجربة، وهذا الصنف من الروايات يدعو إلى إعادة التفكير، والتأمل في العالم، بسبب زرعه بذرة الشك في القارئ، والمكتوب، والعالم. فهو. في المحصلة . ينطلق من رؤيا لا يقينية للعالم[4].

أما من حيث نوعية الموضوعات، وجِدّتها، فإن الرؤية السردية تحاول أن تنتهج مدركات الأنساق الثقافية الجديدة، وتستمد مقوماتها من التحولات الطارئة على التركيبة الاجتماعية التي فرضتها أفكار زمن الـ [ما بعد]، ومازالت تشخصها مسوغات ما بعد الكولونيالية في شكل فضاءات رمزية، قابلة لتحويل الوعي إلى مطاوعة ما يصدَّر له من نتاجات استهلاكية وثقافية، وسياسية، واجتماعية، **مرنة**.

ولعل من الموضوعات الأكثر أهمية، وأبسطها على مستوى الأنواع الأدبية المتناولة في سرديات الجيل الجديد، هو مفهوم الواقعية، الذي بدأ يأخذ شكلا مغايرا، يتناسب مع ما تبنته أفكار (الما بعد)، ومن ضمنها الدراسات الثقافية، حين دعا أنصار الفكر اليساري إلى توظيف الثقافة الشعبية لكشف المستور الخفي، أو التجاهر به، وإظهار سياقات المشترك الثقافي، وغيرها من المفاهيم التي عاصرت مصطلحات عديدة مع منتصف القرن العشرين، حين اشتد فيه الحراك الاجتماعي والسياسي المنادي بالديمقراطية ضد سياسة تفرد النخبة، التي كانت تملك كافة الصلاحيات.

وكان من نتائج هذا الصراع تفعيل دور تيار "**اليسار الجديد**"، الذي تحمل تبعات إيجاد بديل ثقافي للدفاع عن الواقعية من خلال كل ما هو مهمش، وبالمجل عن الارتكاس الثقافي الإيديولوجي، والسعي إلى العمل على إنجاز فن قريب من الوجهة العقلانية المادية، أو الواقعية النقدية؛ للوصول إلى إبراز التناقضات الجدلية القائمة بين النخبة التي اعتمدت الثقافة العليا، والشرائح الاجتماعية العريضة التي تستند في واقعها اليومي إلى الثقافة الشعبية.

ولذلك، شق هذا المصطلح طريقه نحو الدراسات الوصفية لأنماط ثقافة الحياة اليومية في مقوماتها الشعبية، فانتهج سبيل الرفض الإبستيمولوجي الرسمي/النخبوي في مقابل تبني الفكر اليساري، والنهج الغرامشي Antonio Francesco Gramsci، صاحب مقولة [**كل الناس مثقفون**]، والنهج الاثنوجرافي Ethnography في مساعيه الوصفية الدقيقة للثقافات الجماعية، أو النهج السيميائي، أو الأنثروبولوجيا الثقافية، وغيرها من النظريات والمفاهيم التي دعت إليها أفكار ما بعد الحداثة، وجسدتها الثقافة الشعبية في بريطانيا من المثقفين الراديكاليين الذي حملوا شعار "**الحلم الملون**" لثقافة الاندرغراوند[5] المضادة (لغة وإيقاعا) للذهنية الفكتورية[6]

أما من حيث التعامل مع الواقعية في مظاهرها الشكلية، فإن فهمنا لها على مر العقود الأخيرة، لم يكن في الاتجاه السليم؛ إذ الواقعية غير معنية برسم الواقع، أو انعكاس للحياة الحقيقية، فيما تتضمنه من موضوعات، ومدلولات، كما لو أن

الروائي . مثلا . ملزم بالتعبير عن الواقع كما هو، في شكل صورة موضوعية، وهو الخطأ نفسه الذي وقع فيه النقاد في أثناء محاولة شرح موضوعات الرواية بما تتضمنه من تصوير مباشر للواقع، ومفاهيم اجتماعية قابلة لأن تعكس الواقع، "وبقدر ما يختص الأمر بالواقعية، فهي ليست مسألة بشأن محتوى الرواية، بل بالطريقة التي تروى بها الحكاية، الواقعية شكل يتقنَّع في قدرته على توفير إطلالة على العالم، يمكن من خلالها للمرء رؤية الحوادث تجري أمام عينيه، كما لو أنها وقائع حقيقية بالفعل، وبصرف النظر عن كونها عادية...، الواقعية هي الشكل المهيمن في الرواية، وهذا هو بالضبط السبب الذي يجعل العديد من الروايات قابلة للتحويل إلى أفلام سينمائية ..؛ إذن، توفر الواقعية [**إطلالة يمكن من خلالها للمرء أن يرى العالم**][(7)].

وفي ضوء ذلك، لم يجد المهتمون من أنصار الواقعية الجدد غير التماس العون من الدراسات الثقافية، ومن بعض معايير نظريات الشكلانية في التركيز على ما يلازم النص ويصاحبه من عتبات شكلية، وهو ما أطلق عليه جيرار جنيت بـ [**المناص** Para Text*e*]، أو المتعاليات النصية، بغض النظر عن أن تكون داعمة لمتن النص، وذلك عندما طالبوا بدراسة مثل هذه العتبات في شكلها للإسهام في تنظيم بناء النص، كأن يعنى . مثلا . بدراسة: العنوان/ صورة غلاف الكتاب، إن وجدت/والبياض في النص/الإهداء /التصدير /سمك الخطوط وانحنائها، علامات الترقيم/الرسائل المتضمنة/ القصاصات/ الهوامش/التعليقات/الملاحق/النص المرفل Hypermedia /النص المرفَّع Hypertext شكل النص [كدسة] text block/النص الجماعي Collective hypertext،/ الرواية الرقمية/ وبالمجمل النص التفاعلي، وفيه يدرس: المتصفحون browsers، والمستعملون users، والمؤلفون المشاركون co-authors. وقد أشار حسام الخطيب إلى آفاق النص الرقمي وإمكاناته حين " تتوالى بسرعة فائقة تجارب في تعدد وجوه الإفادة من النص: فهناك الطباعة الممكنة المرافقة للنص، وهناك أيضا اللوحات والمشاهد التي يمكن تقديمها بحجوم مختلفة، وحسب الشاشات المتوافرة، بل هناك طبقات من الوثائق والمعلومات يمكن أن تتراكب بالشكل الذي يرضي حاجات المستعمل. وتبع ذلك فرصة الاختيار بين الشاشة، أو الصور المسقطة projected images، أو البيئة الكلية total environment، التي هي تركيب متداخل يشبه تركيب الواقع. وهناك أيضا فرصة الاستماع إلى الكلام المفرغ hyper talk بدلا من القراءة على الشاشة، حسب تصميم جهاز الحاسوب المطروح؛ إن الإمكانات التي بشَّر بها النص التكويني قد غيرت الطرق الاطلاعية... تغييرًا أساسيًا"[(8)].

ولعل ما زاد من قوة استثمار النص المرفل، أو المفرَّع، من سبل وسائل تكنولوجيا المعلومات هو الأبعاد الفنية الجديدة التي أتاحت للرواية . مثلا . استعمال وسائل عديدة لتتبع مجريات أحداثها وتحركات شخصياتها بما تمليه عليها من تكنيك في التوظيف على غرار ما وظفته رواية "حكاية العربي الأخير" من توصيف لتقنية تكنولوجيا المعلومات بصورة عالية الجودة، من خلال التلاعب بالصورة والصوت، حين تم عرض تصوير مسجل لشخصية آدم الرئيسة، وهي في موقف حرج[(9)]، وفي المقابلة الافتراضية التي دارت بين شخصية آدم وشخصية "مايا" في جلسة حميمية[(10)]. أو كما وظفه داود سلمان الشويلي في روايته "الحب في زمن النت"،

وكذلك الأمر مع الروائية مريم كثماتي في روايتها "حب في زمن الفيس بوك"، وهناك نصوص أخرى كثيرة تحتاج إلى دراسة خاصة، ليس المجال لدراستها في هذا المقام.

ويبدو أن الرواية بدأت تتجه هذا المنحى بتوظيفها التواصل الاجتماعي بشكل تفصيلي وموسع، وفي ضوء ذلك أصبح هذا التفكير التقني نسقا هيكليا متشابكا في العمل الفني، كما هو الشأن بالنسبة إلى حياتنا. وقد لاحظ الكثيرون التأثير المتعاظم لهذا النسق في تشكيل رؤيتنا للعالم، غير أن الفيلسوف الألماني المؤثر، والأكثر مشاكسة بين الفلاسفة [مارتن هيدجر Martin Heidegger] هو من أشار إلى موضوع التأثير المتعاظم للأنساق التقنية في تشكيل أنماط تفكيرنا المعاصر[11]، وهو ما خلق نقلة مخالفة لما كان سائدا في مسار تقنيات الرواية بوجه عام؛ بعد أن استثمر المبدعون ظاهرة العلاقة الفاعلة بين الأدب وتكنولوجيا المعلومات التي أعطت نتائج ملتبسة في ربط الصلة بين الجنسين، بحسب ما تكشفه مسميات الكثير من المفاهيم والمصطلحات ذات الصلة . على نحو ما مر بنا . مثل: النص التشعبي، والرواية الإلكترونية، والنص الرقمي، والنص المحيط، والنص التفاعلي، والرواية الإلكترونية، والنص المترابط Hypertext، والنص الفوقي، والنص التكويني، وغيرها من المصطلحات التي تتداخل مع وسيط الحاسوب.

وإذا كانت الواقعية في الدراسات الأدبية، وبخاصة في العقود الأخيرة، قد ربطت الموضوعات ارتباطا وطيد الصلة بالواقع، فإن مسايرة أفكار (الما بعد) فرضت على هذا التيار الجديد وصف الأعمال بما يتناسب مع كل ما هو جديد، ألزم نفسه بشكل لافت في إنتاج الأنساق المعرفية والثقافية المستحدثة، ذات الصلة بـ "مرونة إنتاج الاستهلاك، بما يتواءم مع أنساق النزعة الفردانية الواسعة النطاق"، وبخاصة بعد "**انتهاء عصر يقينية المعرفة**" وانتشار "**خصوصية التفرد**" وإحلال الخصوصية الفردية على حساب الخصوصية المشتركة، والرؤية الجزئية على حساب الرؤية الكلية، وتفوق المطلق على النسبي، واصطفاء عقل التجارب على عقل التمسك بالكائنات المجردة، وتفكيك المفاهيم بدل الاهتمام بالترابط، واستبدال البنية بالقيمة، والهامش بالمركز، وفي كل ذلك أصبح الواقع محورا للتفكيك، ومُعدًّا للفصامية، والانسلاخ، والشذر الفكري، وهكذا مع كل ما يمت بصلة إلى نقض الأعراف والقوانين الاجتماعية والثقافية المعهودة.

2- سرديات التأوّه/ نفوذ العنف

بعد الحديث عن الروافد الملتبسة في ظل مرايا السلطة، التي غلبت على الكثير من الأعمال السردية في الآونة الأخيرة، يجدر بنا في هذا المقام أن نستكنه عالم الرواية في خطابها السياسي ذي النفوذ العنيف في مواجهة سياسية النظام العالمي الجديد، وهو ما سعت أفكار ما بعد الكولونيالية الجديدة إلى بلورته على حساب الخطاب الشمولي، ذي النزعة المواضعاتية، حين لم يعد له نصيب في ظل تعقيد الحياة؛ إذ تعد الحدودُ الواصلةُ واهنةً بين صورة الواقع والوعي الثقافي المتطلع إلى العلاقات المتكاملة بين الثقافات والشعوب، في حين تأتي الحدودُ الفاصلةُ بين الذات والآخر عائقة، ولعل في هذا التباين ما يباعد الوحدة الكلية لتجميع أبعاد الكون، فضلا عن استيعاب الواقع في حدوده الضيقة، بالنظر إلى ما يُنسَج له من شباك عالقة؛ وفي غمرة ذلك لم ينتج هذا الكون إلا عالما زائفا في جميع هياكله الاجتماعية، والثقافية، والسياسية،

والاقتصادية، بما في ذلك محاولة تزييف الدين لأغراض نفعية في شتى المجالات.

والمتتبع لما يجري في هذا العالم الواهن، يدرك معنى ممارسة التشكيك في كافة المجالات التي أصبحت تتحرك أمام العقل بين السعي إلى الفوضى والدعوة إلى التريب، وبين واقع معهود بمكوناته، وإمكانية خلق واقع آخر مركب من التعارضات، والتناقضات، وبين هذا وذاك أصبح جيل الألفية الثالثة يعيش حالة من الأنظمة المركبة؛ إذ كل شيء في هذا العالم موزع بين التفصيل والتقسيم، بين الرغبة في الوحدة، ومبتغى التقسيم، بين الدعوة إلى الانتماء، والإرادة في التشرد بفعل السلطة القسرية، وبالمجمل إننا نعيش في عالم فرض واقعا يشخص سقوط المعنى، وصعود اللامعقول؛ من قبل السلطة المرنة ذات شعار [الفوضى الخلاقة] من ذوي القرار النافذ للكولونيالية الجديدة، سعيا إلى السيطرة على هويات الأطراف والشعوب المستضعفة.

والحديث عن هذا الواقع المأزوم، والسؤال عنه، لن يكون سوى السؤال نفسه عن الرواية القلقة، وإذا كان للواقع أسئلته، فإن للفن أسئلته عن هذا الواقع، وللرواية أسئلتها عن أنطولوجيا الوجود الإنساني، بوصفها النوع الأدبي الأكثر شهرة من بقية الأجناس الفنية؛ لأنها تجعلنا نقترب من ذاتنا، وتضعنا أمام ذروة ما يعترينا من إدراكات تحرك هذا العالم في هذا الاتجاه أو ذاك، وتقربنا من عمق عاصفة التغييرات الجذرية التي بدأت تطرأ على هذا العالم. أضف إلى ذلك أن الرواية تبدو أكثر قدرة على احتواء ما غفل عن الوعي المندمج في الحياة السائلة بتفاعلاتها الاستهلاكية، وما سها عنه الإنسان المنخرط في الوجود الذهني بالمفهوم الديكارتي [René Descartes]، الذي لا يمكن وصول الشك إليه. ولكن، أنَّى لنا من الوجود الواقعي الذي أصبح يغلب عليه زعزعة اليقينيات، وبث الشكوك في السرديات الكبرى من خطيئة الآخر في كل ما يصيب صحة هذه اليقينيات واعتقادها بهذه السرديات؟.

صحيح أن الرواية تفككُ الواقعَ، وتعيد بناءه بطريقة خيالية، وبمواصفات خاصة، ولكن مع رواية الجيل الجديد يبدو الحديث فيها عن الواقع المأمول بعيد المنال، نظرًا إلى وفرة العناصر الانهزامية التي بات يعاني منها الإنسان العربي على وجه التحديد، ومن ثمَّ ابتعدت الرواية . في شق كبير منها . عن السمات المتوقعة لهذا الواقع المعمول، المرتهن بالحالات الموغلة في العنف، والاغتصاب، والإذلال، والاستبداد، والإرهاب، ونشر ثقافة الخوف، وفقد الأمل، في خضم تراكم الإحباطات، والهزائم، والانتكاسات، وكثرة العلل، وزرع الفشل، وهي المرحلة التي أطلقنا عليها في مرات عديدة بـ "**مرحلة الاستخذاء والخضوع**"؛ مع أننا [**لم نُخلق مستخذين، وإنما صرنا كذلك**] بفعل الازدراء الماثل في واقعنا عنوةً، والمورَّد منه لإذعاننا بشكل مرن. ويمثل النوع الأول من حيث الريادة رواية "**شرق المتوسط**" بوصفها اللبنة الأولى التي سبقت روايات الجيل الجديد في هذا المجال، في حين يمثل النوع الثاني، رواية ["**عَوْ**" الجنرال لا ينسى كلابه] لإبراهيم نصر الله، وبعدها رواية "حكاية العربي الأخير، بوصفها الأرضية الأساس التي بدأ يستند إليها الجيل الجديد في التعبير عن استبداد الآخر، حين عبرت بكل وضوح عن كيفية استثمار الكولونيالية الجديدة كل طاقتها للاستيلاء على ثروات الذات، متخفية وراء ادعاءات واهية.

ارتبطت الرواية الجديدة . في معظمها . بطرح ظاهرة "لبَّ العدم"، وجوهر الحرمان، في زمن العنف المستفحل في طويتنا، وفي كياننا الثقافي، والاجتماعي، والسياسي، وحتى الاقتصادي. وإذا كانت الذات ترغب في أن تعيش الوجود الممكن، فإن هذا الإحساس أصبح مهووسا بتعاظم الإحباطات، وتكوُّم الانهزامات المتتالية؛ لذلك نجد معظم الروايات تعبر عن تشخيص حالة الواقع العربي المنتشي بالألم، والمستيقظ يوميا بالتأوُّه والأسى ليعيش الحياة بالموت، والموت بالحياة؛ بالنظر إلى ما يغيظه من صور دراماتكية، ويستفزه من مناظر موجعة لمظاهر العنف المنتشر في وجودنا، نعيشها يوميا بتجارب محطمة من تهديد الآخر لنا، ولثقافتنا؛ إذ الثقافة المهيمنة في عالم اليوم لا تنفك تؤكد أن الآخر هو تهديد لنا، وأن من لا نعرفهم من نظرائنا البشر هم خطر داهمٌ علينا !.. سنظل كلنا نعيش منفيين في بلداننا بشكل أو بآخر، طالما مضينا في قبول ما تواضع عليه الناس من اعتبار العالم ميدان سباقٍ، أو ساحة معركة لا مجال فيها إلا للفوز الساحق، أو الخسارة المنكرة"[(12)]. وإذا عدنا بأنظارنا إلى ما تشخصه الرواية . في الآونة الأخيرة . يمكننا أن نلحظ هذه الصورة ماثلة بشكل لافت؛ إذ المسافة بين الواقع المعمول في الثقافته الوطنية [المصدر]، والواقع المأمول في الثقافة الوافدة [الهدف] تحكمها الرغبة في تسلط الثانية على الأولى، وقد ساد معيار هذا التسلط، بهيمنته الكاسحة، سبيلَه في أسلوب العنف.

ولقد كان لأسلوب العنف من القوة الكولونيالية الجديدة أثره البالغ في الرواية المعاصرة، والأمثلة على ذلك كثيرة جدا، نستعين بذكر بعض منها؛ لأن ما يهمنا في هذا المقام هو إيجاد المسوغات لتصاعد صوت الرواية في مستوى تصاعد وتيرة العنف الذي اصطبغ بطابع التضليل، والتمويه. ولنا في ذلك على سبيل المثال رواية "**حكاية العربي الأخير**" التي تدور فكرتها حول مآل العرب الذي كان سببه الانحدار إلى الانحلال في ظل الأزمات والصراعات الدولية، بخاصة تلك التي تجري بين القوى العظمى والأنظمة العربية الشمولية؛ أي بين إرادة السلطة ورغبة الاستسلام، والطاعة، وقد مثل الطرف الثاني الشخصية الرئيسة في الرواية [آدم] التي أريد لها أن تكون عالما فيزيائيا نوويا، ومشْرفا على مشروع "**صنع قنبلة نوويَّة مصغَّرة**"، يسهل وضعها في الزمان والمكان المحددين، وهي فكرة مستوحاة من الخيال، تحاكي مجريات أحداث العالم العربي اليوم. وقد اختار الكاتب قلعة [آرابيا]، في إشارة إلى الدول العربية، في حين اختار مسمى [أميروبا] وهي كلمة مركبة من أميركا وأوروبا.

وكان للحروب العبثية بين العرب والغرب، أو فيما بين العرب أنفسهم . في نظر الرواية . الأثر البالغ في تفتيت العرب وتشتيتهم إلى شظايا. ولم يعد لهم أي دور في بناء حضارة الألفية الثالثة، بفعل التمزقات الطائفية والعرقية، حتى بات أفضل العربي يوصم بـ : "**العربي الجيد هو العربي الميت**".

كما تطرح الرواية أسئلة أنطولوجية في ظل الأزمات الوجودية، بعد صناعة الإرهاب، وتحديد العدو؛ لتحقيق الهدف على الطريقة الميكيافيلية Niccolò Machiavelli بوصفها نظرية تعكس "**الغاية تبرر الوسيلة**"؛ أي استخدام العنف من أجل إثبات القوة للسيطرة على الشعوب، وهو ما تتبناه دول [أميروبا] بحسب تعبير الرواية في استراتيجياتها السياسية، التي لم تجد غير شخصية [آدم] المُدَرَّب على إنجاز فعل الموت بسباق محموم، ويقوم بالحرب في [أرابيا] بالوكالة في صورة خيالية لها من القرائن الدالة ما تعكس الواقع.

والأمر سيان بين رواية حكاية العربي الأخير، ورواية [فرانكشتاين[13] في بغداد] لأحمد السعداوي التي خلقت عالما سرديا من عالم واقعي، تناظرًا معًا ليعبرًا عن غزو العراق بدواع واهية. يسرد بطلها المأساوي علاقة الذات مع الآخر؛ "لأنه يبحث عن قيم أصيلة في عالم متدهور، بحثًا متدهورًا"[14] غاية هذا الاجتياح الأساس من الناحية الاستراتيجية هو استحداث نظرية [**عالمٌ تابعٌ، حقيقة ممكنة**]، ومن الناحية العملية سلب الآخر واحتواء ممتلكاته من دون أدنى اعتبار لضحايا التفجيرات التي أتت على الأخضر واليابس، من قبل أمريكا مع "**ائتلاف الراغبين**"، وهو ما عبرت عنه الشخصية الرئيسة الشِّسمة الـ" مصنوع من بقايا أجساد لضحايا، مضافا إليها روح ضحية، واسم ضحية أخرى. إنه خلاصة ضحايا يطلبون الثأر لموتهم حتى يرتاحوا. وهو مخلوق للانتقام والثأر لهم"[15].

نحن إذن، أمام أسلوب جديد من السرد، يَظهر الصراع من خلاله على أشده بين الهويات المتباينة، ويشكل قطبه الأساس مناهضة الآخر، ومواجهة مُجتلباته من **الصيغ المدمرة الناعمة**، والمد الثقافوي culturalisme في افتتانه بتفصيل ثقافة جديدة وتفننه فيها، وليس هناك من سبيل غير صناعة تصدير العنف، وهو المبدأ الذي ينتهجه "**ائتلاف الراغبين**"، ويسعى إلى تحقيقه بأقل كلفة من خلال "إيجاد طريقة ذات كلفٍ متدنية يوازي فيها بين أماني أمريكا النبيلة؛ لإحداث تنمية ديموقراطية في العالم الثالث، وبين رغبتها القوية في تجاوز عقدة أعراض فيتنام"[16]. هذه الصناعة تقوم على ركيزتين، **أولهما**: نشر "**شذا الوهم**"، وهو ما يتمثل في صناعة المنافسة الدعائية عبر **الإشهار/الإعلان**، ومرونة توصيل الخدمات لخلق الرغبة في [الوصول] بسرعة فائقة، **وثانيهما**: إشاعة التضليل؛ لاستهواء الذات تقبّل الآخر، وجذبها إليه، سعيا إلى تغيير القيم والأذواق من دون الشعور بتسلل هذه الإرسالية المتفاعلة مع كيان الذات، في شتى المجالات.

ولعل عنفا بهذا المستوى لا يمكنه إلا أن يكون وصمة على جبين أصحاب القرار، ومؤشرًا يوثق سوءة كلٍّ منْ ولي أمر دولته بالحفظ، والآمان، وهو ما تصوره رواية "**غفرانك يا أمي**"[17] للروائي محمود حسن الجاسم التي صور فيها ما يقع في سوريا من دمار وهدم العلاقات الإنسانية، وتشتيت التركيبة الاجتماعية، وتهجير المواطنين، فضلا عن الدمار الذي ما زالت تخلفه تبعات الحروب العبثية المسلطة على الأوطان على النحو الذي سردته علينا هذه الرواية من أحداث الحرب الطاحنة التي تعيشها سوريا هذه الأيام، على لسان بطلها الأستاذ الجامعي ماجد الذي يؤدي الخدمة الإلزامية في كتيبة عسكرية سورية.

وتبدأ الرواية بتصوير نموذج للمواجهات العسكرية، وتسلط الضوء على وحشية القتل وبشاعته، وعلى سقوط الضحايا المدنيين بين مواجهات طاحنة لا ترحم، كما تتعرض لتجسيد الصراع النفسي الذي يعيشه البطل، وبعض الشخصيات العسكرية الأخرى.

وتنتقل الرواية لعرض التحولات والتغيرات في الحياة العسكرية للجيش السوري من خلال نموذج معين وهو كتيبة البطل ماجد، وتعرض تنامي الخطر في الواقع اليومي، في الحراسة الليلية والقنص، والقتل الجماعي لبعض العناصر، وتوافد الغرباء إلى الكتيبة، وفي مقتل بعض الضباط أو هروبهم، وفي تنامي الخطر في الحراسة. كما تركز الرواية على خصوصية العلاقة بين البطل وزميله الضابط

المجند غسّان، الذي يكون بمثابة الأخ للبطل، تربطه به علاقة تاريخية تجري مجرى الدم، وتنقل لنا الخلاف بينهما في مسألة الحرب وهروب غسان من الكتيبة، في إشارة إلى ما ذهبنا إليه فيما تسببه الحرب القذرة من كراهية، وما تثيره من صراعات، بات يدركها المرء بوصفها مدمرة لكل القيم، فضلا عما تسببه من فساد في العلاقات السوية بين الناس. ثم تنقلنا الرواية إلى خارج الكتيبة لتجسد لنا تطور الأحداث وفقدان الأمن على الطرقات العامة، عن طريق خروج البطل بمهمة عسكرية إلى منطقة شمال حماه، كما تبرز لنا التحولات في نفسية البطل من خلال توصله إلى قرار الهروب، وتصور لنا اللحمة الاجتماعية المعهودة سابقًا في سوريا عبر التداعيات التي يعيشها البطل وتجسيد جمال سوريا الأخاذ وآثارها العظيمة.

كما تعرض الرواية كيفية هروب البطل والتخفي في البلدة المحاصرة، والمعاناة الفظيعة التي يعيشها، وإحساس الدونية الذي تلبسه بعد هروبه، ومشاهدته لبعض المجازر وهو مختبئ، كما تعرض لموقف عينة من الشعب من الحرب الطاحنة.

بعدها تنقلنا الرواية إلى خروج البطل من البلدة ووقوعه بيد جماعة مسلحة تعتقله، وتضعه في كهف يرى فيه أشياء قاسية، بشعة، ومهينة، وتبيعه أو تسلمه إلى جهة من المعارضة الإسلامية المتطرّفة، وتقف لتحاكمه هذه الأخيرة وتبرئه، وقبل خروجه يشاهد موقفًا لحكم قصاص ويتعرف إلى فظاعة الواقع هناك. ويتفاجأ بمحاكمة زميله التاريخي الغالي غسان كيف يساق إلى الساحة لقتله بعد أن حكموا عليه أن يقتل بالسيف، ولا يمتلك نفسه فتحضر سوريا والتاريخ وطفولتهما وأهله وأهل غسان فينقض على الجلاد، ولكنه يقع لكثرة ضربه بالرصاص ويستشهد.

وإذا كان فضاء سرديات العنف في رواية [**غفرانك يا أمي**]، كما في غيرها كثير، يشخص حالة الرعب فينا، وسياسة القمع، فإن للذات المستخذية المتسلطة دورًا سافرًا ورَّث تبعات اليأس وتكريس سياسة الهروب إلى السعير، بعد أن سُدَّت في وجهه الآفاق التي جعلت منه مشحونا ومأزوما، وفاشلا فشلا ذريعا في تحقيق الآمال، نظير الحياة المتأزمة التي توالت عليها حروب مفتعلة، ومن ثم أصبحت الرواية مع بداية الألفية الثالثة تمثل سرديات هذه الفجيعة، ونفوذ العنف بشكل ملحوظ، بخاصة بعد 2003، في أثناء الغزو الأمريكي للعراق، حين تجلت مظاهر الإماتة والفتك في المناخ الثقافي العربي بشكل طاغٍ، وفي مجمل مظاهر الحياة اليومية، وهو ما أثر على المشهد السردي الذي صار تحت طائلة الدمار والقتل الشنيع، مما شكل حالة من الاضطرابات النفسية والاجتماعية لم تندمل بعد، ولم تلتحم علامات معافاته من صدمة ما حدث . وما زال يحدث . بشكل تراجيدي. ولنا في مثل هذه السرود العديد من الروايات التي شخصت مصير الواقع بشكل دراماتيكي: منها على سبيل المثال، وفي مقدمتها على الإطلاق، بوصفها النموذج لهذا النمط من روايات العنف، أو المعبرة عن الخراب، رواية "**حكاية العربي الأخير**" للروائي العالمي واسيني الأعرج، ثم تليها رواية فرانكشتاين في بغداد، للروائي أحمد سعداوي، التي وصفت الواقع العراقي فضلا عن الواقع العربي بالمضمر، حين وصف فيها حالة العنف بشقيه الإرهاب، والإرهاب المضاد "حتى ينتهي الأمر بمن هو على قناعة بأنه يقاتل البربرية إلى السقوط فيها، لنصبح قبالة موت يتوالد لينجب مزيدا من موت وانتقام، تحركهما شهوة مفتوحة على الدماء يصعب إيقافها..في هذه الرواية يقوم [هادي العتاك] بجمع بقايا أجساد ضحايا التفجيرات الإرهابية في أحد

أحياء بغداد ليصنع منها مخلوقا يدعى[الشِّسمة]، بوصفه خلاصة ضحايا يطلبون الثأر لموتهم حتى يرتاحوا، أو هو جثة مجمعة من بقايا جثث متفرقة تعود إلى مكونات، وأعراق، وقبائل، وأجناس، وخلفيات اجتماعية متباينة، تمثل خلطة لم تتحقق سابقا .. وأن البدايات تظهر هذا المخلوق منخرطا في مهمة نبيلة كان مصمما على إنجازها، ويعلن نفسه ملبيًا نداء المساكين ودعوات الضحايا فيردد: " سأقتص بعون الله والسماء من كل المجرمين، سأنجز العدالة على الأرض خيرًا، ولن يكون هناك من حاجة لانتظار ممضٍ ومؤلمٍ لعدالة تأتي لاحقا في السماء أو بعد الموت"[(18)]. والأمثلة على هذا النوع من الروايات كثيرة، اخترنا منها ما توافر فيها من بواعث العنف بشكل ملحوظ في الجدول اللاحق.

لا أحد ينكر أن ما يجري في الواقع أصبح عصيا على الفهم، وكأننا نعيش عصر الميثولوجيا بأحداثها الخارقة، حيال ما تسرده الحياة اليومية، التي يغلب عليها ظاهرة صعود اللامعقول فينا، فاستعصت مبررات الفهم؛ إذ الفهم كما هو عند وليام دلتاي Dilthey "**ليس مادة للتوغل في عقول الناس، بل هو عملية لإدراك تغيرات عقولهم**"، واستحالت مسوغات التحليل من خلال رعب الحدث بممارسة القتل فينا، وقتل ذواتنا من ذواتنا، قبل قتلنا من الآخر، تجاوبًا مع القوى التدبيرية للتدمير وهي تخترق ضمائرنا الواهية، لتجسد فعل الانفجار والانهيار؛ إذ "في حالة الإرهاب، تحاول الفرضية المطلقة التفكير به في ما وراء الممثلين والعنف المشهدي كظهور تناقض راديكالي في صلب سيرورة العولمة، في صلب شيء يتعذر نفيه، في تميزه، في هذا الإنجاز الحقيقي، التقني والذهني للعالم، في هذا التطور الحتمي لنظام عالمي منجز، إنجاز للعالم بتأثير قوة حاسمة، سواء رأينا في الإرهاب بكل أشكاله قوة مضادة حيوية تتمكن من القضاء على قوة النظام . كقوة عولمة عابثة . أو وجدنا فيها قوة موت، أي انقسام، نفي ضد قوة إيجابية لتصالح شامل، لعالم قابل للانصهار بكامله في التبادل. بالتالي قوة تحدٍّ وفشل ضد ما نسميه المماثلة الشاملة للعالم"[(19)].

إن طابع العنف في الرواية مبعثه معضلة الآخر بما يوظفه من إمكانات داعمة لمصالحه ، يكون في ضوئها على قدر من المهمة للدفاع عن مصالحه، ضد كل من يقف في وجه مقاصده النفعية من توفير الحماية اللازمة، حتى لو كانت أمنية، أو عسكرية، فضلا عن الثقافية، وهو الأمر الذي خلق صراعات متعددة بين الذات والآخر، وخلق آثارا مفجعة، تسببت في الدمار الكامل، والانهيار النفسي قبل الهلاك الذي عم البلاد والعباد، وقد عبرت عن ذلك بشكل واضح الرواية العربية من خلال تضلُّع الكتاب واقع الحياة اليومية المقروحة، حين صوروا حقيقة الموت، ومظاهر العسَف، وفقدان الأمن، والتهجير المنظم، والتشتيت المدبَّر، من واقع فرض على الذات ضيمًا.

ومجمل ما يمكن أن نستخلصه . في ضوء محدودية المساحة المسموح بها لهذا البحث . أن كل رواية من الروايات التي كتبت في الحقبة الأخيرة تحمل في تضاعيفها قدرًا من التعبير عن الموت والقتل والإرهاب، وتحت ظروف متعددة وقاسية، على حد قول الشاعر **ابن نباتة السعدي** :

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره
تعددت الأسباب والموت واحد

وفي هذه البيبليوغرافية المختصرة ما يمكن أن تقرب من فكرة الكم الهائل للروايات التي تناولت العنف بأشكاله، وتحتاج إلى تيمات فنية تحلل هذه النصوص المشحونة بدلالات العنف، والضيم، والظلم، والموت، والدمار، و" يبقى أن كثيرا من الروايات التي . نعرضها في هذا الجدول . وفي هذا المحور كانت تدفع باتجاه التركيز على الديناميكية النفسية لشخصياتها بكل ما يعتريها من علاقات ضدية بسلوكيات عدائية معقدة، وهو ما يدخل في صلب تحدٍ يواجه الروائي، يبقى متمركزا حول كيفية بناء الشخصيات في إطار منطلق صراعات داخلية، وأخرى خارجية، بما يمكن أن يمنحه هذا البناء للقارئ من فرصة اكتشاف هذه الشخصيات، ولربما الاندماج معها.[20]

وإذا كانت الرواية لدى الجيل الجديد قد مالت إلى هذا التوجه من الكتابة عن العنف، والإرهاب، فلأن الانشغال بها مدفوع بالسؤال عن مصير الذات داخل هذا المشهد التراجيدي الذي يعيشه الكاتب، بوصفه معادلا موضوعيا، وخاضعا للاعتبارات الثقافية والاجتماعية. وتعيين هذه الروايات في هذا السرد الإحصائي المقتضب لا يعني الحصيلة النهائية، بل هناك روايات أخرى، قد تكون أوفر حظوة من هذه في تناول هذه الموضوعات، ربما فاتتنا لغفلة منا، وكلها تحتاج إلى بحوث دقيقة لتفصيل معالم هذه المظاهر، من روايات العنف المنتشرة مؤخرا:

الكاتب	عنوان الرواية	الموضوع
واسيني الأعرج	2084حكاية العربي الأخير	مساهمة الذات في دمار الواقع العربي وخرابه
إلياس خوري	رائحة الصابون	تصور لبنان بعد تعاظم الطائفية، والضياع، وعدم الاستقراء من خلال العنف الذي أدى بالبلد إلى ركام الجثث ونتانة الدم المتيبس وصور البشر إلى وحوش تسفك الدماء.
إبراهيم نصر الله	حرب الكلب الثانية	ترسم صورة "**نزعة التوحش التي تسود المجتمعات والنماذج البشرية واستشراء النزعة المادية بعيدا عن القيم الخلقية والإنسانية فيغدو كل شيء مباحا حتى المتاجرة بمصير الناس وأرواحهم**"
أحمد سعداوي	فرنكشتاين في بغداد	تُسرَد الرواية على لسان الشخصية الرئيسة "**هادي العتاك**" التي تقوم بتجميع أجزاء من جثث القتلى من هلاك العراق ودماره، يُنتج منها كائنات بشرية غريبة، يرسمها في صورة خيالية تحاول الانتقام للعراق من الدمار الذي أجبر عليه، والثأر من الآخر.
جمال عبد الرحيم	موستار	الرواية العربية الأولى التي تؤرخ لحرب البوسنة وتحكي تاريخ الشعب البوسنوى ومعاناته [بقيادة رئيسها الرشيد "على عزت بيجوفيتش] وعن الأبرياء والذين اصيبوا في اقسى الحروب الحديثة وحشية وبربرية"
سنان أنطوان	يا مريم	حادثة الهجوم على كنيسة النجاة في بغداد 2010

الحبيب السائح	من قتل أسعد المرّوري	جاء في صورة من سرد الرواية:" تعيش مدينة وهران ولمدة أربعة أيام على وقع اختفاء "أسعد المرّوري"، الأستاذ بجامعة وهران والناشط الحقوقي، قبل أن تهتز في اليوم الخامس بخبر اكتشاف جثته هامدة بمقر حزب الحركة الديمقراطية الذي ينتمي إليه"
الحبيب السائح	الموت في وهران	تعد مدينة وهران في سرد الرواية الحدث الأبرز للعشرية السوداء،" ويتطرق النص إلى الحياة اليومية لسكان مدينة وهران بعاداتهم وحميمية يومياتهم في جوانب المدينة العتيقة، والتي تتحول إلى مكان تنمو فيه كل أنواع العنف ومظاهره، فلم يعد شيء يشجع على البقاء حيا في مدينة ميتة، وأن الموت في وهران متعدد جسديا وبشكل مأساوي ولكنه أيضا هو مظهر لهلاك كثير من المعالم التي كانت تعطي وهران حياة أخصب مما هي عليه الآن"
عبد الخالق الركابي	ليل على باب الحزين	وصف للبواعث التي أدت إلى خراب الواقع ودماره
فيصل النوري	جارة الأزد	تصور التحولات السياسية والاجتماعية التي طرأت على العراق بخاصة بعد غزو العراق، وانتشار العنف الذي أدى إلى هلاك البلد.
بشير مفتي	دمية النار	تروي الرواية . في جزء منها . أحداث الجزائر الدامية في العشرية الحمراء، في التسعينات من القرن العشرين، والتحاق إحدى الشخصيات بالجماعة الإرهابية، رواية موغلة في سوداوية كالحة.
محمود حسن الجاسم	نزوح مريم	تعرض الرواية لمشاهد الرعب، والدمار، والقتل، والنزوح والتهجيرات التي وقعت في سوريا، في فترة عصيبة من الحرب الحالية، وتركز في سردها على واقع الرقة السورية، وما تعرض له أهالي الرقة من تقتيل، ورعب، وقمع، وإرهاب، واضطهاد، في ظل الجماعات الإسلامية المتطرفة. وقد كُتبت بصورة رسالة أشبه بوصية من بطلة الرواية **سارة طوني جبور** المسيحية، زوجة المهندس المسلم الذي اختطفته الجماعات الإسلامية حين استباحت الرقة، كتبتها إلى ابنتها مريم التي نزحت ولجأت معها.
محمود حسن الجاسم	غفرانك يا أمي	تسرد أحداث الحرب الطاحنة التي تعيشها سوريا هذه الأيام، على لسان بطلها الأستاذ الجامعي ماجد الذي يؤدي الخدمة الإلزامية في كتيبة عسكرية سورية.
الأشعري محمد	القوس والفراشة	تفسير العنف ومبرراته بصور موجعة
إبراهيم اليوسف	شارع الحرية	تتحدث عن واقع المناطق الكردية في سورية، منذ بداية الثورة السورية التي انخرط فيها الكرد، وحتى الآن، بوصف دقيق للوضع الأمني
ناجي جمال	موسم الحوريات	وصف للجهاديين والمتطرفين الذين يقاتلون من أجل الأجساد الكريستالية

سمير فرحات	بنات خودا	رسم صورة الحرب التي تقود الشعوب إلى حتفها بفعل المساهمة في الخراب والدمار من خلال تجنيد الإرهابيين عبر زرع أفكار دينية متطرفة في نفوسهم.
أحمد المخلوفي	شعلة ابن رشد	لعل خير من يعبر عن موضوع الرواية، هو حوار دار بين الشخصية الرئيسة، والشخصية الثانوية: قد لا يكون لنا مكان في عالم يطحنه جنون العقل وخوف السلطة وجشعها الموحش، وخواء الوجدان، وشهوة القتل، وصناعة الإرهاب، وتشجيع العنصرية المقيتة، ص11.
هبة أسعد	الحب على شرفات الموت	ترسم علاقة تدور بين شاب يهودي مكلف بقتل الطلاب العرب في جامعة لندن والمتحيز للعقيدة الصهيونية.. وسارة الفتاة العربية التي جاءت من بلدها لدراسة الطب، فتحول هذه العلاقة اليهودي إلى أن **"ينبذ الحرب، وينشد السلام ويسعى إلى حبٍّ يُطهّرُ القلب ويُنقي النفس، ويرتقي بالرَّوح فوق معتقدات الصهيونية المجرمة."**
أنس التكروري	إلى الجنة يا.. جورج	تسرد واقعا مريرا من خلال صورة الجهاد الذي يتسبب في قتل الاطفال والنساء والشيوخ
مراد سارة	التغريبة السورية	تسرد صورة التشريد التي وقعت للشعب السوري بعد الدمار الذي أصابها، واغتيال حضارتها، فضلا عن شعبها.
رضا لاغا	ريح من داعش	رسم حالة الإرهاب في صورة داعش المتغذي بالإحساس المضمر بالحقد.
مريم الزعابي	بأي ذنب قتلت	تحكي صورة الحب والحرمان في زمن الحرب
عمار باطويل	عقرون	تتناول الرواية شهادة من زمن الحرب بين الشمال والجنوب في اليمن، وكيف عملت شرخا عميقا بانقسام اليمن إلى شعبين، وتغليب الشمال على الجنوب باسم الوطنية اليمنية في المركز السياسي.
علي صادق	سوزان	الرواية تتضمن واقع العراق بعد الغزو. وترصد وقائع مفصلة لكل ما جرى من أحداث مأساوية مرت على العراق بعد الاحتلال.
علاء مشذوب	شيخوخة بغداد	إدانة الحرب والعنف والطائفية، ولكل مقتربات الموت، غايتها وصف أجواء سوداوية قاتمة من خلال الخيبات والاحباطات التي تتعرض لها شخوص الرواية
رجاء بكريّة	عَين خفشة	تتحدث عن خطاب ما بعد الكولنياليّة، مبرزة الصراع بين الأنا والآخر بشكل يغلب عليه طابع العنف المادي والمعنوي، وفضح المستور والدّفين في ثنايا التّاريخ، من خلال نبش الذاكرة الفلسطينيّة.

نصر رأفت	الحور العين	تسرد حادثة اختطاف حافلة تقل مجموعة من السائحين الأجانب أثناء زيارتهم لمعالم مدينة الأقصر وآثارها من جماعة إرهابية تخطط، للمساومة بهم، مقابل الإفراج عن زملائهم في السجون
بسمة البوعبيدي	رائحة الخوف	وصفت بأنها: "رواية القتل الرّمزي بشكل شنيع: قتل الرّجل/الزوج/الأب/السلطة/المجتمع الذكوري/ العادات والتقاليد/العائلة/السلطة السياسيّة/ والهيمنة، والقمع. موضوعها الأساس شهوة القتل في شتى المجالات"
لطيفة الدليمي	خسوف برهان الكتبي	تسرد حالة العراق، "ورصد الظواهر التي خلفتها سياسة السلطة في حروبها الخاسرة، وقمعها الدموي، وما نتج من تلك السياسة من حصار وجوع"، ودمار وهلاك.
لطيفة الدليمي	سيدات زحل	تروي فجيعة المأساة والخراب الذي حل بالعراق
محسن الرملي	حدائق الرئيس	توثيق لأهم أحداث العراق على مدى نصف قرن، خاضتها العراق في حروب خاسرة، بدءا من الحرب الإيرانية العراقية.
وارد بدر السالم	عجائب بغداد	مأساة بغداد بالنظر إلى ما أصابها من عنف وخراب، وطائفية من خلال التركيز على دور الإعلام
علي عبد الأمير صالح	خميلة الأجنة	علاقة عاطفية بين شابة وصانع التوابيت، ترسم قتل المعايير والقيم
شاكر نوري	كلاب جلجامش	ترسم واقعا مريرا من خلال التعايش مع الجثث
سالم حميد	تل الرؤوس	تدور حول الموت الذي يخيم على المدينة الافتراضية [تل الرؤوس] بوصفه صورة لما جرى للعراق
عالية طالب	قيامة بغداد	تصور مشاهد العنف، ووصف طرق الاغتيالات البشعة بعد غزو العراق، وكأن قيامة حلت بالبلد.
علي بدر	حارس التبغ	وصف حالة الأقليات في العراق بعد الغزو، والممارسات العنيفة التي سلطت عليهم
نزار عبد الستار	الأمريكان في بيتي	وصف الجريمة المنظمة في العراق بدعم من قوات الاحتلال.
برهان شاوي	مشرحة بغداد	ترسم أوصافا بشعة لعملية القتل من العصابات الإرهابية.
الزاوي أمين	قبل الحب بقليل	وصف للمآلات السياسية والاجتماعية التي أوصلت الواقع العربي إلى الدمار
جورج يرق	حارس الموتى	وصف الإرهاب من أجل الظفر بغنائم
رزوقة يوسف	ريكامو	رسم الواقع من خلال تحول مسيحي إلى جهادي في سوريا.
كما الدين حازم	مياه متصحرة	ترسم تفشي الإرهاب في بغداد، رمز الأمة العربية بعد الغزو الأمريكي.
رشاد أبو شاور	سأرى بعينيك	رسم صورة الفشل المؤدي إلى خلق كائن متوحش يسمي نفسه أميرا ليقود الواقع إلى خراب.

مهدي عيسى الصقر	بيت على نهر دجلة	تصف ما مر به العراق من أحداث مروعة أتت على كل شيء، سواء عبر تفجير بيوت الله، أو تهجير العوائل، وقتل، وإرهاب.
مهدي عيسى الصقر	صراخ النوارس	تصور مأساة العراق، والحالة التي آل إليها الوضع بعد الحرب المدمرة، وقد أفرزت هذه المآسي الهائلة شرخا صعبا في كل شيء، وتأتي أهمية هذه الرواية في أنها نشرت زمن النظام السابق.
حنان جاسم حلاوي	دروب وغبار	تبحث في مصير الناس بعد فاجعة الحرب التي قضت على الصغير والكبير، وهجرت العائلات، وشردت الأطفال، بحروب تبدو لا جدوى منها
حنان جاسم حلاوي	ليل البلاد	تعد هذه الرواية وثيقة تاريخية للتعبير عن مرحلة مفصلية مر بها العراق في ظل الحروب الخاسرة، وبخاصة مرحلة الغزو وما خلفته من دمار، وقتل، وتهجير
شاكر الأنباري	نجمة البتاوين	تسرد واقع العراق في أجواء الحرب، مع التركيز على ما خيم على الأجواء الطائفية، التي تسببت في انقسام الشعب، إلى طوائف ومليشيات تتقاتل فيما بينها

الإحالات والهوامش :

* ينظر، روبرت إيلستون، الرواية المعاصرة، ترجمة، لطيفة الدليمي، دار المدى، ط1، 2017، ص 61 - 94 .

(1) جوديث بتلر، الذات تصف نفسها، ترجمة، فلاح رحيم، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2014، ص16.

(2) أمانويل كانت، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة عبد الغفار مكاوي، منشورات الجمل، 2002، ص133

(3) ينظر، أحمد فرشوخ، التأويل والمصلحة، مجلة البيان الكويتية، ع 469، 2009، ص 19.

(4) ينظر، مصطفى الغيتري، أنماط الرواية العربية الجديدة، موقع مؤسسة الحوار المتمدن، الرابط، http://www.ahewar.org/

(5) نسبة إلى مؤسس فرقة الروك الأمريكية The Velvet 1964 (Underground)

(6) ينظر، عبد القادر فيدوح، الدراسات المخملية والنقد الثقفافي، مجلة ذي قار، العراق، ع 24، 2017، ص116.

(7) روبرت إيغلستون، الرواية المعاصرة، ترجمة لطفي الدليمي، دار المدى ، 2017، ص 65.

(8)حسام الخطيب، الأدب والتكنولوجيا، وجسر النص المفرغ، وزارة الثقافة والفنون والتراث، الدوحة، 2001، ص 129.

(9)ينظر ، واسيني الأعرج، 2084، حكاية العربية الأخير، دار موفن للنشر ، الجزائر، 2015، 253.

(10) نفسه، ص 156.

(11)روبرت إيلستون، الرواية المعاصرة، ص 197.

(12) إدواردو غاليانو، الثقافة المهيمنة في العالم لا تنفك تؤكد أن الآخر يشكل تهديدا لنا، ضمن كتاب، فيزياء الرواية وموسيقى الفلسفة، ترجمة، لطيفة الدليمي، دار المدى، دمشق، 2016، ص415،416.

(13) فكرة الرواية تتناص مع رواية "فرانكشتاين" لماري شيللي

(14)محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، 2010 ص 52.

(15)فرانكشتاين في بغداد، منشورات الجمل، 2013، ص144.

(16) نعوم تشومسكي، ثقافة الإرهاب، ترجمة، منذر محمود صالح محمد، دار العبيكان، ص 65.

(17)محمود حسن الجاسم، غفرانك يا أمي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2014

(18) ينظر، رزان إبراهيم، سؤال العنف والتطرف في الرواية العربية في مطلع القرن الحادي والعشرين، منظور نقدي ثقافي، ضمن كتاب، الرواية العربية المعاصرة، ثوابت ومتغيرات ، مؤسسة كتارا، الدوحة، 2017، ص 257، وينظر أيضا، فرانكشتاين في بغداد، 157.

(19) جان بودريار، عنف العالم، [بالاشتراك]، ترجمة عزيز توما، ط1، 2005، ص 61.

(20) رزان إبراهيم، سؤال العنف والتطرف في الرواية العربية في مطلع القرن الحادي والعشرين، منظور نقدي ثقافي، ص266.

جمالية الصورة الشعرية في بردة البوصيري

د. بشرى عبد المجيد تاكَفْراست
كلية اللغة العربية
جامعة القاضي عياض: مراكش – المغرب

الملخص :

يعتبر المدح النبوي من النصوص التي تتقاطع فيها عدة مجالات واهتمامات فكرية وأسلوبية، نظرا لما تحظى به من حضور تاريخي، منذ نشأة فن المدح النبوي في الشعر العربي على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، إلى أن أصبح فنا مستقل المعالم في العصر العباسي...وقد ساعد التصوف على ذيوع وكثرة انتشاره باعتباره لونا من ألوان التعبير عن العاطفة الدينية... يرغب هذا البحث في الكشف عن جوانب الصورة الفنية، والوقوف على ما تزخر به من جماليات تؤثر في المتلقي، متخذا من قصيدة " البردة " أنموذجا. فقد وظف فيها مبدعها البوصيري كل الطاقات اللغوية، والفنية والصوتية، والدلالية للتعبير عن عشق صوفي للرسول صلى الله عليه وسلم .

الكلمات المفتاحية : شعر التصوف ، الصورة الشعرية .

ABSTRACT :

The prophetic praise is considered as one of the texts in which several intellectual and stylistic studies intersect, because of its historical presence since the rise of the art of poetry during the era of the Prophet, peace be upon him, until it became an independent art during the Abbasid era. Furthermore, Sufism had helped spreading it because it was an expression of religious passion. The present research aims to reveal the aspects of the artistic picture and how it affects the receiver, taking the poem "Alborda" as a sample. Albossayri, its writer, had recruited all linguistic, artistic, acoustic and significant means to express a 'Sufi love' to the prophet peace be upon him..

KEY WORDS : sofi poetry , l'historicisme, artistic picture.

مقدمة :

اهتم الباحثون في الدرس الأسلوبي بعناصر الصورة الفنية في الخطاب الشعري، خاصة في قصيدة المدح التي تحتل الصدارة في الشعر العربي: جودة ورصانة وإبداعا وروعة وأداء، وتقوم عناصر هذه الصورة على أساسين هما:

1- البناء الأسلوبي لعناصر الصورة.

2- التوظيف الأسلوبي لأدوات الصورة الفنية.

والصورة الشعرية وسيلة في يد الناقد يكتشف بها موقف الشاعر ويوضح تجربته الشعرية، ومدى الأصالة الفنية التي يتمتع بها، وهي كذلك إحدى مقاييسه النقدية الهامة لبيان درجة الصياغة الفنية خلقا وإبداعا.

ومصطلح الصورة الشعرية حديث في الدرس النقدي العربي الحديث والمعاصر، لكن العناية به تعود إلى بدايات التفكير النقدي العربي، حين شبه النقاد الأدب بالتصوير والنسج والوشي، وكان استخدامهم للأنواع البلاغية: التشبيه والاستعارة والكناية والتمثيل وأنواع المجازات بديلا لهذا المصطلح ومرادفا له، فهذا الجاحظ يعرف الشعر قائلا: " إنما الشعر صياغة، وضرب من النسج وجنس من التصوير." [1] وعبد القاهر الجرجاني يقول في الموازنة بين شعرين:" واعلم أن قولنا "الصورة" إنما هي تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا." [2]

وعليه ، فما جاء به مصطفى ناصف وبدوي طبانة وعز الدين اسماعيل وكمال أبو ديب وكل من خاض في الصورة الشعرية من النقاد المحدثين المتشبعين بالثقافة الغربية لا يعدو ما ورد في هذا الباب في النقد العربي القديم ، وما أضافوه أسقطهم في الاختلاف والتناقض وأوصلهم إلى نتائج بعيدة عن الدقة...

الصورة الشعرية في الشعر المملوكي: بردة البوصيري أنموذجا":

أبرز مميزات أدب فترة المماليك كثرة الكتب المؤلفة، وإن كان أكثر مؤرخي الأدب والباحثين ينعتون المرحلة بضعف أدبها، لأنهم يربطون الحياة الأدبية بالحياة السياسية، لكن نظرة متأنية لما وصلنا من آثار عن هذه الحقبة يثبت العكس ويؤكد أن الأدب لا يمشي في خط السياسة أبدا. لقد ازدهرت الحركة الأدبية في العصر المملوكي، وذلك لأن السلاطين والأمراء والأعيان يعتبرون الاعتناء بالعلماء والشعراء مظهرا من مظاهر الشرف والنبل...وعليه، إن شهد العصر انحطاطا سياسيا فقد عرف ازدهارا أدبيا ويكفيك أنه عصر الموسوعات الضخمة في العلوم والفنون والآداب، ويكفيك أنه عصر ابن منظور والقلقشندي والصفدي وابن نباتة وابن الجزار وجلال الدين السيوطي وغيرهم.

ومع ذلك، إذا تلمسنا واقع الشعر في هذه الحقبة نلحظ انعكاس الحياة وأصداء أحداثها السياسية والاجتماعية، وتياراتها الفكرية والعقدية، ويلفت انتباه القارئ لشعر العصر المملوكي:

1- كثرة الشعراء حتى ليصعب عدهم، ثم الإحساس بالضعف الموضوعي وهلهلة البناء والصياغة وقلة الابتكار والاسراف في الاهتمام بالشكل والإيغال في العامية، والسطحية والسهولة والركاكة...

2- اتساع المدائح النبوية [3] واتضاح معالمها بين القرنين السابع والثامن الهجريين، يدل على ذلك كثرة الشعراء الذين اشتهروا بها وأجادوها، بل استقلوا بدواوين خاصة بها." فهي فن من فنون

الشعر التي أذاعها التصوف، فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية ، وباب من الأدب الرفيع، لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص. [4]"

ووسط هذا سطع نجم المادحين وخير العارفين بالله والمحبين لرسوله صلى الله عليه وسلم الشاعر الصوفي الإمام البوصيري [5] الذي اتصف بصدق الإيمان وقوة اليقين، وتدفق الشاعرية ، مما جعل شعره ينقسم إلى قسمين:

أ-شعر اجتماعي: ويشمل المدح والهجاء وشكوى الحال وما إلى ذلك من أمور الحياة والعيش ، وهو بسيط في معانيه وأسلوبه، يعج بالألفاظ المولدة الهجينة، قريب إلى روح العامة لغة وتعبيرا .

ب- شعر في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم : وهو قوي رصين يميل فيه إلى تقليد القدماء في تعبيراتهم وصورهم المشتقة من حياة البداوة في شبه الجزيرة العربية. تكثر فيه أسماء البقاع التي تداول ذكرها شعراء الحجاز وشعراء المدائح النبوية.

وهذا الأخير ينشطر إلى شطرين، شطر نظمه قبل أداء فريضة الحج وقد ضم القصيدة التي عارض بها كعب بن زهير وسماها " ذخر المعاذ في معارضة بانت سعاد"... وشطر ثان نظمه بعد عودته من الحج، وقد ضم همزيته المشهورة في مدح رسول صلى الله عليه وسلم المعنونة "أم القرى في مدح خير الورى"، والتي فصل فيها الشاعر حياة الرسول صلى الله عليه وسلم منذ ولادته، وذكر فيها المعجزات والغزوات، وعدد أبياتها 242 بيتا ... ومطلعها:

كيف ترقَى رُقِيَّك الأنبياءُ

يا سماءً ما طاوَلَتها سماء [6]

على أن أهم قصائده في هذه الحقبة هي قصيدة "البردة" [7] التي أبان فيها عن صدق مشاعره ونبل مقاصده، وقد بلغت من شهرتها أن خمست 92 تخميسا، وشرحت 21 شرحا ، كلها باسم "الكواكب الدرية في مدح خير البرية" أو " البُرْأة" أو " الشدائد " أو " البردة". ترجمت " البردة" عدة ترجمات ، فقد ترجمها إلى **الألمانية** المستشرق رولفس عام 1825 م ، وإلى **الإنجليزية** ردْهاوس عام 1422هـ - 1894م، كما ترجمت إلى **التترية**، وطبعت بِقازانِ الروسية عام 1266هـ 1849 ، وترجمها إلى الفرنسية مع شرحها المستشرق دي ساسَيٍ عام 1238 هـ 1822 م، كما ترجمها المستشرق الفرنسي باسيه. وتعتبر ترجمة "البردة" إلى اللغة **اللاتينية** التي نشرها المستشرق أورِي في ليدن عام 1175 هـ 1761م أولى الترجمات إلى اللُّغاتِ الأوربية، وشرحها **بالتركية** سعد الله الخُلوتي والبلالي، و**بالفارسية** غضنفر بن جعفر الحسني، بالإضافة إلى معرفة الفِئات المسلمة لها في الهند وباكستان وإيران ....وغيرها.

وقد وقع الإجماع على أنها أفضل المدائح في الرسول صلى الله عليه وسلم بعد قصيدة "بانت سعاد" لقوة أسلوبها وحسن صياغتها، وجودة معانيها، وجمال وروعة صورها. اختار لها صاحبها البحر البسيط مع زحافاته وعلله لما يتميز به من خصائص فنية ومقطعية، ومطلعها هو :

أمِنْ تذكُّرِ جيرانٍ بذي سلمٍ

مزجتَ دمعاً جرى من مقلةٍ بدمِ [8]

وعلى الرغم مما رافق قصة نظم " البردة " من روايات فهي تبقى القصيدة الوحيدة التي شغلت الناس قديما وحديثا، وأثرت في جمهور المسلمين ، فحفظت ورويت وتناقلها الأبناء والأحفاد، وقرأت في المناسبات المفرحة والمحزنة ... ونسج على منوالها العديد من الشعراء حتى إنه لا يكاد يخلو ديوان شاعر من مديح نبوي وخاصة منذ ظهور البوصيري على حد قول شوقي ضيف [9] ... وتسير قصيدة

"البردة" على نفس النسق البنائي والنظام التركيبي للنبويات الشعرية عموما، وتنقسم من حيث المضامين إلى ثلاثة عناصر وظيفية ، تقع في مجملها في مائة وستين بيتا، وهي:

- مقدمة القصيدة أو ما يسمى بالنسيب النبوي ، من البيت الأول إلى البيت 33.
- الوسط أو العرض أو التصور الملحمي للرسول صلى الله عليه وسلم (الأبيات من 34 إلى 139).
- خاتمة نبوية أو الاعتراف وطلب الإخلاص (الأبيات من 140 إلى 160).

- إلا أن الباحثين والشارحين قسموا القصيدة إلى عشرة أقسام تسهيلا وتوضيحا لما فيها:

1- القسم الأول في النسيب النبوي(1 – 12)
2- القسم الثاني في التحذير من هوى النفس(13-28).
3- القسم الثالث في مدح الرسول الكريم (29- 58).
4- القسم الرابع في الحديث عن مولد الرسول صلى الله عليه وسلم (59- 72).
5- القسم الخامس في الحديث عن معجزاته صلى الله عليه وسلم (73- 88).
6- القسم السادس في الحديث عن القرآن الكريم (89- 105).
7- القسم السابع في الحديث عن الإسراء والمعراج (106- 118).
8- القسم الثامن في الحديث عن جهاد الرسول صلى الله عليه وسلم وغزواته (119- 140).
9- القسم التاسع في التوسل والتشفع (141- 152).
10- القسم العاشر في المناجاة والتدرع (153- 160).

لعل ما يسترعي انتباه المتلقي في هذه القصيدة هو التناسق والانسجام بين المعاني والأخيلة والصور الفنية، إذ جاءت كلها متسقة ،منظومة، ومستلهمة من آي القرآن الكريم وحكمة السيرة النبوية وثقافة البوصيري الدينية وإلهامه الشعري... وخرجت أبيات القصيدة محكمة، النسج واضحة المرمى، جميلة الأداء، بعيدة الأثر وعذبة الوقع... فغدت "البردة" لوحة فنية تعبيرية راقية بالغة الأثر عبر العصور، تزخر بأساليب فنية سامية رسمت بها صورتها الشعرية منها التي اختارها البوصيري ومنها ما جاء عفوا دون قصد ولا تعمد. ونرغب في هذه الورقة تتبع الأساليب البلاغية للصورة الشعرية في هذه القصيدة، لنكشف عن أهميتها ووظيفتها في تصوير المعنى وتوضيحه ... ومن هذه الأنواع البلاغية نذكر:

أولا: ظاهرة التشبيه:

تعج قصيدة "البردة" بأشكال متنوعة وكثيرة من التشابيه، قريبة إلى الطبع والعفوية بعيدة عن التصنع والتكلف باعتبارها خطابا احتفاليا يرمي إلى جعل التشبيه بسيطا مطابقا لمقتضى الحال، بالإضافة إلى كون هذه التشابيه موسومة بميسم تقليدي معروف، اتخذ منها الشاعر البوصيري وسيلة تخييلية لإنتاج دلالاته وتبيان محاكاته. نستدل على ذلك بقول شاعرنا:

وَأَثْبَتَ الوجْدُ خَطَّيْ عَبْرَةٍ وضَنًى
مِثْلَ البَهَارِ عَلَى خَدَّيْكَ والعَنَم (10)

والمراد تشبيه الخطين اللذين تركهما الدمع على الخدين بالعنم وهو البرقوق الأحمر، لامتزاج الدمع بالدم. وشبه أثر الضنى أي الهزال والضعف الذي أصابه بالبَهَار وهو ورد أصفر، للصفرة في كليهما. وقوله كذلك:

والنفسُ كالطفلِ إن تهملهُ شَبَّ على
حُبِّ الرَّضاعِ وإنْ تفْطِمْهُ يَنفَطِم (11)

البيت حكمة في تهذيب النفس وكسر شهواتها وإبعادها عن الانحراف والمعاصي وردها عن الغوايات، فهي كالطفل إن أهمل وترك تاه عن الطريق. ويفيض القسم الذي خصه البوصيري لمدح الرسول صلى الله عليه وسلم بجمالية التشبيه فهو:

كالشمسِ تظهرُ للعينينِ من بُعُدٍ
صَغِيرَةً وَتَكِلُّ الطَّرْفَ مِنْ أمم (12)

فيلقي أضواء كاشفة على عظمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن عظمته وتواضعه يحاكي الشمس علوا وارتفاعا.

وَكلُّ آيٍ أَتى الرُّسْلُ الكِرامُ بها
فإنما اتّصلتْ من نورِهِ بهمِ
فإنهُ شمسُ فضلٍ همْ كواكبها
يُظْهِرْنَ أنوارَها للناسِ في الظُلَمِ (13)

فالرسول صلى الله عليه وسلم شمس والأنبياء كواكب، متى بعث نسخت شريعته الشرائع التي قبله.

ويسترسل الإمام البوصيري في سلسلة تصويراته الجمالية التي تشد انتباه المتلقي وتهز كيانه وتحرك مشاعره، فيشبه الرسول الكريم بالزهر في التنعيم والبدر في الشرف والبحر في الكرم والعطاء، والدهر في العزم والهمة والصمود قائلا:

كالزَّهرِ في ترَفٍ والبَدْرِ في شَرَفٍ
والبَحْرِ في كَرَمٍ والدهْرِ في هِمَمِ (14)

وتبرز جمالية التضاد في تشبيهاته حين يتحدث عن مولد سيد الهدى صلى الله عليه وسلم وما رافق هذا المولد من أحداث تتوقف لها العقول وتثلج الصدور . فبين بلل الحزن الذي أصاب النار المجوس التي تقوضت فرشح منها عرق الاحتسار والحشرجة بخيال شاعري بديع وإحساس خلاق، ثم أكد ما أصاب الماء من غليان واضطراب تهيجا للحياة أمام الحدث العظيم، وذلك حين قال:

كأنّ بالنارِ ما بالماء من بللٍ
حُزْناً وبالماءِ ما بالنَّارِ من ضَرَمِ (15)

وفي تناص عجيب مع الخطاب الديني قرآنا وسنة استقى الإمام البوصيري تشبيهات متعددة منها:

كأنّهُمْ هَرَباً إبطالُ أَبْرَهَةَ
أوْ عَسْكَرٌ بالحَصَى مِنْ رَاحَتَيْهِ رُمِي (16)

فأورد هنا قصة أصحاب الفيل الذين فروا هاربين بعدما رموا بحجارة من سجيل، وقصة العسكر الفارين من رمي الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر...

ولا يفوتنا أن نشير إلى تغير النغمة الأسلوبية لدى البوصيري من القوة والفخامة إلى الرقة والعذوبة في الشطر الأخير من "البردة"، حيث يشعر بمرارة الندم وحلاوة الثوبة، طالبا من الله عز وجل أن يغفر له ذنوب عمر مضى في معصية باللسان هي شعره الذي مدح به الوزراء وكبار رجال الدولة، ومعصية بالجوارح في خدمة السلاطين قائلا:

إذ قلّداني ما تخشى عواقبهُ
كأنّني بهما هَدْيٌ مِنَ النَّعَمِ (17)

فشبه نفسه بالنعَم الذي وشح عنقه بشيء ليُعلَم أنه الهَدي فلا يُتعرض له حتى ينحر، وكذا الشاعر موشح بماضي عمره المصبوغ بالخطايا. وبأسلوب حواري بديع يهدئ من روع نفسه وخشيتها، ويدعوها لعدم القنوط من رحمة الله قائلا:

يا نفْسُ لا تقْنطِي مِنْ زلّةٍ عَظُمَتْ
إنّ الكَبائرَ في الغُفران كاللَّمَمِ (18)

هكذا نلحظ تنوع اختيارات البوصيري في تشبيهاته بين التمثيلي والضمني والبليغ للتعبير عن فيض حبه وشوقه لخير الأنام ، وتصوير تاريخ وأحداث وأفعال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثانيا: ظاهرة الاستعارة

ينص جوزيف ميشال شريم " أن الجميع اتفق أن أبعاد الصورة الاستعارية تتراوح بين الوحدة الدلالية الكبرى أي القصيدة بكاملها" [19] فهي جنس من التصوير تحل فيه صورة مكان أخرى لإثارة خيال المتلقي... بهذا المفهوم نلحظ أن الاستعارة إن لم ترد بالكثرة التي ورد بها التشبيه في "البردة" غير أنها ليست أقل أهمية في إبراز جمالية الصورة الشعرية، من ذلك:

لولاَ الهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعاً عَلَى طَلَلٍ
ولا أرِقتَ لذكرِ البان والعَلَم [20]

فالبان والعَلم استعارتان أصليتان بينتا طول القامة وحسن الهيأة وطيب الرائحة لكل من المستعار والمستعار منه، وفي قوله:

فكيفَ تُنكِرُ حُبًّا بعدَ ما شَهِدَتْ
بهِ عليكَ عدولُ الدَّمْعِ والسَّقَمِ [21]

نلحظ أن في البيت استعارة تصريحية، إذ صرح بالمشبه فعلا " شهدت" وصفة " عدول"، وحذف المشبه " الشهود" حقيقة على هذا الفيض من الوجد والتماهي.

وفي مشهد استعاري أسطوري جعل البوصيري قوافل الشجر تتحول من منظر طبيعي مألوف إلى انزياح ملحمي من غير فاصل أو واصل لفظا ولا معنى ، فتصبح غابات الشجر صفوفا طويلة من المصلين الخاشعين المتراصين ، سطورا مكتوبة يهتدي بنورها الظالمون ويقرأون "باسم ربهم الذي خلق"، وذلك في قوله:

جاءتْ لدَعْوَتِهِ الأشجارُ ساجِدَةً
تَمْشِي إليهِ عَلَى ساقٍ بِلا قَـدَمِ
كأنَّما سَطَرَتْ سَطْراً لِمَا كَتَبَتْ
فروعها من بديعِ الخطِّ في اللقمِ [22]

ومن ذلك قوله كذلك:

إنْ تتلُها خِيفَةً مِنْ حَرِّ نارِ لَظَى
أطْفَأْتَ نارَ لَظَى مِنْ وِرْدِها الشَّبِمِ [23]

ففي البيت استعارة مكنية شبه فيها الآيات بالماء ، وحذف الماء وأبقى على ما يدل عليه لفظة "أطفأت" .فقراءة المرء لآي القرآن الكريم تمنح المتعة النفسية والصفاء الوجداني والسعادة الروحية، فتطفئ نار جهنم بإبعاده عنها.

هكذا فالاستعارة في قصيدة "البردة" شدت من فنيتها وأثرت معانيها وعمقت دلالتها وأكسبتها حركية مزجت بين الحركة الفكرية والنفسية في تقاطعها مع الحركة اللغوية... فجاءت نسجا رائعا متينا منفردا لفظا وتصويرا.

ثالثا: ظاهرة الكناية

وهي صورة من صور الانزياح الدلالي في النص الشعري، لكونها تعتمد على عدم الافصاح عن المعنى بشكل مباشر ومألوف، ومنه قول البوصيري:

أمِنْ تذكُّرِ جيرانٍ بذي سلمٍ
مزجتَ دمعاً جرى من مقلةٍ بدمِ [24]

لقد كنى في الشطر الثاني عن شدة البكاء وحرقته بامتزاج الدمع بالدم في العينين، بعدما رفع من القيمة الجمالية لكنايته في الشطر الأول حين

طرح سؤالا حدسيا يوهم المتلقي على أنه تذكر للغائبين من الأحبة والأعزاء.

واسْتَفْرِغ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنٍ قد امْتلأتْ
مِنَ المَحارِمِ وَالْزَمْ حِمْيَةَ النَّدَمِ (25)

فقد أكسبت الكناية جمالا للفكرة لم تكن تتمتع به في دلالتها الوضعية ،"عين قد امتلأت" دلالة على كثرة البكاء لعمق الندم.وقوة تصوير البصيري تتجلى في القدرة على الجمع بين الاستعارة والكناية في بيت واحد من ذلك قوله:

ظَلمتُ سُنَّةَ مَنْ أحيا الظلامَ إلى
أن اشتَكَتْ قَدَماهُ الضُّرَّ مِنْ وَرَمِ (26)

ومعناه : تجاوزت حدي بتركي نافلة من أحيا الظلام كناية عن الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان يقوم الليل مصليا ذاكرا وتاليا للقرآن الكريم، ثم استعار فعل اشتكى لتأكيد ورم الأقدام من الضر... وهناك صورة أبلغ لهذا المزج بين الاستعارة والكناية في قوله:

والنَّارُ خامِدَةُ الأنفاس مِنْ أَسَفٍ
عليه والنَّهرُ ساهي العين من سَدَمِ (27)

فجعل للنار نفسا وللنهر عينا، فأثبت لهما ما ليس لهما وذلك لتحريك ذهن المتلقي لتشكيل الصورة التخييلية المنتزعة من عناصر متعددة.

رابعا: ظاهرة التكرار

يعد التكرار أحد الأدوات الجمالية التي تشكل موقف الشاعر وتصوره في قصيدة "البردة". فالبوصيري إذا كرر عكس أهمية ما يكرره مع الاهتمام بما بعده حتى تتجدد العلاقات وتتآلف الدلالات وينمو البناء الشعري. والتكرار عند البوصيري كثير سواء منه تكرار الكلمة أو الحرف ، ومن أمثلة ذلك :

-تكرار لفظة " نفس" في قوله:

والنفسُ كالطفلِ إن تهملهُ شَبَّ على
حُبِّ الرَّضاعِ وإنْ تفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ (28)

وقوله أيضا:

وخالِفِ النفسَ والشيطانَ واعصِهما
وإنْ هُما مَحَّضاكَ النُّصحَ فاتهم (29)

وهذا التكرار يفيد عمق إحساسه بالندم على ما اقترفه في الماضي في اتباعه لنفسه الأمارة بالسوء ودعوة للمتلقي لإشراكه الشعور بالندم والبحث عن التخلص والتطهر.

-تكرار لفظة "نبي" أو بديلتها "رسول" وذلك إما بصيغة الإفراد أو بصيغة الجمع، من ذلك قوله:

-

نبيًّا الآمرُ الناهي فلا أحد
أبَرَّ في قَوْلِ "لا" مِنْهُ وَلا "نعَم" (30)

وقوله:

وكلهمْ من رسول الله ملتمسٌ
غَرْفاً مِنَ البَحْرِ أوْ رَشْفاً مِنَ الدِّيَمِ
فإن فضلَ رسولِ الله ليسَ له
حَدٌّ فيُعْـرِبَ عنه ناطِـــقٌ بفَـمِ (31)

وتفيض قصيدة "البردة" بتكرار الضمائر (متكلم ، مخاطب، غائب)، بأشكالها المتعددة كالإسناد والاستتار والصورة رغم محدودية الأشخاص الذين تحيل عليهم خاصة **ضمير المتكلم**. نلمس هذا الأخير في حديث الشاعر عن خطاياه وتوسلاته لله وللرسول، فيوظف ضمير المتكلم

بصيغة المفرد المخاطب مرة وأخرى بصيغة المفرد المتكلم فاسحا المجال لاختيارات أسلوبية متعددة شأن التكلم عن الغائب حين تأخذ بردته منحى سرديا، أو المفرد المخاطب عند الوصف أو الإشارة ، ومن ذلك قوله:

يا أكرَمَ الرسْل مالي مَنْ أَلُوذُ به
سِوَاكَ عندَ حلولِ الحادِثِ العَمِم (32)

فالالتفات هنا من مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المتكلم "مالي من ألوذ به" إذ يقصد البوصيري نفسه، وهذا النوع من الالتفات أشار إليه ابن رشيق القيرواني لأنه جاء في وسط الكلام قائلا: "ومنزلة الالتفات في وسط البيت كمنزلة الاستطراد في آخر البيت، وإن كان ضده في التحصيل، لأن الالتفات تأتي به عفوا وانتهازا... والاستطراد تقصده في نفسك..." (33) ويليه من حيث الترتيب **ضمير المخاطب** على اعتبار جوهر موضوع القصيدة الذي هو المدح، من ذلك قوله:

والطفْ بعبدكَ في الدارينِ إن له
صبراً متى تدعهُ الأهوالُ ينهزمِ (34)

فقد انزاح البوصيري من المخاطب " ألطف بعبدك" إلى الغائب "إن له" و"تدعه" و" ينهزم" فحرك بذلك المتلقي وأثار انفعالاته. فتغييره لأسلوبه تكلما وخطابا وغيبة يدل:

أ- على تنشيط السامع، وقد تأثر في ذلك البوصيري ببلاغة القرآن الكريم الذي يكثر فيه مثل هذه التنويعات من الالتفاتات والعدولات.

ب- على انفتاح الأنا الشعرية للبوصيري على ذاتها وعلى الآخر كما يضفي حركية تبعد الخطاب الشعري عن الرتابة وتجعل المتلقي يولد منه دلالات متعددة.

نلحظ أن هذه الضمائر المتكررة تتناغم مع الكلمات لتشكل نسجا متجانسا غير متنافر يؤثر في المتلقي ويبعثه على الاستمرار قراءة وتمتعا.

وتعرف قصيدة "البردة" تكرارا للأصوات خاصة الانفجارية منها التي سيطرت على جل عناصر "البردة" من ذلك قوله:

أقسمتُ بالقمرِ المنشقِّ إنَّ له
مِنْ قَلْبِهِ نِسْبَةً مَبْرُورَةَ القَسَم (35)

فقد تردد حرف "القاف" في البيت خمس مرات (أقسمت – القمر- المنشق- قلبه- القسم) وهو صوت انفجاري، ومما زاد البيت جمالية وجود صوامت قوية انفجارية في البيت (الباء – التاء – الهمزة) ساعدت " القاف" على تأدية معناها المتمثل في الدلالة على القوة والتأكيد وخاصة أنه ارتبط بالقسم، ثم إن تكرار حرف "القاف " في البيت ولد جرسا موسيقيا قويا كان وراء القيمة التعبيرية التي تتحكم في دلالة الصوت كما تتحكم في تأدية معناه.

خامسا: ظاهرة التضاد

يخلق التضاد في القصيدة حركة تثري الصورة الشعرية وتجعلها أكثر تأثيرا وأعمق تأثرا. ومن أمثلة التضاد في متن قصيدة "البردة:" " اللذات - الألم، جوع - شبع، خصما- حكما، قرب – البعد، الآمر- الناهي، البيض- مسود، الكبائر – اللمم، لا- نعم. ونقدم هنا بعض النماذج منها:

نعمْ سرى طيفُ من أهوى فأرقني
والحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذاتِ بالأَلَمِ
وَاخشَ الدَّسائِسَ مِن جُوعٍ وَمِنْ شِبَعٍ
فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَم

وَلا تُطِعْ منهما خَصْمــاً وَلا حَكَمَا
فأنتَ تعْرِفُ كيْدَ الخَصْمِ والحَكَم
أعيا الورى فهمُ معناهُ فليس يُـرى
في القُرْبِ والبعدِ فيهِ غير منفحِم
المصدري البيضَ حُمراً بعدَ ما وردت
من العِدا كلّ مُسْوَدٍ من اللّمم (36)

وهذه الأمثلة تصوير لحقيقة كان يصبو إليها، وهي رؤية واضحة للتناقضات والتضادات الحياتية بين ما كان يعيشه وهو نادم عليه وبين رغبته في الغفران والشفاعة.

سادسا: أسلوبية الصفة

تلعب الصفة دورا هاما في تجسيد الصورة الشعرية في قصيدة "البردة"، فهي تقوم بدورها كطرف حاضر وكجزء رئيس في تلوين وتزين وتحديد أبعاد التصوير الفني في هذا النص، سواء أكانت مطلقة أو مقيدة. ولعل هذا اللون من الصور يبدو جليا من خلال قوافي القصيدة التي كانت معظمها صفات من ذلك: مضطرم، منتدب، محتسب، ملتطم، منكتم، مستتر ، محتشم، منقسم، منفحم، متسم، مبتسم، ملتئم، مختتم، منهزم، مستلم، محتلم، متهم، منتظم، مغتنم، مستنم، مكتتم، مزدحم، منسجم...

فالصفة تخلق الصورة وتتممها وتفعمها بالحياة، فتصبح نقلا حيا مؤثرا وممتعا، فلو وقف البوصيري عند الموصوفات فقط لغدت الصورة ناقصة ولما وجدتَ بها من الجمال ما حققته وهي متبوعة بالصفة.

سابعا: أثر النص الغائب في تشكيل الصورة الشعرية

وجهت العاطفة الدينية الصورة الفنية في بردة البوصيري ، فعمد إلى الافادة من:

أ- القرآن الكريم اقتباسا وتضمينا، فحضور النص القرآني الغائب أثر في متلقي "البردة" وحمله على استشعار ما ترشح به من إشراقة وعذوبة وسحر وبيان، ومن ذلك قوله:

فإنّ أمَّارَتي بالسوءِ ما اتعظتْ
من جهلها بنذيرِ الشيبِ والهرمِ (37)

فقد استحضر قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ. ﴾ سورة يوسف 53.

وقوله أيضا:

أمرتكَ الخيرَ لكنْ ما ائتمرتُ به
وما استقمتُ فما قولي لك استقمِ (38)

مقتبس من قوله تعالى: ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ. ﴾ سورة الشورى 15.

وقوله كذلك:

وباتَ إيوانُ كسرى وهو منصدعٌ
كشملِ أصحابِ كسرى غيرَ ملتئمِ (39)

فقد تناص فيه مع قوله تعالى: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. ﴾ سورة الحجر، الآية 94.

وقوله أيضا:

لها مَعانٍ كَمَوْجِ البَحْرِ في مَدَدٍ
وفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِي الحُسْنِ والقِيَمِ (40)

فاستحضر قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا. ﴾ سورة الكهف، الآية 109.

ونختم بقوله:

سريتَ من حرمٍ ليلاً إلى حرمٍ
كما سرى البدرُ في داجٍ منَ الظُّلم (41)

الذي اقتبسه من القرآن الكريم مستحضرا الآية الأولى من سورة الإسراء﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى. ﴾سورة الإسراء، الآية 1.

ب- من الأحداث الماضية، فيستدعي من الماضي أحداثا للحاضر، وكثيرا ما نلمس ذلك في حديثه عن:

1-مولد الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله:

أبان مولدهُ عن طيبِ عُنصره
يا طِيبَ مُبْتدَإٍ منه ومُختتم
يومٌ تفرَّسَ فيهِ الفرسُ أنهـم
قد أنذروا بحلولِ البؤسِ والنقمِ (42)

2-غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله:

هُم الجبالُ فَسَلْ عنهمْ مُصادِمَهُمْ
ماذا رأى مِنهُمُ في كلِّ مُصطَـدَم
وسل حُنيناً وسل بدراً وسلْ أُحُدا
فُصُولَ حَتفٍ لهُمْ أدْهَى مِنَ الوَخَم (43)

وقد أضفى هذا التجاور مرة والعطف مرة ثانية للخطاب الديني على "البردة " روحا فنية ملحمية مطبوعة بطابع الصدق والموضوعية والإنسانية، ونفسا جماليا يشد انتباه القارئ ويشبعه استمتاعا ولذة.

خاتمة:

نستطيع القول في نهاية هذه الورقة البحثية :

أولا: إن هذه الأشكال المتنوعة من التصوير التي حاولنا إبرازها بالشواهد، لم تكن إلا غيضا من فيض، تُظهر مهارة البوصيري الفنية في استغلاله للانحرافات الأسلوبية وتطويعها لتشكيل صورته الشعرية ، خالقا انسجاما بين ذاته وأدواته...

فالبردة تزخر بظواهر أسلوبية تميز صورها التي تكاد لا تنتهي، بل هي برمتها لوحة فنية ضخمة كل بيت منها يكشف عن جمال خاص، ويرشح بصياغة محكمة اصطبغت بألوان من الصنعة، وضروب من الزخرف، واللفظ القوي والتركيب الجزل، والصورة الراقية، والإيقاع الرائع، فخرجت كلا منسجما، مُزج فيه المرئي المحسوس بالمتخيل الذهني في توافق عجيب وانسجام بديع، تَنَحّى فيه التعقيد اللغوي والمعاضلة الأسلوبية وحل محلهما توهج الشعر وانسياب العاطفة، واستغلال أقصى الطاقات اللغوية والفنية، والصوتية والتركيبية والدلالية، للتعبير عن حالات الوجد، والانبهار والعشق الصوفي. وهذا شيء لم يكن اعتياديا في شعر عصر المماليك...

ثانيا: "البردة" قصيدة متميزة الأسلوب والصورة، فجاءت صورها الشعرية متماسكة البناء مترابطة المعنى، تشي بإتقان لغوي وإبداع بلاغي وجمال أدبي، وتصوير فني وتشكيل وصفي، وعمق في المعنى وتنوع في الغرض، مما جعلها من عيون الشعر العربي الأكثر انتشارا وتناقلا رواية وحفظا وتلقينا وتدريسا، فمحت بذلك الصفة التي وسم بها عصرها (عصر الانحطاط)، فكانت صورة مثلى لإبداع الأدباء والشعراء.

ثالثا: تبقى قصيدة "البردة" آية من آيات الفن. عريقة المقام. راسخة القدم. ذائعة الصيت. خالدة ما بقي الزمان بين العلماء والأدباء وأهل التصوف وعامة الناس وخاصتهم. تلامس القلب وتحرك الشعور والإحساس. كما أنها كانت حقلا زاخرا ومرتعا خصبا ساعد على ترعرع أساليب الصورة الشعرية وبنياتها، إذ توزعت جل مكوناتها على طول القصيدة فكل بيت يحمل أسمى الصور وأعمقها دلالة وأصدقها تعبيرا، تغري بلذة قراءتها الروحانية وجاذبيتها الوجدانية.

رابعا: جل القضايا الأسلوبية تجد لنفسها مكانا في " البردة "وفي مقدمتها الصورة الشعرية التي لا تقل أهمية عن جمالية التلقي، وجمالية الإيقاع، ووسائل التماسك والاتساق النصي في هذه القصيدة، وذاك راجع إلى أسلوب البوصيري الذي يستحضر قارئه الغائب زمانا ومكانا الحاضر ذهنا وقلبا.

الإحالات و الهوامش

1 الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون ، الجزء 3، ط.1 / مكتبة الخانجي – القاهرة/ 1965، ص. 131- 132.

2 دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني ، ط.3/ 1992، ص. 508.

3 نشأ المديح النبوي في صدر الإسلام مع كوكبة من شعراء الدعوة الإسلامية ومن أبرزهم : كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت... وتعاقب على نهجم العديد من الشعراء حتى غدا في العصر العباسي غرضا فنيا قائم الذات.

4 المدائح النبوية في الأدب العربي، زكي مبارك، منشورات المكتبة العصرية صيدا / لبنان، ص. 17.

5 ذكر محقق ديوانه محمد سيد كيلاني أن اسمه هو" محمد بن حماد بن سرور بن حبان بن عبد الله بن ملاك الصنهاجي... أبو عبد الله عبد الله الدلاصي المولد، المغربي الأصل، البوصيري المنشأ." الصفحة 28. عاش في فترة المماليك أيام السلطان الظاهر بيبرس... حفظ القرآن الكريم .درس الادب والعلوم الدينية وشيئا من اللغة والنحو والصرف والعروض. أخذ التصوف عن أبي العباس المرسي، خليفة أبي الحسن علي بن عبد الله مؤسس الطريقة الشاذلية. درس آداب الصوفية وأسرارها...

6 ديوان البوصيري ، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار الرشاد الحديثة / الدار البيضاء، ص. 48.

7 يقول البوصيري في قصة نظمه لبردته :" كنت قد نظمت قصائد في مدح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، منها ما اقترحه عليّ الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير، ثم اتفق بعد ذلك أن داهمني الفالج (الشلل النصفي) فأبطل نصفي، ففكرت في عمل قصيدتي هذه فعملتها واستشفعت بها إلى الله في أن يعافيني، وكررت إنشادها، ودعوت، وتوسلت، ونمت فرأيت النبي فمسح على وجهي بيده المباركة، وألقى عليّ بردة، فانتبهت ووجدتُ في نهضة، فقمت وخرجت من بيتي، ولم أكن أعلمت بذلك أحداً، فلقيني بعض الفقراء فقال لي: أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقلت: أي قصائدي؟ فقال: التي أنشأتها في مرضك، وذكر أولها وقال: والله إني سمعتها البارحة وهي تنشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأعجبته وألقى على من أنشدها بردة. فأعطيته إياها. وذكر الفقير ذلك وشاعت الرؤيا ..." فوات الوفيات ابن شاكر الكتبي، الجزء الثالث ، ط. بولاق ، ص. 212.

8 ديوان البوصيري ، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار الرشاد الحديثة / الدار البيضاء ،ص. 231.

9 عصر الدول والإمارات ، شوقي ضيف، دار المعارف / القاهرة، ط. 2، ص. 176.

10 ديوان البوصيري ، تحقيق محمد سيد كيلاني، ص. 231.

11 المصدر نفسه ، ص. 232.

12 المصدر نفسه ، ص. 234.

13 المصدر نفسه، ص. 234.

14 المصدر نفسه، ص. 234.

15 المصدر نفسه ، ص. 235 .

16 المصدر نفسه ، ص. 235.

17 المصدر نفسه ، ص. 239.

18 المصدر نفسه ، ص. 240.

19 دليل الدراسات الاسلوبية، جوزيف ميشال شريم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع/لبنان،ط. 2/1987،ص. 72.

20 ديوان البوصيري، ص. 231.

21 المصدر نفسه ، ص. 231.

22 المصدر نفسه ، ص. 235.

23 المصدر نفسه ، ص. 237.

24 المصدر نفسه ، ص. 231.

25 المصدر نفسه ، ص. 232.

26 المصدر نفسه، ص. 233.

27 المصدر نفسه ، ص. 235.

28 المصدر نفسه ، ص. 232.

29 المصدر نفسه ، ص. 232.

30 المصدر نفسه ، ص. 233.

31 المصدر نفسه ، ص. 233.

32 المصدر نفسه ، ص. 240.

33 العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار الجيل،ج 3 ، ص. 381.

34 ديوان البوصيري، ص. 240.

35 المصدر نفسه ، ص. 235.

36 المصدر نفسه ، ص. 231 -232- 234- 238.

37 المصدر نفسه ، ص. 232.

38 المصدر نفسه ، ص. 232.

39 المصدر نفسه ، ص. 234.

40 المصدر نفسه، ص. 236.

41 المصدر نفسه ، ص. 237.

42 المصدر نفسه ، ص. 234

43 المصدر نفسه ، ص. 238.

إشكاليات تلقي المقولات النقدية الغربية في الثقافة العربية
مقولة التناص أنموذجا

د. نجاة عرب الشعبة.
قسم اللغة و الادب العربي
جامعة باجي مختار – عنابة.

الملخص :

انتقلت مقولة التناص إلى الوسط العربي في ظل أسباب موجة الانفتاح التي عرفها الفكر العربي وكرسها منذ عصر النهضة. وهي الأسباب ذاتها التي استدعت انفتاح النقد العربي على النظريات الفكرية والفلسفية، وتتجسد في مواصلة سيرورة النقد العربي في تلقي الجديد الأوربي ليعْبر الناقد العربي إلى عمق التجربة النقدية الغربية، وليستقطب ما يراه منها كفيلا بحل مشكلات النص الأدبي. إلا أن تلقي هذه المقولة عرف تعثرات جمّة كانت سببا في طرح جملة من الإشكاليات المعرفية والمعوّقات الفكرية والإيديولوجية، ما جعلها تعرف حالة حراك متنافرة أثّرت سلبا على سيرورة النقد العربي المعاصر. ونحن . عبر هذه الورقة البحثية . نحاول تسليط الضوء على أهم تلك الإشكاليات، جاعلين من مقولة التناص معيارا نقيّم من خلاله واقع النقد العربي المعاصر نظرية وتطبيقا.

الكلمات المفتاحية : نقد عربي ،ثقافة ،تناص، النص الأدبي.

ABSTRACT :

The notion of intertextuality has come into the Arab Culture as part of the trend exposure devoted by the Arab thought since the Renaissance era. It is the same reason that led the Arab criticism to open up to other intellectual and philosophical theories, and realized in the continuing process of Arab criticism to cope with the newly European progress by which Arab critics could go in depth to the Western critical experience; besides, they could appeal what might be a way out to resolve the problematic issues of the literary text. However, the acceptance of this conception has had many setbacks, which launched a set of several epistemological issues, as well as intellectual and ideological impediments, which led to a state of permanent conflict that influenced the process of modern Arab criticism. In this article, we try to shed the light on the main issues, with the concept of intertextuality as a standard, by which we will evaluate the reality of contemporary Arab Criticism in theory, and practice.

KEY WORDS : intertextuality, Arab Culture, criticism.

مقدمة :

لا شك أن الانفتاح والمثاقفة والتلقي تشكل بعضا من أسس التطور الحضاري لأي أمة، وإذا كان العالم الغربي قد بلغ ما بلغه من تطور يفوق الوصف، فذلك مرده إلى الانفتاح الذي كرسه لقرون عديدة على الآخر، ولما مارسه من إعادة تنظيم وبلورة للمادة المعرفية التي استقاها من منابع ثقافية وحضارية متنوعة المشارب.

وإذا كان هذا حال الغرب، فهل بلغ العرب بانفتاحهم على الآخر الغرض المنشود فكريا وثقافيا ونقديا، أم أن عملية التلقي في حد ذاتها واجهت من المعوّقات الفكرية والإيديولوجية ما جعلها تؤثر سلبا على سيرورة الفكر العربي المعاصر!؟ هذا ما تحاول هذه الدراسة الخوض فيه من خلال تسليط الضوء على إحدى المقولات النقدية، لتكون لنا معيارا نقيّم من خلالها واقع الفكر النقدي العربي المعاصر.

1. مقولة التناص وإشكالية تلقيها في الوسط العربي:

لقد انتقلت مقولة التناص (مفهوما ونظرية)، بكل مقوماتها ومبادئها، إلى الوسط العربي في ظل موجة الانفتاح التي عايشها الفكر العربي منذ عصر النهضة، وهي الأسباب ذاتها التي استدعت انفتاح النقد العربي على النظريات الفكرية والفلسفية الأخرى؛ والتي تتجسد في مواصلة سيرورة النقد العربي في تلقي الجديد الأوربي ليعْبر الناقد العربي إلى عمق التجربة النقدية الغربية، فيستقطب منها ما يراه كفيلا بحل مشكلات النص الأدبي.

وكغيرها من النظريات والمفاهيم النقدية الغربية اصطدمت مقولة التناص عند وفودها إلى الثقافة العربية الحديثة، بالعراك الفكري الذي ساد الساحة النقدية العربية منذ عصر النهضة، والذي نتج عنه ما عرف بتياري المحافظة والتجديد، أو الأصالة والمعاصرة. وبقي الفكر العربي الحديث . نتيجة لذلك . تتنازعه رغبتان؛ رغبة الاتصال بالحضارة الغربية والإقبال عليها، ورغبة البحث عن الذات وبعث روح التحرر من قيود الآخر. وفي خضم احتدام الصراع بين هاتين الرغبتين ظهرت العديد من الدراسات النقدية العربية التي اشتغلت على مفهوم التناص لتلتقي في الموضوع، ولكنها اختلفت في الغاية والرؤية.

فهناك من الدارسين من انساق وراء المسعى الغربي لإقامة تصور متكامل؛ نظري وإجرائي يستهدف البحث في خصوصية النص الأدبي في بعديه الداخلي والخارجي، وخصوصا في بحث الآثار النصية الخارجية التي تخترق جسد النص، والتي تساهم في إضاءة الأبعاد الدلالية للنص الحاضر. لكن هذا لم يظهر مباشرة إثر ظهور وانتشار مفهوم التناص لدى الغرب، فكما نعلم أن التناص ظهر في الساحة النقدية العربية في نهاية السبعينيات ظهورا محتشما لعدم تبلور النظرية ووضوحها في الفكر العربي، آنذاك، على أيدي مجموعة من الدارسين المغاربة والمشارقة، فبدؤوا بمعاينة مفهوم التناص، وتفريعه في شكل أنواع وأقسام ومفاهيم اصطلاحية، ثم اتخذوا منه أداة لتحليل النصوص الأدبية العربية القديمة والحديثة تحليلا ونقدا.

ولعل من الأسماء البارزة التي شقّت الطريق أمام غيرها للخوض في التناص، الأديب والناقد المغربي **محمد بنيس** من خلال كتابه "ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب "سنة 1979[(1)]، استعمل فيه مفهوم التناص كأداة للقراءة الخارجية لمتن النص معتمدا على آراء جوليا كريستيفا وتودوروف ومزودا

البحث في التناص والتفاعلات النصية باصطلاحات جديدة كالنص الغائب، وهجرة النص.

وبعد دراسة بنيس صار التناص من المفاهيم المركزية التي التف حولها الخطاب النقدي العربي، لتظهر بذلك دراسات عديدة، كان من أبرزها، دراسة للباحث المصري **صبري حافظ** بعنوان "التناص وإشاريات العمل الأدبي"، عمد فيها إلى الدفاع عن المنحى الانفتاحي الذي تبناه، ومنتقدا في الوقت ذاته معارضيه بقوله: « لا يفطنون إلى أنهم عندما يرفضون الجديد يسفرون عن وقوعهم . بوعي أو بغير وعي . في قبضة الرؤى القديمة والتصورات المستهلكة والنظريات العتيقة، ما أيسر الرفض الذي لا ينهض على الفهم والحوار. وما أسهل التراجع إلى كنّ الماضي الأليف وتجنب مشاق المغامرة في غياهب المستقبل وصعوبات خوض غمار التجديد والتغيير أو عقد حوار جدلي خلّاق مع كشوفه واستقصاءاته»[2].

وفي محاولة منه لنشر الوعي الفكري المتعلق بمفهوم التناص، عمد **صبري حافظ** إلى تناول الأفكار المتعلقة بماهية النص كما طرحها كل من بارت، ويوري لوتمان ومن ثم أورد تحديدا خاصا للتناص يظهر في قوله:« التناص هو الذي يهب النص قيمته ومعناه»[3] .

ولم يتوقف الأمر بهذا الباحث عند استعراض فكرة التناص من الوجهة الغربية وحسب، وإنما قام باستنباط مفاهيم جديدة تتعلق بآليات التناص أو حركية علاقات النصوص بعضها ببعض، أطلق عليها الإحلال والإزاحة، وهو ما أعطاه الفرصة لشرح وتفسير سبل التداخل وتفاعل النصوص فيما بينها، كأن يقع النص في ظل نص أو نصوص أخرى، وقد يتصارع مع بعضها، وقد يتمكن من الإجهاز على بعضها الآخر، مما يجعل جدليات الإحلال والإزاحة تترك بصماتها على النص، بواسطة عملية التلقي والاستيعاب للنص.

وفي أثناء مناقشته للواقع الوظيفي لمفهوم التناص خلص ضمنيا إلى أن للتناص بؤرة مزدوجة: الأولى أن التناص هو من ينبهنا إلى النصوص الغائبة ما يجعلنا نتخلى عن أغلوطة استقلالية النص، والثانية، أن تلك النصوص الغائبة ما هي إلاّ مكوّنات لشفرة خاصة تمكّن المتلقي من فهم النص الحاضر.

وصبري حافظ وهو يقدم مفهوم التناص كما طرحته الشعرية الغربية، لم يُهمل العودة إلى التراث النقدي العربي باعتباره من البذور الجنينية[4] لما يتضمنه من قضايا ومسائل نقدية تتوافق مع جوهر مفهوم التناص. وقد أدرج الباحث في ختام بحثه جملة واسعة من المفاهيم البلاغية التي . حسب رأيه . تثري فهمنا للتناص، وتفتح الباب واسعا أمام أي دراسة عربية إلى إضافات جديدة هامة[5]. ونذكر من بين تلك المفاهيم: الاقتباس، الاكتفاء، الاحتباك، التمثيل، ائتلاف المعنى مع المعنى، التلميح، العنوان، التوليد...إلخ. لكن الملاحظ على ما قدمه صبري حافظ بشأن هذه المفاهيم أنه عرضها كما وردت في الشعرية العربية القديمة دون أي تحليل تقابلي بينها وبين مفهوم التناص كما طرحته الشعرية الغربية الحديثة، لعل ذلك كان سيثري الموضوع أكثر ليعطيه المصداقية العلمية.

وبما أننا بصدد الحديث عن أشكال وإشكاليات اهتمام الشعرية العربية الحديثة بمفهوم التناص، فلا يمكن أن نتجاهل ما قدمه **محمد مفتاح** عام1985 في دراسته الشهيرة"تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص"، والتي جاءت ضمن مشروعه النقدي الممنهج والواضح المعالم، والذي حرص فيه على تقديم دراسات تطبيقية هي بمثابة

اختبار للتصورات النظرية المستجدة بالساحة العربية.

لقد عمد مفتاح في كتابه آنف الذكر إلى العناية بمفهوم التناص مستعينا بعرض مفهوم النص من منظور الغربيين وهو «مدونة حدث كلامي ذي وظائف متعددة»[6]. ولكون التناص ظاهرة لغوية معقدة تستعصي على الضبط حسبما أقر به **مفتاح** نفسه، فقد استوحى تحديد مفهوم التناص مما أثير من نقاشات بخصوص التفاعلات النصية في التنظير النقدي الغربي المعاصر، التي رغم كثرة المعتنين بها إلاّ أن أحدا منهم لم يتمكن من صياغة تعريف جامع مانع للتناص، وهو ما دفعه إلى استخلاص مقومات مفهوم التناص من مختلف التعاريف الغربية، وهي على التوالي: (فسيفساء من النصوص، الامتصاص والتحويل)، مما أهله إلى تحديد مفهوم التناص بأنه: « تعالق (الدخول في العلاقة)نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة»[7].

وبسبب ما يعتور هذا التعريف من غموض، فقد لجأ **محمد مفتاح** إلى تبيينه وتفصيله باستعراض مجموعة من المفاهيم التي تشكل بعض مظاهر التناص، من مثل المعارضة، والمعارضة الساخرة، والسرقة، ما دفعه إلى المزج بين الثقافتين العربية والغربية، خصوصاً لما تعامل مع مفهوم السرقة في الشعرية العربية القديمة، ولكن بشيء من السطحية ودون تعمق. ومع كل ذلك يبقى مفهوم التناص بحسب الطرح الذي قدمه الباحث المغربي **محمد مفتاح** في منتصف الثمانينيات يلفه الغموض، ربما لعدم اكتمال الرؤية لدى الغربيين أنفسهم، ومنه انعكس على الكتابات العربية المرهصة للتناص.

وتأتي دراسة الباحث السعودي **عبد الله الغذامي** "الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية" لتزيح بعض الغموض عن مفهوم التناص من ناحية، ولتكون ردا على معارضي الحداثة من ناحية أخرى.

لقد جاءت عناية الغذامي بالموضوع في الفصل السادس من دراسته سالفة الذكر، اهتم فيه . بشكل خاص . بعرض فكرة التداخل بين النصوص، مستأنسا بالسؤال المعرفي لتهيئة ذهن القارئ لاستقبالها وتقبلها بسهولة ودون تعقيد.[8] وكان ذلك السؤال، مسوغاً للغذامي ليعرج بالحديث عن التراث العربي؛ أدبا ونقدا وليبين أسبقيته إلى طرح فكرة التداخل، عن طريق جملة من الاصطلاحات التي وردت في كتب القدامى، ومن بينهم عبد القاهر الجرجاني الذي طرح مفهوم (الاحتذاء)، والذي دفع إلى الأخذ[9] بمبدأ الأثر الذي هو نتيجة لتحرر الإشارة (الكلمة). وبمناقشة لطيفة وهادئة حول الموضوع، أوحى الغذامي إلى أن هذا الموضوع يطرح إشكالية هامة (تداخل النصوص)، ولأهميتها، تفتقت عنها أفكار نقدية رائدة على أيدي مروجي مابعد البنيوية.

وفي مبحث (مداخلات الإبداع)، استعرض الغذامي مجموعة من الأشعار العربية القديمة التي تتضمن قضايا عديدة كالسرقة والأخذ وإفادة اللاحق من السابق، في إشارة منه إلى أن هذه الظاهرة عالمية أحسها بعض الأدباء العالميين من أمثال بريخث الذي قال عن شكسبير أنه (أيضا كان سارقا)[10]. ومن ثم انتقل إلى مبحث التناص لكنه سماه **النصوص المتداخلة**، استعرض فيه تعريفات السيميائيين من أمثال، روبرت شولز، وبارت، وجينيت، وكريستيفا وريفاتير، وكلها تعاريف تلتقي في المبدأ العام الذي

يحكم المفهوم، وهو« أن النصوص تشير إلى نصوص أخرى، مثلما أن الإشارات (signs) تشير إلى إشارات أخر وليس إلى الأشياء المعنية مباشرة»[11].

وحتى تتعمق فكرة التداخل بين النصوص لدى القارئ، لجأ الغذامي إلى تشفيع الجانب النظري بدراسة تطبيقية تجمع قصيدة حمزة شحاتة (غادة بولاق) مع قصيدة الشريف الرضي (يا ظبية البان)، محاولا رسم تصور فني لتلاقي الشاعر مع موروثه الأدبي، استمده من الناقد الأمريكي التشريحي (بلوم)[12] ليستقرئ في ضوئه ملامح التداخل بين القصيدتين. ويكون الغذامي بهذا المبحث (تداخل النصوص) قد تجاوز بالقارئ مراحل الغموض والتعقيد التي اعترته منذ بداية انتشار مفهوم التناص في الوسط الثقافي العربي.

إلاّ أن الملاحظ على هذه الدراسة خلوها من مصطلح عربي يقابل المفهوم الذي أورده الغذامي بالإنجليزي Intertextuality مكتفيا بما أسماه بالنصوص المتداخلة، والذي نراه يتسم بالشمولية وعدم الدقة، في حين أن الدراسات العربية التي سبقته قد وظفت مصطلح التناص كمقابل اصطلاحي للغربي Intertextualité. وربما يرجع ذلك لعدم قناعة الغذامي بهذا المصطلح، أو أنه لجأ إلى الترجمة الحرفية لكلمة Intertextuality على أساس أنها تتكون من كلمتين Inter بمعنى تداخل، textuality وتعني النصوصية، وهذه من المعضلات الكبيرة التي يعاني منها النقد العربي المعاصر، سنحاول إضاءتها في حينه.

وفي ظل سيرورة الانفتاح المعرفي العربي على الآخر، والمتابعة الحثيثة لكل ما تنتجه مفكرة العقل الغربي، فإن أعمالا عربية كثيرة اشتغلت على مفهوم التناص تنظيرا وتطبيقا، أثريت على إثرها المكتبة العربية الحديثة، وهو ما جعل بعض النقاد يرون في ذلك إنجازا في حد ذاته يحسب للحركة النقدية العربية المعاصرة[13]. إلاّ أن هذه النظرة لم تكن تروق فريقا آخر من النقاد والدارسين العرب، الذين ناهضوا فكرة الانفتاح على الآخر لما تشكله . برأيهم . من خطر على الثقافة العربية التي باندفاعها نحو الثقافة الغربية قد تفقد أصالتها وخصوصيتها، بما لا يجعل لها أثرًا على الساحة الفكرية الإقليمية والعالمية.

ولعل ممن مثل هذا الاتجاه المناهض للحداثة شكلا ومضمونا الناقد **حامد أبو أحمد** في كتابه "نقد الحداثة"، حيث نقم فيه على الدراسات العربية التي تسعى إلى استثمار مفاهيم نقدية دون استيعاب واضح لأصولها النظرية[14]. وأيضا ما طرحه الباحث **مصطفى خضر** في كتابه "الحداثة كسؤال هوية" بخصوص هشاشة وزيف تلك الأنموذجات الثقافية الغربية التي تحولت . برأيه . إلى « أقنعة يفسر شيوعها إلى حد ما فساد الخطاب العربي، وربما عطالته!»[15].وأما الباحث والناقد المصري **عبد العزيز حمودة** فقد جعل من موضوع الحداثة قضيته الأولى، فوضع بشأنها ثلاثيته الشهيرة[16]، مدافعا عن التراث العربي، لما لاحظه من خضوع الوسط العربي للمنجز الغربي دون إدراك منه للخلفيات الفلسفية والإيديولوجية التي ترفد ذلك الفكر. لأجل ذلك تبنى موقف الرفض والعداء للنظرية الغربية استنادا إلى موقفها الإيديولوجي المنافي للتقاليد والمعتقدات العربية والإسلامية.

وقد أفضى هذا الموقف النقدي المناهض للحداثة، إلى ظهور منحى نقدي مغاير يسعى متبنوه إلى تأصيل كل ما يطرأ على الساحة النقدية العربية من مقولات ومفاهيم ونظريات غربية حديثة، والاحتفاء بها على أنها عربية تراثية أصيلة. ويبقى مفهوم التناص من أكثر المفاهيم التي أشبعها النقاد

المحدثون بحثا من هذه الوجهة، وربما يقف الباحث عبد العزيز حمودة في طليعة هؤلاء، لما كان يتناسب مع مشروعه الذي يسعى فيه إلى ابتكار نظرية عربية أصيلة اعتمادا على النموذج النقدي العربي القديم.

ونظرية التناص مدينة . برأي **حمودة** وغيره، في كثير من ملامحها. للتراث النقدي العربي، استنادا إلى حتمية تواجد التناص من حيث هو ظاهرة أدبية نصية في الشعريات الإنسانية القديمة والحديثة. ولأن الشعرية العربية القديمة واحدة من أهم وأرقى الشعريات الإنسانية، فقد اعتبر **حمودة** قضية السرقات الأدبية إحدى أركان النظرية الأدبية العربية، لِما حظيت به من اهتمام غاية في العمق والكثافة. ولقد حاول الباحث ربط هذه القضية العربية القديمة بمفهوم التناص مقترحا الاحتفاظ بنقطة البدء فقط في مفهوم التناص دون نتائجه. وتتمثل في حتمية التأثر والنقل والتداخل والتسرب في المعاني والألفاظ على حد السواء[17]، كما أشار الباحث إلى أن ما قدمته البلاغة العربية حول قضية السرقات يعد مدرسة في النقد التطبيقي تعتمد على تحليل النص عن طريق القراءة اللصيقة به [18].

ونجد الباحث **يوسف وغليسي** يؤكد من جهته على ضرورة مراجعة التراث لبحث الطروحات الأدبية والنقدية التي تتقاطع مع نظرية التناص الغربية، إذ يقول « هذه بعض المفاصل الأساسية في هيكل المفهوم الغربي لنظرية التناص التي وجد في التراث العربي ما يشبهها ويغري بالمقارنة بينهما»[19].

وأيضا من الدراسات النقدية الهامة التي رجعت إلى التراث العربي، بغاية إعادة قراءته وفق رؤى تستمد أدواتها المنهجية والتنظيرية من أطروحات غربية، نذكر "قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني" للباحث المصري **محمد عبد المطلب** التي ذكر فيها ملامح عامة لمفهوم التناص وردت في الشعرية العربية القديمة، كالاقتباس والتضمين والسرقات، وأخرى خاصة بالجرجاني كالتشبيه والاستعارة.

ولقد توسل الباحث لتحقيق غايته (إحياء التراث) بأدوات منهجية عديدة؛ كالموازنة بين الحداثة والموروث القديم، وتحليل المفردات العربية القديمة للوصول إلى نواتها الأولى، والكشف عن جوهرها الذي يمكن أن يكون حاملا لتيارات حداثية، وأيضا توسل منهج القراءة الانتقائية منطلقا من التحليل السابق إلى تركيب لاحق[20].

وإن من يمعن النظر في عمل الباحث **محمد عبد المطلب**، يزداد حسرة على تراثنا الأدبي والنقدي، لا لشيء سوى لأن ما قام به الباحث من إضاءة الجوانب ذات القيمة النقدية والفكرية للتراث العربي، يبين لنا مدى أهميته بالنسبة للمعرفة النقدية الحديثة. إلا أن تعرضه للنسيان والإهمال لقرون طويلة من زمن تألقه، جعله يفقد بريقه، خصوصا لما صارت طروحات غيرنا ونظرياته، أداتنا لاكتشاف جواهره ولآلئه.

ويظهر صوت الباحث **عز الدين المناصرة** عبر كتاباته يدعو إلى ضرورة الاحتكاك والتفاعل مع الثقافة الغربية، لأن زمن العولمة يدعو إلى إذابة الحدود ما بين بلدان العالم، خصوصا « بعد صعود العولمة الثقافية وتركيزها على مبدأ الاختلاط ومبدأ التفتيت والتفريع ومبدأ المحو والاستبدال»[21]؛ فضرورة اللحاق بالحداثة، لا يشكل عيبا حسب المناصرة، لأنه واقع فُرض على الفكر العربي، لكن العيب أو الخطأ على حد قوله: « يكمن في (استمرار التبعية) شبه الكاملة للمركزية الفرنسية . الأمريكية النقدية في النصف الثاني من القرن العشرين»[22].

ويرى **المناصرة** عبر دراسته (علم التناص المقارن) بضرورة نشوء [علم التناص المقارن] ليكون بديلا لما يعرف بـ [الأدب المقارن]، لتبقى معالم المنهج المقارن سائدة تسانده آليات التناص في تحليل فكرة عالمية النصوص، وتحديد مفاهيمها وتفريعاتها بلا حدود[23].

ومواكبة منه للتطورات التكنولوجية، فقد عمل **المناصرة** على طرح بديل نقدي شامل أطلق عليه [النقد التفاعلي العنكبوتي] لما يمتلك من خاصيات: التشعيب العنكبوتي، وليونة التفاعل، وذلك بالاستناد إلى ما روّج الغرب له من العلاقة القائمة بين الفكر والتكنولوجيا. والواقع أن ما قام به المناصرة، هو بالأساس منقول عن طروحات غربية حول ما عرف لديهم بـ: Hypertexte[24]. والمثير في طرح المناصرة أنه وجد لهذا النوع النصي حضورا في المتون التراثية؛ والتي تتمثل . حسبه . في الحواشي والهوامش التي يأتي بها المؤلفون لتتحاور مع المتن، ومع الفضاء الكتابي. وأيضا وجد **المناصرة** النص المتشعب قائما في النص الشعري الأندلسي.

وإننا نرى أن ما قدمه **المناصرة** في هذا السياق، لا يختلف عن السبيل المنتهج لدى الدارسين المحدثين، في مقابلة كل جديد غربي بما يمكن أن يلتقي مع التراث العربي. وهذا يشجعنا أكثر على طرح هذا السؤال: أين يكمن وجه الشبه بين فكرة النص الإلكتروني المتشعب وبين كتابات العرب القدامى حسب **المناصرة** ؟

إذا أمعنا النظر في ماهية النص المتشعِّب Hypertexte نجده نصا إلكترونيا يُعرض على شاشة الحاسوب مع وصلات إلى نص آخر، ويظهر متفردا لمّا يقوم القارئ بالنقر على إحدى جزئيات النص الأصلي، كأن تكون كلمة أو جملة أو تاريخ معين لتعرض بشكل تفصيلي أكثر. فما نستنتجه من هذا التعريف أن النص المتشعب هو أساسا نص مختفي ولا يظهر إلا عن طريق استدعائه بشكل آلي محض، وعليه فلا يمكن موازاته بما ذهب المناصرة إليه، لأنه ببساطة (النص المتشعب) نتاج التكنولوجيا الحديثة. إلا أن هذا لا ينقص من قيمة هذه الأبحاث التي تتوخى الجديد في سبيل تحقيق التفاعل الفكري العربي مع الفكر الغربي.

ويبقى هناك بعض الدارسين، الذين أثمرت انجازاتهم وكتاباتهم ومداخلاتهم تجاوزا للمرحلة الثقافية الجديدة، والتي تعرف بمرحلة « التساؤلات الكبرى حول الهوية والعولمة والتعايش والحوار بين الحضارات »[25]، إلى مرحلة أخرى أجدى نفعا على الثقافة العربية، ويمثلها على سبيل المثال، الناقد عبد الله الغذامي الذي جمع في كتاباته ومواقفه النقدية والفكرية بين فكرتين أساسيتين :

الأولى : التفتح على العالم المعاصر والعمل على استيعاب معطياته الكلية، وثقافاته المختلفة.

الثانية: الانفتاح على التراث العربي والإسلامي، ومحاولة سبر أغواره لبنائه بناء فلسفيا وحضاريا جديدا وأصيلا[26] .

وهذا المنحى لا شك أنه سيأخذ بيد الثقافة العربية إلى بر الأمان، فلا هي تعتزل العالم، فتبتعد ثانية عن الركب الحضاري مثلما أُرغمت عليه في القرون العجاف، بسبب تخلفها فكريا وحضاريا، ولا هي تجتث من أصولها وتهمل تراثها وأصالتها فتفقد خصوصيتها وجوهرها.

وبعد هذا الذي تقدم حول صدى ما بعد الحداثة الغربية في الشعرية العربية الحديثة من خلال نموذج مفهوم التناص، تبين لنا أن مسألة تلقي المعرفة النقدية الغربية ومحاولة استثمارها في الأوساط العربية، صار هاجسا قويا يسيطر على اهتمامات الدارسين المعاصرين، وذلك حرصا منهم

على ملاحقة الركب الحضاري العالمي، رغم ما أنتجه ذلك من تصادم فكري بين مناصر ومعارض.

ويبدو أن هذا التفاعل الفكري العربي الغربي قد خلّف تبِعات أخرى أثّرت سلبا على صيرورة النقد العربي، نذكر من أهمها على الإطلاق، إشكالية المصطلح التي نحاول الوقوف عندها وذلك بالتركيز على طبيعة نقل المصطلح الغربي Intertextualité في الوسط الثقافي العربي، وكيفية الاشتغال عليه في الممارسة النقدية العربية.

2 – إشكالية المصطلح:

منذ بداية اشتغال الشعرية العربية المعاصرة على مفهوم التناص، والمقابلات الاصطلاحية له تزداد يوما بعد يوم؛ فلقد اختلف الدارسون والمترجمون في نقل وترجمة مصطلح "التناص"، وفي تحديد مفهومه وضبط موضوعه، فمما لاشك فيه أن الاستعمال غير الدقيق للمصطلح أيا كان نوعه يربك وظيفته التداولية في الحقل المعرفي، فيفقده . حتما . سمتي الدقة والوضوح.

فنجد على سبيل المثال في الخطاب النقدي العربي المعاصر عدة مقابلات للمصطلح الأجنبي Intertextualité وهي: التناص، التناصية، النص الغائب، هجرة النص، النصوص المتداخلة، التعلق النصي، التعالق النصي، ..إلخ

إن هذه البدائل المصطلحية المقترحة من الدارسين والمترجمين، توحي بحالة الإرباك والفوضى واللااستقرار التي يشهدها الخطاب النقدي العربي في الوقت الراهن، فإذا كان مفهوم الاصطلاح . عند السلف . يعني « اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما ينقل عن موضعه الأول...وقيل الاصطلاح إخراج الشيء من معنى لغوي إلى آخر، لبيان المراد. وقيل الاصطلاح لفظ معين بين قوم معينين »[27]، فإن ما أقدم عليه الدارسون يوحي بعدم اكتراثهم بفحوى كلمة الاصطلاح، التي من أهم معانيها الاتفاق والمواضعة.

وقد يعذِر الباحث أولائك الدارسين السبّاقين في نقل مصطلح التناص إلى الوسط الثقافي العربي مع نهاية السبعينيات من القرن الماضي، لما اكتنفه من غموض وفوضى اصطلاحية؛ فذلك مرده لا محالة، إلى جِدة الموضوع وصعوبته في الآن ذاته، لكن بعدما استتب الأمر للنقدية العربية، وتبيّنت طريقها نحو الحداثة، فإن ذلك يستوجب وضع برنامج نقدي، ومنهجية علمية دقيقة تحدد السبيل الأنجع لتوحيد الاصطلاحية النقدية. والمتأمل في واقع الخطاب النقدي العربي، يجد أن هناك اضطرابا كبيرا شاب توظيف مصطلح التناص وما يتصل به من مفاهيم تندرج في إطار نظرية التفاعل النصي بشكل عام. ولكي نكون أكثر موضوعية في هذا الحكم، فإنه يتوجب علينا الوقوف على تجارب نقدية بعينها.

ولنستهل الحديث بتجربة **سعيد يقطين** النقدية في تعاملها مع المفهوم الغربي (Intertextualité)، ومع بعض المصطلحات التي أُنتجت في نطاقه.

استعرض **يقطين** في مؤلفه انفتاح النص الروائي، مفهوم التناص (Intertextualité) كما طرحه كل من:كريستيفا، ولوران جيني، وجينيت، ثم قام بتقديم تصوره حول النص والتفاعل النصي[28] مستهلا مقاربته بإعلانه تفضيل مصطلح التفاعل النصي على التناص لأنه أعم وأشمل، وكما يفضله على التعاليات النصية التي هي مقابل لـ (Transtextualité) عند جينيت[29].

وقد جعل **يقطين** تحليل التفاعل النصي ينتهي بتقسيم النص إلى بنيات نصية، فيجد نفسه أمام قسم أطلق عليه"بنية النص" وهو الذي يتصل بعالم النص لغة وشخصيات وأحداثا وقسم أطلق عليه " بنية المتفاعل النصي". والمتفاعلات النصية هي البنيات النصية أيا كان نوعها التي تستوعبها "بنية النص" وتصبح جزءا منها ضمن عملية التفاعل النصي[30].

ولدى تأملنا طرح **سعيد يقطين** حول أشكال التفاعل النصي، والتي ميز فيها بين ثلاثة أنواع هي على التوالي: التفاعل النصي الذاتي، و التفاعل النصي الداخلي، والتفاعل النصي الخارجي[31]، نلاحظ أن خللا يشوب هذا التصنيف الذي اعتمد فيه صاحبه على العامل الزمني لمّا ربط النوع الثاني بتفاعل نص الكاتب مع نصوص كتّاب عصره، وربط النوع الثالث بتفاعل نص الكاتب مع نصوص غيره التي ظهرت في عصور بعيدة. في حين أن نظرية التفاعل النصي هي نظرية نصانية بحتة يغيب عنها البعد الزمني الذي هو أحد أساسيات النقد المقارن والتي يعتمدها الباحثون في تأصيل العمل الأدبي. هذا بالإضافة إلى أن صاحب التصور الأصلي لوسيان ديلنباخ L Dallenbach قام بتقسيم المتفاعلات النصية إلى خارجية وهي التي يتفاعل فيها الكاتب مع نصوص غيره، وداخلية وهي التي تتفاعل فيها نصوص الكاتب مع بعضها بعضا، أو بما يسمى التفاعل النصي العام على حد قول ديلنباخ: « نجد أنفسنا أمام علاقة نص الكاتب أو الشاعر بنصوص غيره من الكتاب أو الشعراء. وفي التفاعل النصي المقيّد نجد أنفسنا أمام علاقة نصوص الكاتب بعضها ببعض»[32] وأعتقد أنه بهذا الطرح الواضح المعالم سوف لن يلتبس الأمر على الباحثين بشأن أشكال التفاعل النصي.

وبشأن تحديد المصطلحات نجد **يقطين** يقول في موضع آخر، وهو يستعرض مستويات التفاعل النصي، «وهنا أسعى إلى معالجة مستوى آخر من مستويات التفاعل النصي، وهو ما أسميه بـ"التعالق النصي" باعتباره مقابلا لـ (Hypertextualité) »[33]. نلاحظ من تعبير **يقطين** الذي وظف فيه صيغة المتكلم (أسميه بالتعالق النصي)، أن ما يجري في الساحة النقدية العربية من نقل وترجمة المصطلحات الغربية، إنما يأتي في سياق اجتهاد الأفراد بما يتفق وأذواقهم وأهواءهم الخاصة. وهو ما يدل على غياب العمل الجماعي الذي يخضع لمعايير علمية دقيقة في إطار مؤسسات علمية، ومجامع لغوية وهيئات ثقافية تحدد للعمل مبتغاه العلمي والمعرفي.

ومما يدل، على أن المقابلات الاصطلاحية العربية لنظيرتها الغربية، تقوم على اجتهاد بعض الأفراد؛ هو ما تعرض له المصطلحان الغربيان (Intertexte)، و(Intertextualité) من فوضى تُرجمية عارمة ما جعل الباحث الجزائري يوسف وغليسي ينتقد بشدة مقترح الباحث محمد عبد المطلب الذي وضع مصطلح تناص مقابلا لـ (Intertexte) والتناص مقابلا لـ (Intertextualité) اللذين وردا في كتابه قضايا الحداثة[34]. وهذا لا معنى له على الإطلاق . على حد قول وغليسي « لأن (أل) التعريف لا دخل لها في تحديد الفارق هنا»[35].

ومن جهته قدم يوسف وغليسي مقترحه الشخصي الذي يراه الأقرب للمفهومين، وهو أن تتم ترجمة المصطلحين بإحدى الطريقتين، إما أن يكون التناص مقابلا لـ (Intertexte)، والتناصية مقابلا لـ Intertextualité ، وإما المتناص مقابلا للأول، والتناصية مقابلا للثاني، من منطلق أن هناك فوارق بين المفهومين، فالأول (Intertexte) يُعنى بالظاهرة في

حد ذاتها، أي« ظاهرة استحضار النصوص الغائبة التي تُرسم في أذهاننا، حين قراءة نص حاضر ماثل أمامنا... أما الثاني فيتجاوز فعل الاستحضار والتذكر إلى تتبع تحولات الغائب في الحاضر وقراءة الحاضر على ضوء الماضي الذي يستذكره، ويحيل عليه، وتحديد أنماط التفاعل النصي ومستوياته»[36]؛ بمعنى أن المصطلح الثاني يُعنى بالمقاربة الإجرائية للظاهرة النصية (التناص). في حين نجد هذا المقترح يحتاج بدوره إلى ضبط، حيث إن الباحث قدم مقابلين لكل مصطلح أجنبي، وهو ما لا يتفق مع قواعد التدقيق الترجمي، وهذا لا محالة، لا يزيد الأمر إلا تعقيدا على حديثي البحث العلمي.

وعليه، فإنني أرى أن المقترح الأول المتعلق بالتناص مقابلا لـ Intertexte، والتناصية مقابلا لـ Intertextualité، هو الأقرب إلى الصواب، لأن رولان بارت حينما استعرض نظرية النص قال إن« كل نص هو تناص Intertexte»[37]، ويعني بذلك أنه لا يخلو نص من ظاهرة التداخل النصي (التناص)، وأما ما يتعلق بالمصطلح الثاني Intertextualité، فيناسبه التناصية التي هي على صيغة المصدر الصناعي والتي توحي بها الصيغة الفرنسية. وحبذا لو يتفق الباحثون على هذين المصطلحين ليسريا في الخطاب النقدي العربي، دونا عن سواهما، لعل ذلك يحد من فرط الغموض والتعقيد الذين يلمسهما القارئ العربي، والذي يبقى الضحية الأولى لظاهرة اللااستقرار الاصطلاحي في الوسط العربي.

وأيضا، نجد عدم الدقة والتركيز في الاشتغال على مفهوم التناص في الخطاب النقدي العربي سارية في جل الدراسات العربية المعاصرة، فنجد على سبيل المثال الباحثة السورية (**نهلة فيصل الأحمد**) لا تفرق بين المصطلحات الموظفة في دراستها الموسومة بـ (التفاعل النصي، التناصية، النظرية والمنهج)، وتتعامل معها على أنها واحد، فمثلا نجدها في مقدمة الدراسة تقول: « إن التناصية شرط وجودنا وهي دون منازع شرط استمرارنا فليس من أمر/ شيء/ نص في العالم لا يستدعي التناصية . لا نستطيع أن ننطلق في الكون هائمين على وجوهنا . لا نملك من أمر دنيانا شيئا، ولا نستطيع أن نعيش في محاكاة دائمة... »[38].

من الواضح أن الباحثة تقصد من وراء توظيف مصطلح"التناصية" الظاهرة في حد ذاتها، أي ظاهرة التفاعل التي تشمل كل جوانب الحياة، وحتمية حضورها في حياة الإنسان، فلابد للإنسان من ماض يستحضره ويفيد منه في الزمن اللاحق، وهكذا هو الحال بالنسبة للنص، وهي بذلك لا تقصد المفهوم النظري والمقارباتي الذي يشتغل على الظاهرة، ويبحث في خصائصها وآلياتها ودلالاتها.

وفي ما يتعلق بتحديد مفهوم "التفاعل النصي" تقول الباحثة: « وهنا نحدد أن التفاعل النصي مفهوم ما بعد بنيوي يمثل انفتاح النص، ويمثل الرد الحاسم على مقولة انغلاق النص أو انغلاق الكتابة»[39]. فعلى الرغم من المساحة الدلالية الواسعة التي يشتمل عليها مفهوم "التفاعل النصي إلا أن الباحثة حددته في خاصية انفتاح النص، ولم تفصّل القول فيه حتى يتبين الأمر لدى القارئ ويدرك مواطن الاختلاف بينه وبين مفهوم (التناص). ولا شك أن الاختلاف يتضح في أن مفهوم التفاعل النصي أعم وأشمل من التناص لأنه يُعنى بكل مظاهر التلاقي والتداخل والتفاعل بين نص ونصوص أخرى، بحيث تتجاوز العلاقة الظاهرة التي قد تكون اقتباسا أو تضمينا، إلى علاقة فاعلة، كأن تكون تجاوزا أو خرقا أو حوارا للنص السابق. في حين

أن التناص هو أحد مظاهر العلاقات النصية، والتي يحددها جينيت Genette في الاقتباس أو التضمين، أي أنها أوضح وأكثر العلاقات التفاعلية مباشرة.

ومما يزيدنا يقينا من أن الباحثة لا تفرق بين توظيف مصطلح وآخر هو مقابلتها المصطلح الأجنبي Intertextualité بالتفاعل النصي، ولقد ورد ذلك في قولها: « لاشك أن مدخلنا إلى التفاعل النصي سيكون عبر هذا الحقل/ فالتفاعل النصي Intertextuality كما هو واضح مصطلح سيميولوجي ولد على يدي كريستيفا من خلال أبحاثها السيميولوجية»[40] في حين أننا نرى أن المصطلح الأجنبي المقابل للتفاعل النصي هو: . . Interaction textuelle، وأما المصطلح العربي المناسب لـ Intertextualité هو التناصية كما مر معنا.

هذا على مستوى الدراسات، أما فيما يتعلق بالمعاجم ذات الاختصاص النقدي والمنهجي، فإن الساحة النقدية والثقافية العربية تشهد حراكا إيجابيا يسعى أصحابها إلى ملاحقة ما تنتجه العقلية الغربية من تيارات فكرية ونظريات ومفاهيم نقدية لا يمكن حصرها. ولكن يبقى عدد هذه المعاجم محتشما بالنظر إلى أهميتها بالنسبة للباحثين، وحتى على مستوى الكيف نلاحظ انزلاق بعضها في السطحية وعدم الدقة.

ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر نجد معجم "قاموس مصطلحات" لـ **سمير سعيد حجازي** ورد في ثناياه مصطلحا (التناص) و(التفاعل النصي) ثم عُرضت مادتهما بشكل سطحي وغير دقيق ما يجعلهما مستعصيين على إدراك الباحث، والباحث المبتدئ بشكل خاص، فالتناص في هذا المعجم قُدم على أنه : « مفهوم يدل على وجود نص أصلي في مجال الأدب أو النقد أو العلم على علاقة بنصوص أخرى، وأن هذه النصوص قد مارست تأثيرا مباشرا أو غير مباشر على النص الأصلي في مرحلة تاريخية محددة»[41].

نلاحظ على هذا التعريف تميزه بالتعميم الذي أُضفي على طبيعة النص (أدبي، نقدي، علمي)، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أهملت أهم خصائص النص وهي: الإنتاجية الدلالية التي من أجلها وُضع المفهوم عند الغرب. أما المصطلح الثاني، فهو التفاعل النصي.Interaction textuelle وقد ورد في هذا المعجم بوصفه « علاقة بين وحدتين أو نظامين في النص بحيث يجد الناقد أن دور أحدهما يتحدد جزئيا تبعا لوظيفة الآخر، وأن الوحدتين تبدوان في حالة معينة من الترابط والتماسك ويؤديان وظيفة واحدة متشابهة»[42].

كان الأولى - في هذا التعريف- أن يستخدم المؤلف مصطلح البنيتين عِوض (الوحدتين) لأن النص بالأساس ينتج ضمن بنية نصية سابقة يتعالق بها، ويتفاعل معها تضمينا أو تحويلا أو خرقا، وبمختلف الأشكال التي تتم بها هذه التفاعلات[43].

ونجد الباحث المغربي **سعيد علوش**، يضع معجما متخصصا بعنوان،"معجم المصطلحات الأدبية" أورد فيه مصطلح التناص، وقدمه وفق منظور كل من كريستيفا، وسوليرز، وفوكو، وبارت[44]، والملاحظ أن سعيد علوش اكتفى بعرض تصورات هؤلاء المنظرين دون أن يجتهد في تقديم تعريف جامع مانع لمفهوم التناص يقربه إلى المتلقي العربي، خصوصا وأن المعجم قد ظهر في زمن لا تزال فيه مقولة التناص من مستجدات الثقافة العربية.

وهناك عمل آخر ملفت، من إنجاز الثنائي **ميجان الرويلي، وسعد البازعي**، بعنوان "دليل الناقد الأدبي" أضاء صاحباه الكثير من تيارات النقد المعاصر ومصطلحاته، فأضافا، بذلك العمل، إلى المكتبة العربية رؤية أكثر دقة ووعيا بمحتوى تلك

التيارات والمصطلحات أفادت دون شك، الرؤية النقدية العربية، لكن الملاحظ على هذا العمل الكبير، غياب مصطلح (التناص)، وبالمقابل نجد الحوارية (Dialogism)، والنص المتعالق (Hypertexte)* ما يجعل القارئ يستغرب غياب مصطلح بهذه الأهمية.

على كل، إن الحديث عن الشروط العلمية والمعرفية لنقل المصطلحات من ثقافة إلى أخرى، حديث ذو شجون، خاصة لما يتعلق الأمر بالعلوم الإنسانية، ذات الطابع الهيولي ما يجعل اتفاق الباحثين بشأنها أمرا مستعصيا، فقد لامسنا عن قرب -عبر هذه الورقة البحثية- أن التداول الاصطلاحي الذي يهيمن على الخطاب النقدي العربي يكشف عن الكثير من القصور في فهم أبعاد المصطلح النقدي وامتداداته. وهو ما دفع الباحث المغربي **بنكراد** إلى أن يدعو إلى ضرورة توفير الشروط الأساسية لنقل وتعريب المصطلحات الوافدة إلينا عبر لغات أجنبية. والمصطلحات برأيه ليست دليلا لغويا مفصولا عن أي سياق معرفي بل هي « كائنات تأتينا محمّلة بتاريخها ورؤاها وأشكالها في الوجود والاشتغال ولهذا السبب، فإن تدبير أمور المصطلح ليس شأنا تقنيا يتكفل به مترجمون متمرسون يجيدون اللغات بل هو شأن معرفي يتكفل به المختصون في شتى فروع المعرفة»[45].

غير أن ذلك، لا يمكنه أن يجعلنا نتجاهل، أن إشكالية المصطلح إشكالية مستعصية حتى لدى الغربيين أنفسهم، فلقد أشار غير باحث إلى معضلة المصطلح النقدي واستفحالها بين الدارسين، فالباحث الغربي **دوبيازي**، على سبيل المثال، أعطى صورة واضحة عن التذبذب، والاضطراب اللذين اعترضا مفهوم التناص على مستوى الاصطلاح وتحديد المفاهيم الفرعية له، فقال في هذا الشأن: «هذا النمو السيئ للمفهوم، والذي لا تزال آثاره اليوم قائمة، كان تفاقمه راجعا بدون شك لسنتي 1975-1976 بسبب بعض الاضطرابات الاصطلاحية، خاصة ما يتعلق منها بالمفهوم الفرعي: المتناص (على وزن المتَفاعل)L'Intertexte ... »[46] . وفي خضم الحديث عن هذه المعضلة، يستعرض **دوبيازي** نماذج تعريفية لمفهوم المتناص يختلف مدلولها لدى كل من ميشال أريفيM.Arrivé ولوران جيني L.Jenny، وميكائيل ريفاتير M.Riffater[47].

طبعا هذا الرأي وغيره من لدن الباحثين الغربيين، ربما ينقص من حدة امتعاض بعض الدارسين من ظاهرة فوضى الاصطلاح في الخطاب النقدي العربي، كما يجب الإشارة إلى ما يعترض المصطلح في رحلته من لغة إلى لغة أخرى لتأثيرات مختلفة، حيث يحمل معه محمولات فكرية وفلسفية في لغته الأم ثم يتأثر بالثقافة التي ينتقل إليها، فتتغير بذلك دلالاته، وربما يفقد شيئا من الوضوح والتحديد.

وتقديرا منهم لمدى خطورة إشكالية المصطلح على الثقافة العربية بشكل عام، والدرس النقدي بشكل خاص، فإن العديد من الدارسين العرب أحاطوها بعناية خاصة فوضعوا بشأنها دراسات هامة، اهتموا فيها بمفهوم الاصطلاح وتاريخه، وإشكالياته، كما اشتغلوا على جملة من الاصطلاحات النقدية مفهوما وتعريفا وتاريخا، نذكر منها على سبيل الذكر لا الحصر: "نظرية المصطلح النقدي" لـ عزت محمد جاد، و"المصطلح النقدي " للمسدي"، و"إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد"، ليوسف وغليسي، و"في المصطلح النقدي" لأحمد مطلوب....إلخ.

وقبل أن نترك الحديث عن إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي المعاصر، نرى من الضروري أن نرسم بعض الحلول الموضوعية التي يمكن لها أن تحد من استفحال المشكلة وهي على النحو التالي:

. ضرورة تبني هيئات علمية وثقافية لعمليتي النقل والترجمة حتى لا تبقى العملية خاضعة لأهواء وأذواق بعض الباحثين.

. ضرورة ضبط المصطلح الذي يعبر عن ظاهرة أدبية معينة، لتجنب خطر الانزلاق الدلالي والتباسه على المتلقي.

. تحرير الدرس النقدي العربي من الولاء المطلق لإنجازات الآخر، ومن التبعية المفرطة له، ومحاولة تقديم البديل على أن يكون من أصول ثقافية عربية .

. الابتعاد قدر المستطاع عن عملية النقل المباشر للمصطلح الغربي وتجذيره في الثقافة العربية، على شاكلة هايبرنص، والميتانص، والآرشينص....، فلا محالة أن هذا النوع من الاستعمال الاصطلاحي لا يثري اللغة العربية بل يشوهها.

الهوامش و الإحالات:

1. محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، مقاربة بنيوية تكوينية، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1979.
2. صبري حافظ، التناص وإشاريات العمل الأدبي، مجلة ألف، الجامعة الأمريكية، القاهرة، ع 4، 1984، ص 8
3. المرجع نفسه، ص.21
4. نفسه، ص 9
5. راجع المرجع نفسه، ص.27
6. محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري: إستراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 1986 ص 120
7. المرجع نفسه، ص .121
8. راجع، عبد الله الغدامي، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، دار سعاد الصباح الكويت، ط3 ،1993، ص 317
9. راجع المرجع نفسه ص .317
10. نفسه، ص 318
11. نفسه، ص .321
12. نفسه، ص 326
13. راجع : سامي سويدان، جدلية الحوار في الثقافة والنقد، دار الآداب، بيروت، ط 1، 1995، ص17
وصلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2002، ص155
14. حامد أبو أحمد، نقد الحداثة، سلسلة كتاب الرياض، مؤسسة اليمامة الصحفية، ط1، 1994، ص 13
15. مصطفى خضر، الحداثة كسؤال هوية، مطبعة إتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 1996، ص11
16. "المرايا المحدبة"، "المرايا المقعرة"، و" الخروج من التيه"
17. انظر عبد العزيز حمودة،المرايا المقعرة، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1998، ص.454
18. المرجع نفسه، ص .455
19. يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص.399
20. انظر محمد عبد المطلب، قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، الشركة العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، ط 1، 1995، ص1-3
21. عز الدين المناصرة، علم التناص المقارن (نحو منهج عنكبوتي تفاعلي)، دار مجدلاوي للطبع والتوزيع، الأردن ص.5
22. المرجع نفسه ص .11
23. انظر، المرجع نفسه، ص 5-6

24 . راجع ميجان الرويلي، وسعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي،الدر البيضاء، ط3، 2002، ص269

25 . إدريس بلمليح، الرؤية والمنهج لدى الغذامي، ضمن كتاب: الغذامي الناقد قراءات في مشروع الغذامي النقدي، سلسلة كتاب الرياض، مؤسسة اليمامة الصحفية، السعودية، 2002 ص.15.

26 . المرجع نفسه، ص17

27 . الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، تحقيق: ابراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 4، 1998، ص44

28 . سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، ط 1، 1989، ص .98.

29 . المرجع نفسه، ص .98.

30 . نفسه، ص99.

31 . نفسه، ص 100

32 . نهلة فيصل الأحمد، التفاعل النصي، التناصية، النظرية والمنهج، دار مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، د ط، 2002، ص151

33 . سعيد يقطين، الرواية والتراث السردي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1992 ص.6

34 . محمد عبد المطلب، قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، ص .146.

35 . يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي الغربي الجديد، ص .404.

36 . المرجع نفسه، ص.405.

37 . آفاق التناصية ، المفهوم والمنظور، ترجمة وتقديم: محمد خير البقاعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998، ص42

38 . نهلة فيصل الأحمد، التفاعل النصي، التناصية، النظرية والمنهج ص.7

39 . المرجع نفسه، ص.68.

40 المرجع نفسه، ص72/.73.

41 . سمير سعيد حجازي، قاموس مصطلحات، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط 1، 2001، ص .74.

42 . المرجع نفسه ص.74.

43 . انظر، سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي ص .98.

44 . انظر، سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت سوشيريس، الدار البيضاء ط1، 1985، ص215.

* نشير إلى أن هذا المصطلح له ترجمات عديدة نذكر منها، النص المترابط، النص الفائق، النص المتشعب..

45 . سعيد بنكراد، المصطلح السيميائي، الأصل والامتداد، مجلة/علامات ع 14، 2000 موقع سعيد بنكراد saidbengrad.com

46 . ب.م. دوبيازي، نظرية التناص، ترجمة المختار حسني مجلة/ فكر ونقد، دار النهضة، الرباط، السنة الثالثة ع28 أبريل 2000، ص 115

47 . راجع المرجع نفسه، ص115و116

تداولية الإشاريات في الخطاب النهضوي عند مالك بن نبي" مجالس دمشق " نموذجا.

أ. لندة قياس
قسم اللغة و الأدب العربي
جامعة باتنة – 1

الملخص :

تهدف هذه الدراسة التداولية إلى تناول الأصناف الإشارية المختلفة و التي قسمها " جورج يول" إلى إشاريات شخصية، وإشاريات مكانية، وإشاريات زمانية ، ويضيف بعض الدارسين إلى هذه الأصناف الثلاثة الإشاريات الخطابية والاجتماعية باعتبارها مبحثا مهما من مباحث الدرس التداولي. واستثمار آلياتها لمقاربة بعض نماذج الخطاب النهضوي لدى مالك بن نبي ، وتحديدا في كتابه" مجالس دمشق. " .حيث سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية تحديد مرجعية هذه العناصر الإشارية، وفك شفراتها وتأويلها تأويلا مناسبا ضمن مقام التلفظ من أجل فهم المقاصد الحقيقية للمتكلم.

الكلمات المفتاحية : التداولية ،الإشاريات الخطابية ،الخطاب النهضوي .

ABSTRACT :

The purpose of this study is to address the various deictic items that George Yule has divided into person deixis, spatial deixis, and temporal deixis. In addition to this, some scholars have added the rhetorical and social references as key elements in the deictic study and investing its mechanisms to approach some of the models of the Renaissance discourse of Malik Ben Nabi, specifically in his book "Madjales Demashk".

In this paper, we attempt to determine the reference of these deictic elements and to decipher and interpret them appropriately in the context of the pronunciation to understand the true intentions of the speaker.

KEY WORDS : deictic .rhetorical . Renaissance discourse

توطئة:

تندرج الإشاريات Les Diectiques ضمن الحقل التداولي، وهي عبارة عن روابط إحالية لا تتحدّد مراجعها إلا بوجود طرفي الخطاب (مرسل - مستقبل) ضمن سياق كلامي معين. فالسياق له دور بارز في فهم هذه العناصر الإشارية وتأويلها تأويلا مناسبا للتعرف على مقاصد المتكلم باعتبار أن القصدية **Intentionnalité** تعد مقوّما من مقوّمات النصية **Textualité**.ويذهب الدارسون إلى أن الإشاريات لايكاد يستغني عنها تقريبا أي ملفوظ ، وهذا ما يؤكده **بارهيليل** Bar - hillel[*] بقوله:« ... إن أكثر من تسعين بالمائة من التلفظات التي ننطق بها في سياق حياتنا اليومية هي تلفظات إشارية يحدّدها السياق التلفظي الذي وردت فيه...»[1].

ويبدو أن هذه التقنية في التحليل قد برزت على خارطة البحث التداولي في وقت متأخر نسبيا حيث أسهمت في بلورتها الفلسفة المعاصرة للغة[2].

وانطلاقا ممّا تروم هذه الدراسة استقصاء البحث في العناصر الإشارية التي يتشكل منها الخطاب النهضوي لمالك بن نبي وتحديدا في كتابه **مجالس دمشق**، هذا الكتاب الذي يضم بين دفتيه ست محاضرات ألقاها مالك بن نبي باللغة العربية على بعض الطلبة السوريين خلال زيارته لدمشق ما بين 1971 - 1972 أي قبل وفاته بسنة، ويتمحور موضوعها حول " دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين "*.

ويذكر **عمر كامل مسقاوي**[*] في مقدمة هذا الكتاب قائلا:« من هنا نستطيع أن نضع تحت عنوان (مجالس دمشق) سائر ما قدمه مالك بن نبي في دمشق من محاضرات ومجالس ومعارف شخصية، وثقت الصِلَاتِ والأفكار معا ...»[3].

أما فيما يخص الأسباب التي دفعتنا لاختيار هذا الموضوع هو أن الإشاريات باعتبارها تقنية جديدة في الدرس التداولي المعاصر، لم تحظ بالاهتمام الكافي فلم نجد من الدراسات إلا دراسة للأستاذ **حمادي مصطفى** موسومة بـ " تداولية الإشاريات في الخطاب القرآني" ودراسة لـ **سامية شودار** *معنونة* بـ"البعد التداولي للإشاريات في سورة التوبة "،ومخطوط ماجستير موسوم بـ"الأبعاد التداولية في مقامات الحريري" **لضبعي النذير** ومن المؤلفات كتاب " الإحالة في شعر أدونيس" **لداليا أحمد موسى** بالإضافة إلى بعض المراجع الأخرى ولكنها تضل شحيحة .

أما فيما يخص مدونة الدراسة فإن الملاحظ أن أعمال مالك بن نبي قد عانت عقودا من التهميش والإقصاء حتى من طرف النخبة المثقفة، ويعود ذلك لأسباب كثيرة[4] لا يتسع المقام لسردها، وهذا ما حذا بنا لإعادة قراءة منتوج هذا المفكر الجزائري، بأدوات قرائية جديدة تجمع بين ما أبدعه الفكر الغربي، وما توصل إليه بعض اللسانيين العرب القدامى والمحدثين من نتائج قيمة وجهود لاتنكر في هذا المجال .

وتحليل الإشاريات في هذه المدونة يقتضي منا الإجابة عن التساؤلات الآتية:

- كيف يمكننا استثمار الإشاريات باعتبارها آلية من آليات التحليل اللساني في فهم الرموز اللغوية لخطابات مالك بن نبي، وتأويلها تأويلا مناسبا ؟

- وما مدى نجاعة هذه التقنية في استجلاء مقاصد المتكلم، والكشف عن مشروعه النهضوي وتطلعاته المستقبلية ؟.

- وإلى أي مدى أسهمت هذه الروابط الإحالية في تحقيق انسجام هذه الخطابات وترابطها ؟.

من هذا المنطلق سأقتصر منهجيا على إبراز أهمية الإشاريات باعتبارها وسيلة اتساق نحوية ودلالية وتداولية في الكشف عن السمات النصية والمقاصد التداولية لمالك بن نبي، ونظرا لطبيعة هذه الدارسة سأركز على مقاربة نماذج منها.

تعريف الإشـــاريات:

يعرف **جورج يول** J. Yule الإشاريات بقوله: « تسمى التعابير التأشيرية أيضا الإشاريات Indexicals وهي أولى الصيغ التي ينطق بها الأطفال الصغار، وتستعمل للإشارة إلى الأشخاص من خلال التأشير الشخصي Person diexis (أنا، أنت)، أو إلى المكان من خلال التأشير المكاني Spatial diexis (هنا، هناك) أو إلى الزمان من خلال التأشير الزماني Temporal diexis (الآن، آنذاك) وتعتمد جميع هذه التعابير في تفسيرها على متكلم ومستمع يتشاركان في السياق ذاته »[5].وعلى هذا الأساس يقسم جورج يول الإشاريات إلى ثلاثة أصناف: إشاريات شخصية، إشاريات مكانية، وإشاريات زمانية.

ويضيف الدارسون إلى هذه الأصناف الثلاثة: الإشاريات الاجتماعية، والإشاريات الخطابية[6].

وسنبدأ بتحليل أول صنف منها:

1-**الإشاريات الشخصية:** وهي مؤشرات لسانية تبرز على مستوى البنية السطحية أو العميقة للخطاب، وتشمل جميع أنواع الضمائر المتصلة والمنفصلة والمستترة وجوبا أو جوازا.

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نتعامل مع خطابات مالك بن نبي على أنها علامات لسانية متتابعة تتابعا خطيا أفقيا، تخضع لسياق تداولي يفسر دلالتها، فَهَوْسُ مالك بن بني بمشكلة الحضارة ودورتها جعله يتخذ من هذه الضمائر غطاء لغويا يتستر وراءه لدك أسس مشروعه النهضوي وهذا ما جعل:« جميع كتابات بن نبي توضع تحت عنوان " مشكلات الحضارة"»[7].

وإذا ما انتقلنا إلى المدونة وجدنا أنّها تشتمل على ضمائر المتكلم والمخاطب والغائب، وتحيل كلها إلى مراجع محددة أو ذوات معينة ، و ساعد السياق في الكشف عن مرجعية هذه الضمائر، ومن نماذج ذلك قوله: «**... دائما أكتفي بالقول بعد تأمل طويل وبعد مراجعات متكررة بما كنت قد فعلته منذ أربعين سنة إذ أراجع الأفكار لعلي على خطأ فأنتهي دائما إلى أن المرفأ بالنسبة لكل سفينة مهددة بالغرق، أعني لكل مجتمع إسلامي: - دينه - حضارته ...** »[8].

تنوعت الضمائر في هذا النموذج بين مستترة ومتصلة ولكن يظل المرجع الذي تشير إليه واحدا وهو ذات المتكلم والجدول الآتي يوضح ذلك:

صفة الضمائر	عددها	العناصر المحيلة	المرجع	نوع الإحالة
مستترة	4	أكتفي – أراجع – أنتهي – أعني	مالك بن نبي	داخلية قبلية
متصلة	3	كنـ(ت) – قلـ(ت)ـه – لعلـ(ي)	مالك بن نبي	داخلية قبلية

أكسبت الضمائر المحيلة إلى " ذات المتكلم " النصَّ اتساقه وترابطه، وهذا الشكل من الإحالة يطلق عليه الدارسون " إحالة داخلية قبلية ".

فذات المتكلم تعد مرجعا غير لغوي، وهو غير مصرح به في عالم الخطاب لأن: «... ممارسة التلفظ هي التي تدلّ على المرسل في بنية الخطاب العميقة، مما يجعل حضور الأنا يرد في كل خطاب، ولهذا فالمرسل لا يضمّنها خطابه شكلا في كل لحظة، لأنّه يعوِّل على وجودها بالقوة في كفاءة المرسل إليه، وهذا ما يساعد على استحضارها لتأويل الخطاب تأويلا مناسبا ...»[9]. فتأويل الضمير " أنا " في هذا المقام يشير إلى المتكلم " بوصفه فاعلا منطقيا [10]،

وترتبط الشحنة الدلالية لهذه الضمائر بمقاصد المتكلم، إذ يمنح الضمير للمتكلم فضاء أرحب للتعبير عن أفكاره وتجاربه ومعتقداته، فقد عبّر الضمير في النموذج السابق عن أفكار مالك بن نبي وتأملاته التي استغرقت أربعين سنة، وهذه التأملات الطويلة قادته إلى أن مرفأ النجاة لكل مجتمع إسلامي يرتكز على دعامتين هما: دينه وحضارته لأن: «... دورة النهوض الحضاري تبدأ من تفاعل الإنسان مع الوقت والتراب وتؤدي " الفكرة الدينية " دورا محوريا في هذه الدورة »[11].

فمشكلة الإنسان هي مشكلة حضارية بالدرجة الأولى والذي يساعد على حلِّ هذه المشكلة هي الفكرة الدينية التي تعمل على تخليص الإنسان من التخلف والركود والانحطاط ، فتدفعه إلى السير قدما نحو التغيير والتطوير والعمل. ومن النماذج التي يحضر فيها ضمير المتكلم أيضا قوله:

«...في البداية يجب أن ندرج مقدمة لحديثنا قضية عامة نطرحها قانونا نهتدي به في سيرنا نحو حل المشكلات التي نواجهها نحن معشر المسلمين...»[12]

يمكن تقسيم دلالة الضمير نحن في هذا النموذج إلى " نحن الشاملة " و" نحن القاصرة " كما ذهبت إلى ذلك **روبين لاكوف** Robin Lakoff [13] ، ولا يختلف تقسيم لاكوف عن تقسيم **جورج يول** حيث قسمها إلى نحن المستثنية ونحن المشتملة[14].

والجدول الآتي يوضح ذلك:

نحن المشتملة (المتكلم + المخاطب)	**نحن المستثنية** (المتكلم وحده)
نهتدي	ندرج
سيرنا	لحديثنا
نواجهها	نطرحها
نحن	

فعندما يجمع المتكلم بين ذاته وذوات المخاطبين من خلال العنصر الإشاري "نحن" فان هذا الضمير يوظّفه "المرسل للتعبير عن قصده في التضامن مع المرسل إليه" [15] كما يعدّ دليلا على حضور المخاطب في سياق التلفظ أو استحضاره، حتى ولو كان غائبا. [16]

وبما أن خطابات مالك بن نبي تشكل بنية تفاعلية تقتضي وجود طرفي الخطاب " أنا "مقابل " أنت "، فإنّنا سنتوجه لدراسة وتحليل الضمائر المحيلة إلى الطرف الآخر الموجه إليه الخطاب (المرسل إليه / المخاطَب) لأن شخصية المخاطِب لها تأثير واضح على المتكلم لحظة إنتاج خطابه إذ أبرز اللغويون القدامى « دوره في مستوى الخطاب اللغوي مثل المستوى النحوي، من حيث التذكير

والتأنيث والعدد، وتجسيده بعلامة لغوية هي إلصاق **كاف الخطاب** بأسماء الإشارة، ولم يقفوا عند هذا الأمر، بل أبرزوا دوره أيضا في سياق الخطاب، وأثر ذلك على الخطاب تداوليا»[17].

وتتوفر هذه المدونة على **ضمائر للخطاب** بأنواعها منفصلة ومتّصلة ومستترة يتحكم في استعمالها نوع العلاقة التي تربط طرفي الخطاب ببعضهما (مرسل/مرسل إليه) وحسب الألعاب اللغوية التي يمارسها المتكلم والتي يجعلها بقدر ما أمكن تتناسب مع مقاصده وأغراضه التداولية.

ومن المواضع التي اطّرد فيها ذكر ضمير المخاطَب ما أورده مالك بن نبي في لقاء مفتوح مع جمع من الفتيات في مسجد صلاح الدين قائلا:«**فيجب عليكن أنتن طليعة المجتمع الإسلامي أن تعدن النظر في القضية، وتتساءلن لماذا فشل المجتمع أمام دويلة لا أقول حقيرة... بل دويلة صغيرة ... نرى أن المجتمع الإسلامي وهن أمامها مرتين ... لأن كل دولة اعتبرت نفسها ميناء مستقلا بناء على القاعدة التي تشير إليها ابنتي السائلة، وهذا هو الخطأ لذا يجب أن نراجع أخطاءنا.**»[18].

يتوفر هذا النموذج على ضمائر للمخاطَب متصلة ومنفصلة ومستترة في المواضع الآتية:(عليكن، أنتن، تعدن، تتساءلن ...).

أحالت هذه العناصر الإشارية إحالة داخلية قبلية لمرجع محدّد يتمثل في (جمع من الفتيات) أشار إليهن بالضمير " أنتن " حيث أغنى استعمال الضمير عن تكرار الاسم المشار إليه ، وفي هذا السياق يشير **تمام حسان** إلى أن:«الضمائر تكون ذات مراجع متقدّمة عليها في اللفظ أو في الرتبة، أو فيهما معا، والأغلب في هذه المراجع أن يكون اسما ظاهرا محدّد المدلول ... وتَقَدُم هذه المراجع لفظا أو رتبة أو هما معا ضروري للوصول إلى هذه الدلالة »[19].

فقد ساعد العنصر الإشاري " أنتن " على تحديد جنس المخاطب وعدده، كما أشار إلى الموضوع المتحدث عنه إذ يرى مالك بن نبي أن حل مشكلة المجتمع الإسلامي تبدأ من مراجعتنا لأخطائنا ومحاسبتنا لأنفسنا، وأكد هذا الطرح في كتابه " شروط النهضة " بقوله:«...وفي هذا دلالة على ما بين تغيير النفس وتغير الوسط الاجتماعي من علاقات متينة»[20]، و حثت الآية الكريمة من قبل على ذلك في قوله تعالى:﴿ **إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾» **سورة الرعد، الآية 11**.

نستنتج مما سبق أن العنصر الإشاري " أنتن " قد أسهم في ربط الأجزاء المتباعدة للنص وقد أحال إحالة داخلية قبلية كون مرجع الخطاب واحد منذ البداية، فحققت العلاقة بين العنصر الإشاري والمرجع ارتدادا لموضوع الخطاب (وهو مشكلة الحضارة).

كما عبر الضمير " أنتن " عن مدى رغبة مالك بن نبي في العناية بقضايا أمته، ومدى إخلاصه لبني قومه وجلدته، فقد شكّل الواقع الجزائري حضورا قويا « في مشروع بن نبي وتأثيره في رؤيته للإصلاح والنهوض، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال كتاباته، حيث تبرز الوقائع والظواهر الجزائرية »[22] جلية واضحة.

كما تتوفر هذه المدونة على مواضع عدة لمهمات الخطاب المتعلقة **بالغيبة** التي اطّرد ذكرها بصيغ مختلفة: منفصلة ومتصلة ومستترة.

ورد العنصر الإشاري " **هو** " الذي يشير إلى مرجع يتعلق بالمفرد الغائب، ومن نماذج ذلك قوله:«**فنحن نعلم أن الرسول (ص) هو خاتم الأنبياء، إذ لا رسول بعده، فلو أنه جريا على مبدأ التواضع أخفى حقيقته رسولا تواضعا منه – وحاشا أن يفعل ذلك رسول من ربه- لما بلغتنا**

رسالته ..»[23]. يتوفر هذا النموذج على مهمات للخطاب تحيل إلى شخص الرسول (ص) نوضحها من خلال المخطط الآتي:

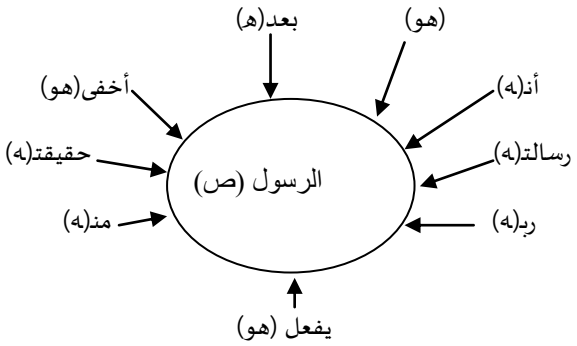

أحالت هذه العناصر الإشارية الدالة على الغيبة إحالة داخلية قبلية إلى مرجع محدد مذكور في السياق التخاطبي وهو شخص الرسول (ص)، فحققت تماسكا للأبنية المشكلة للخطاب، كما عملت على «مد جسور الاتصال بين الأجزاء المتباعدة في النص ... »[24].

وبما أن الضمائر بشكل عام يطلق عليها مبهمات فإن النحاة يصّرون على ضرورة تحديد مراجع الضمائر، فإذا كان الضمير أنا/أنت تفسرهما المشاهدة [25] باعتبارهما ضمائر حضور، فإن ضمير الغائب«صاحبه غير معروف، لأنّه غير حاضر ولا مشاهد ، فلابد لهذا الضمير من شيء يفسره ويوضّح المراد منه ...»[26].

ويعد النحويون هذه العناصر الإشارية من الناحية الدلالية مؤكّدات ، أما فيما يخص الضمير هو في قوله: « **فنحن نعلم أن الرسول (ص) هو خاتم الأنبياء ...»**، فقد سمّاه بعض الكوفيين بالدعامة،[27] لأن وروده في مقام التلفظ يفيد تأكيد الكلام وتقويته.

وسنحاول فيما يأتي تحديد أطراف العملية التخاطبية أي نسعى للإجابة عن أسئلة كالآتي: من يتكلم ؟ ومن يوجه إليه الكلام ؟ وما الموضوع المتحدث عنه ؟ ويوضح المخطط الآتي ذلك:

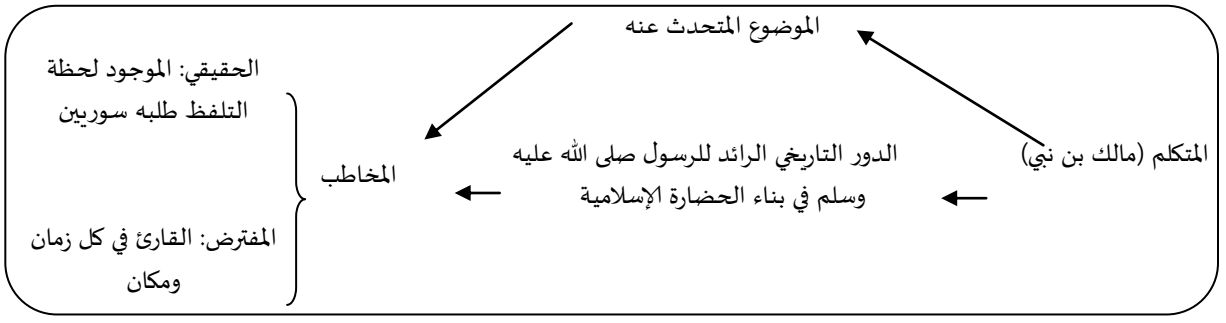

وإذا كان ضمير الغائب المفرد في هذا النموذج أناب عن الموضوع امتحدث عنه، فإنّنا نجد عناصر إشارية أخرى قد أسهمت بدورها في استكمال المسار الدلالي لبنية هذه الخطابات ومنها إشاريات الزمان.

2- الإشاريات الزمانية (*):

تعدّ الإشاريات الزمانية عناصر لغوية تحيل إلى لحظة التلفظ بالخطاب، وتتحدّد دلالتها انطلاقا من المعطيات التي يوفّرها السياق التداولي، وإدراك المخاطب لزمن التلفظ يسهم بشكل واضح في تحديد مرجعية هذه المبهمات.

ويقسم اللغويون الزمن إلى[28]:

1- **زمن نحوي**: ويعني به تمام حسان:« وظيفة في السياق يؤديها الفعل »[29].

2- **زمن كوني**: وتدل عليه الظروف التي تشير إلى العالم الخارجي كالفصول والسنوات والأشهر والأيام،

تعدُّ ولحظة التلفظ محورا تتدرج فيه مختلف مبهمات الزمن الآتية[30]:

أ/ المبهمات التزامنية: وهي تلك الظروف التي تستعمل لحظة التلفظ بالخطاب وتدلّ على الزمن الحاضر مثل: اليوم، الآن.

ومن نماذج ذلك يقول مالك بن نبي :« **فالمجتمع الإسلامي اليوم له وجهان:**

- الوجه المشرق الذي يراه المؤمن والمؤمنة، وهو وجه الصحة صحة الفكرة الإسلامية.

- الوجه الآخر هو وجه الصلاحية، والصلاحية مفقودة اليوم في المجتمع الإسلامي وهذا واقع»[31].

يعتبر الظرف المبهم " اليوم " في هذا الخطاب مركز إشارة زمنية، وقد ارتبط بفضاء زماني أوسع يتعلق تحديدا بعصر المتكلم وما ساده من مواقف متباينة حول صحة الفكرة الإسلامية، ومدى صلاحيتها في تغيير ما في النفوس من أجل الشروع في نهضة حضارية جديدة، وبهذا يتقاطع فكر مالك بن نبي مع فكر محمد عبده في أهمية الفكرة الدينية «ودورها في تحريك عجلة النهضة والتنمية...»[32] من جديد لإعادة إحياء مجد الأمة الإسلامية بعد الشلل الذي أصاب كيانها.

في ضوء المعطيات السابقة يتبين لنا أن السياق أسهم بشكل واضح في تقديم يد المساعدة للقارئ لتحديد مرجعية الظرف المبهم " اليوم " فدلالته لا ترتبط بيوم مقدَّر بأربعة وعشرين ساعة كما هو متعارف عليه ، وإنّما اتّسع مجاله ليشمل فضاء زمانياأرحب يتعلق بعصر الكاتب فـ«قد يتسع مدى بعض العناصر الإشارية إلى الزمان فيتجاوز الزمان المحدّد له عرفا إلى زمان أوسع ...»[33].

وتتوفر خطابات مجالس دمشق على عناصر إشارية تجعل من مرجعية الزمن مطابقة للحظة التلفظ بالحدث الذي يمثل موضوع الخطاب وذلك من خلال توظيفه للعنصر الإشاري " **الآن** " ويتجلى ذلك في قوله:

« نرى أن خريطتنا افتقدت إحدى مراكزها وهي استانبول، إذ فقدت كيانها كعاصمة سياسية ... والآن لم يعد في العالم الإسلامي إلا مركز واحد وهو القاهرة، ونلاحظ أن القاهرة لا تشعر بقيمتها كمركز إشعاع إسلامي »[34].

إذا ما تأملنا مضمون هذا النموذج نلاحظ أن الظرف المبهم " **الآن** " يتزامن والحال الذي أصبح عليه حاضر الأمة الإسلامية، فتحول مركز القوة في العالم الإسلامي من استانبول إلى القاهرة لم ينجم عنه أي تغيير إيجابي أو أي تطور ملموس في مسار تقدم الأمة ونهضتها، ولذلك نجد مالك بن نبي يولي أهمية للجانب الثقافي على حساب السياسي لأن « المشكلة الرئيسية هي ثقافية وليست سياسية »[35].

وعليه فقد ارتبطت مرجعية الظرف المبهم "**الآن**" بالزمن الحاضر الذي يعد مركز الإشارة الزمانية بالنسبة للمتكلم ،وقد أسهمت هذه القرينة التزامنية في تعالقها مع باقي الوحدات المشكلة للنص في ربط أول خيط له بآخره ربطا خطيا أفقيا، فأحالت بذلك على الدلالة الكلية لموضوع الخطاب من جهة وحقّقت نموا واستمرارية وتناسقا لبنيته من جهة أخرى.

ب/ المبهمات القبلية:

ويؤشر لها تركيبا بالقرائن اللغوية الاتية: الأمس، البارحة، قبل[36].

ومن نماذج ذلك يقول مالك بن نبي:

« ... ثم إذا تساءلنا ونحن نحلل المشهد في إسقاط الأسماء في الرقعة الأوربية كما في رقعة الحضارة العربية لماذا لا نجد في القرن العاشر أو

الثالث عشر مفكرا أجنبيا في فرنسا أو نابغة فرنسيا ؟ لماذا لا ينبغ ألماني ؟ لماذا كل هذه القافلة من الفلاسفة (كانط، ماركس، هيجل، نيتشه) التي بدأت تبرز في قرن ولم تبرز في قرون من قبل» [37].

وردت في هذا النموذج الإشارة الزمانية " **قبل** " وقد أحالت إحالة داخلية قبلية إلى الزمن الماضي، وما ساعد على تحديد مرجعية هذا الدال الزمني ارتباطه بدوال أخرى تعالق معها داخل النسيج النصي ونقصد تحديدا الفعل الماضي " تساءلنا " وفي هذا السياق تشـير "**أن أبرسفيلد** Anne Ubersfeld "إلى أن « ... الحديث عن التحديدات النصية للزمن لا معنى له إذا كانت معزولة ، فما معنى أن نقول إنّها السادسة أو هذا الصباح، إن الدال الزمني لايأخذ معنى إلا بارتباطه بدال آخر » [38]. فإزالة الغموض عن المهمات لا يتحقق إلا في إطار وحدة نصية مكتملة الدلالة تتسم بالانسجام والترابط.

ج- المهمات البعدية:

ويؤشر لها تركيبيا بالقرائن اللغوية الآتية: غدا، الأسبوع القادم، السنة القادمة، بحيث يكون الحدث المخبر عنه في حكم المستقبل وذلك بالقياس إلى زمن التلفظ [39].

ومن نماذج ذلك يقول مالك بن نبي:«**لقد بدأنا نشعر أن العالم قد أخذ وجها جديدا فتساءلت في نفسي وقلت:هل لو انتصرت ألمانيا سيكون العالم في هذا الوجه الجديد ؟»** [40].

تتبدى الإحالة إلى المستقبل في قوله " **سيكون** " ووردت هذه الصيغة على هيئة الفعل المضارع المقترن بـ"السين"، و عملت هذه القرينة اللغوية على نقل دلالة الفعل من الزمن الحاضر إلى المستقبل، يقول المبرد (ت 286هـ):« وإن دخلت على هذه الأفعال السين وسوف صارت لما يستقبل وخرجت من معنى الحال وذلك قولك سأضرب وسوف أضرب » [41].

والمتأمل في النموذج السابق يجد أن الفعل " سيكون " ورد ضمن جملة شرطية يتصدرها الفعل الماضي" انتصر " وإن كان هذا الفعل قد ورد على هيئة الماضي إلا أن دلالته في هذا السياق أفادت الاستقبال يقول تمام حسان:« وحين نظروا في الجمل الإنشائية وجدوا صيغة فعل تفيد الاستقبال في التحضيض والدعاء والشرط »[42].فصيغة الفعل الماضي في هذا السياق أفادت معنى الاستقبال لأنّها وردت في جملة إنشائية تتضمن معنى الشرط.

3-الإشاريات المكانية:

يرى الدارسون أن هذا الصنف من الإشاريات يحيل إلى المواضع التي تفاعل معها الخطاب، ويمثل المكان:« بعدا أساسيا يحسّ به الإنسان، ويؤثر في وجوده وكينونته، وإحساسه بالمكان أسبق من إحساسه بالزمان، غير أن إدراكه للمكان يقترن بأبعاد حسية مادية، ويقترن إحساسه بالزمان بأبعاد ذهنية شعورية » [43].

والإحالة إلى المكان تكون بواسطة الظروف مثل: خلف، فوق، وراء، ومنها ما يتعلق بأسماء الأماكن وهي أقطار تحيط بنا في العالم الخارجي كأسماء البلدان أو المدن [44].

ونشير بدءا إلى أن عنوان هذه المدونة لا يخلو من ذكر للمكان، فالعنوان يتركب من لفظتين " **مجالس** " و" **دمشق** " وكل منهما يحيل إلى فضاء مكاني محدد.

فقد ورد في لسان العرب لابن منظور (ت 711هـ) أن :« **المجلَس بفتح اللام، المصدر،**

والمجلس: موضع الجلوس، وهو من الظروف غير المتعدي إليها الفعل بغير " في ". قال سيبويه: لا تقول هو مجلس زيد، وقوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ ﴾[المجادلة:11] قيل: يعني به في مجلس النبي (ص) وقرئ في المجالس، وقيل يعني بالمجالس مجالس الحرب، كما قال تعالى:

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[آل عمران:121]»[45].

فالمجلس -حسب ابن منظور- يعني الموضع أو مكان الجلوس.

أما اسم المكان " دمشق " فيشير إلى العاصمة السورية التي احتضنت فكر مالك بن نبي بحفاوة بالغة، وقد تعطش طلبتها لفيض علمه، وأصالة فكره « فرجال دمشق ومثقفوها منحوا فكر مالك بن نبي اهتماما وضيافة تشير إلى تقاليد الشام في الاحتفاء بالقادمين إليها من المغرب منذ الأمير عبد القادر الجزائري »[46].

فالعنوان كان ملخّصا لمضمون هذه المدونة ليؤسّس لكيان فكري تربط بين أواصره الألفة والمودة.

وفي هذا السياق يرى جون كوهين J. Cohen أن العنوان يتخذ الموضوع العام في الخطاب النثري المتسم بالانسجام، والوصل، والربط المنطقي لذا لا يمكن الاستغناء عنه[47].

أحكم مالك بن نبي هندسة خطاباته بدءا بالعنوان ويتعاضد ذلك بتوظيفه لعناصر إشارية مكانية اطّرد ذكرها في مواضع متعددة من هذه المدونة.

ففي معرض استقرائه لتاريخ الحضارة الإسلامية، وأهم التحوّلات التي طرأت على مسارها تطرق إلى ذكر أماكن معينة ارتبطت بأحداث تاريخية هامة، يقول:

« وهنا ينبغي أن ننصف الأتراك إذ لو لم يظهر الأتراك في القرن الخامس عشر لأخذ العالم الإسلامي وأبيد وأزيل من الخريطة ... فالجزائر احتلت عام 1500 طبعا المسلمون ضيعوا الأندلس ولم يكن الأتراك أتوا عام 1492 عام سقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين في الأندلس ...»[48].

تحضر في هذا النموذج الإشاريات المكانية الآتية: العالم الإسلامي، الجزائر، الأندلس، غرناطة، واسم المكان معقل. وساعدت الإشاريات في هذا السياق التداولي على تحديد موضوع الخطاب، وهوية المتكلم، وانتمائه الإيديولوجي، وعلاقته بالأحداث التاريخية وخاصة المرتبطة منها بماضي أمّته « فالمكان أكثر من منظر طبيعي، إنّه حالة نفسية يستعاد عن طريقها التاريخ الشخصي المتجذّر في اللاوعي المرتبط بهذا المكان أو ذاك »[49].

يرتبط مالك بن نبي بهذه الأماكن ارتباطا شعوريا لأنّها تشكل جزءا من ذاكرته التاريخية وهي ذاكرة حيّة لا تموت بموت الأشخاص.

4- الإشاريات الخطابية:

يرى الدارسون أن إشاريات الخطاب قد تلتبس بمفهوم الإحالة الشخصية ولذا أخرجها البعض منهم من دائرة الدراسة، غير أنّ هناك من وضع حدودا فارقة بينهما[50].

كما أن هناك إشاريات للخطاب « تعدّ من خواص الخطاب و تتمثل في العبارات التي تذكر في النص مشيرة إلى موقف خاص بالمتكلم ...»[51].

ومن نماذج ذلك قوله:**« فلو انتهينا مثلا لدولة باكستان سنة 1947 التي فرحنا بها كلنا عموما 99٪ أو أكثر، ربما 99 ٪ كنا فرحين باعتبارها دولة**

إسلامية، وهي كلمة كثيرا ما يغرر بها، لكنني أنا لم أفرح، يجب أن أقول الحقيقة، إنني لم أفرح، ولم أبارك تكوينها، لأنني كنت أعلم أنها مؤامرة ضد الإسلام يجب ألا أغتر بالكلمات، فأنا لا يهمني دولة إسلامية، يهمني مصير الإسلام أكثر من أمة إسلامية »[52].

ذكر مالك بن نبي أن عامة المسلمين يعني (99 ٪) منهم قد استبشروا خيرا، وعمتهم فرحة عارمة نتيجة إعلان باكستان دولة إسلامية، لكن هذه الفرحة الكبيرة التي عمت المسلمين كلهم لم تشمله هو، لأنه كان يدرك بنفاذ بصيرته، وحدة ذكائه أن هذا الإعلان ما هو إلا مؤامرة تحاك خيوطها من أجل ضرب الإسلام في عقر داره وقد أثبت الوضع الراهن ذلك.

وبناء ما سبق نستنتج أن حرف الاستدراك " لكن " قد أشار إلى موقف خاص بالمتكلم كما عبّر عن التأملات العميقة لهذا المفكر، ومدى موضوعيته في التعامل مع الأوضاع والأحداث التي عايشها. وعلى هذا الأساس يصنف التداوليون حرف الاستدراك " لكن " على أنّه من إشاريات الخطاب.

5- الإشاريات الاجتماعية:

تتوفر هذه المدونة على عناصر إشارية مختلفة تحيل إلى طبيعة العلاقة التي تربط مالك بن نبي بالمخاطَب « من حيث هي علاقة رسمية Formal أو علاقة مودة وألفة ... »[53].

ومن النماذج التي برز فيها الصنف الأول من هذه العلاقات الاجتماعية قوله:

« ففي بعض المناسبات كنا في جماعة نتناقش مع روجيه غارودي أظن سنة 1947 فانتحى بي جانبا وأسر لي بشيء من الحياء، وقال لي: لماذا الحضارة الغربية مستمرة بينما الحضارة الإسلامية انتهت ؟ أجبت السيد روجيه متعجبا لماذا ؟ ... »[54].

يشتمل هذا النموذج على العنصر الإشاري " **السيد** " مما يوحي أن هناك علاقة رسمية تربط مالك بن نبي بالسيد روجيه **غارودي**، كما يوحي هذا الدال الاجتماعي أيضا إلى أن الطرف الموجه إليه الخطاب هو محل تقدير واحترام وهذا المبدأ في التعامل أطلقت عليه **روبين لاكوف** " مبدأ التأدب في الخطاب "[55].

ويبرز الصنف الثاني من هذه الإشاريات الاجتماعية والمتمثل في العلاقة الحميمية في قوله:

« يسرني بعدما استمعت إلى ابنتي التي قدمتني إليكن، وعلقت على بعض الأفكار التي عرضتها في دراساتي، أنها ذكرتني بأشياء كدت أنساها فعلا ... »[56].

ويقول في موضع آخر:« **لقد ذكرنا لبناتنا في محاضرة سابقة –على ما أعتقد- أن طرح مشكلة المرأة في النشاط الإسلامي قد بدأ منذ العهد الذي نسميه (عصر النهضة الإسلامية)»**[57].

ويشير في موضع آخر بقوله:« **أرى هناك فائدة لابنتنا المؤمنة في الاطلاع على تلك الجوانب التي طرحناها في هذين الكتابين »**[58].

تحضر في هذه النماذج العناصر الإشارية الاتية:(**ابنتي، لبناتنا، ابنتنا** ...) وتحيل جميعها في هذه السياقات إلى طبيعة العلاقة التي تربط مالك بن نبي بالطالبات السوريات، إذ توجد عناصر مشتركة كثيرة تجمع بينه وبينهن وتتعلق تحديدا بوحدة المعتقد، واللغة، والمصير المشترك بالإضافة إلى القضية الجوهرية التي يدور حولها موضوع الخطاب.

وقد كشفت هذه الإشاريات الاجتماعية (**ابنتي، لبناتنا، ابنتنا** ...) عن مقاصد المتكلم الذي

كان يسعى لتقريب الطالبات السوريات منه، ليزيح كل الحواجز والفوارق الموجودة بينه وبينهن، فيتمكن من بعث روح الطمأنينة والثقة في نفوسهن، وهذا ما يساعد على إنجاح رسالته الإصلاحية.

ويدرج ليفنسون وبراون **P. Brown et S. Levinson** هذا الصنف من العلاقات ضمن استراتيجيات التأدب التضامني وهذه الاستراتيجية تعبّر عن « الصداقة الحميمية والانتماء إلى الجماعة وهي تتضمن التصريح والتأدب الإيجابي ... »[59]. ساعدت الإشاريات الاجتماعية على تحديد طبيعة العلاقة التي تربط المتكلم بالمخاطب، من حيث هي علاقة رسمية أو علاقة ألفة ومودة، وفي ضوء هذه العلاقة تتحدد مقاصد المتكلم وأهداف الخطاب، ونوع اللغة المستخدمة أثناء التخاطب، والإحاطة بكل هذه الجوانب يقتضي النظر في جميع العناصر التي يتشكل منها السياق الكلامي.

خاتمة

تخلص هذه الدراسة إلى الكشف عن تضافر الإشاريات الشخصية والمكانية والزمانية والخطابية والاجتماعية في إضاءة جوانب نحوية ودلالية وتداولية كثيرة من هذه المدونة اتضح ذلك فيمايأتي:

- عبّرت الإشاريات الشخصية عن مواقف مالك بن نبي وتوجهاته وأبانت عن مشروعه النهضوي، والأسس التي يرتكز عليها ، وتطلعاته المستقبلية لما يجب أن يكون عليه حال الأمة، باعتبار أن ذات المتكلم تشكل بؤرة مركزية في هذه الخطابات.
- الإحالة المستمرة إلى ذات المتكلم أسهمت بشكل واضح في اتّساق خطابات مجالس دمشق وانسجامها من خلال ربط أجزائها المتباعدة حتى أنها تبدو للقارئ نصا واحدا لا نصوص متفرقة .
- يتجاوز استعمال الإشاريات الشخصية في هذه المدونة القواعد الشكلية الصارمة للغة إلى فسحة القواعد التداولية الرحبة (فقد يدل ضمير الجمع على المتكلم المفرد).
- ساعدت الإشاريات الزمانية على تحديد زمان وقوع الأحداث والوقائع المخبر عنها بالقياس إلى لحظة التلفظ بالخطاب ويجري تقييد زمن الأحداث والموضوعات من منطلق أن المشروع النهضوي لمالك بن نبي مرتبط أساسا بالذاكرة التاريخية للأمة الجزائرية، وهي ذاكرة حية لا تموت بموت الأشخاص.
- قدمت الإشاريات المكانية للقارئ يد المساعدة للتعرف على مكان التلفظ، وتحديد المواضع التي تفاعل فيها شركاء الخطاب، ونلاحظ أن إدراك مالك بن نبي للمكان قد اقترن بأبعاد ذهنية شعورية وأبعاد حسية لأن المكان كما وصفه الدارسون علامة في سياق الزمن يستطيع منتج الخطاب أن يستحضر من خلالها تاريخه الشخصي.
- يعد التداوليون إشاريات الخطاب من خواص الخطاب وهي مؤشرات لغوية تبرز على مستوى البنية السطحية للملفوظ، لتحيل إلى موقف خاص بالمتكلم، وقد كشف هذا الصنف من الإشاريات على مدى تفاعل مالك بن نبي مع واقع بيئته.
- وتخضع الإشاريات الاجتماعية في هذه المدونة إلى عوامل سياقية ترتبط أساسا بعلاقة المتكلم بالمخاطب من حيث القرب أو البعد العاطفي ودرجة كل منهما في السلم الاجتماعي، ومقاصد المتكلم، وهوية المشاركين في الخطاب وانتماءاتهم المذهبية، كما تخضع لشرط الصدق الذي أقره غرايس ومبدأ التأدب الذي صاغته روبين لاكوف.

الإحالات والهوامش:

*- بارهيليل:اسمه الكامل "yehoshau bar-hillel"ولد يوم8سبتمبر 1915في فيينا ،وتوفي يوم 25 سبتمبر1975في القدس المحتلة وهو فيلسوف ولساني ورياضي يهودي الأصل، اشتهر أكثر بما قدمه من أعمال ودراسات في مجال الحقل التداولي وأبحاثه في مجال الترجمة الآلية. انظر الموقع الالكتروني:

https://fr.wikipedia.org/wiki/Yehoshua_Bar-Hillel

1- حافظ إسماعيلي العلوي: التداوليات علم استعمال اللغة ،منشورات عالم الكتب الحديثة، اربد الأردن،ط1،2011،ص 441.

2- المرجع نفسه، ص 441.

*- وردت هذه المعلومات ضمن الموقع الالكتروني https://www.goodreads.com

*- عمر كامل مسقاوي: . ولد عمر كامل مسقاوي في مدينة طرابلس لبنان و أتمّ فيها دراسته الثانوية ثم سافر إلى مصر لينال إجازة في الحقوق و ماجستير في اختصاص قضاء الأحوال الشخصية من جامعة القاهرة، و إجازة الشريعة الإسلامية من جامعة الأزهر. عاد إلى طرابلس لبنان في عام 1961 محامياً و ناشطاً حقوقياً، وتمّ اختياره وزيراً للنقل على مدى ثلاث حكومات حمله المفكر الكبير مالك بن نبي مسؤولية ترجمة ونشر أعماله،وقد قيد هذه الوصية في محكمة شرعية للاستزادة انظر الموقع الالكتروني https://ar.wikipedia.org/wiki/.

3- مالك بن نبي: مجالس دمشق، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2013، ص 14.

4- محمد أبو رمان: الإصلاح السياسي في الفكر الإسلامي، (المقاربات، القوى الأولويات، الاستراتيجيات)، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2010، ص 61، 62.

5- جورج يول: التداولية، ترجمة قصي العتابي، دار الأمان، الرباط، ط1، 2010، ص 27.

6- محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، د ط، 2002، ص 17.

7- محمد أبو رمان: الإصلاح السياسي في الفكر الإسلامي، ص 50.

8- مالك بن نبي: مجالس دمشق، ص 61.

9- عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، لبنان، ط1، 2003، ص 82.

10- داليا أحمد موسى: الإحالة في شعر أدونيس، دار التأليف للتكوين والنشر، سوريا، ط1، 2010، ص 39.

11- محمد أبو رمان: الإصلاح السياسي في الفكر الإسلامي، ص 53.

12- مالك بن نبي: مجالس دمشق، ص 51.

13- ينظر عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 292، 293.

14- جورج يول: التداولية، ص 31.

15- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب ، ص292.

16- المرجع نفسه، ص 292.

17- المرجع نفسه، ص 47.

18- مالك بن نبي: مجالس دمشق، ص 63.

19- تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، دط، 2001، ص 111.

20- مالك بن نبي: شروط النهضة ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر، دط، ، دت ، ص59.

21- محمد أبو رمان: الإصلاح السياسي في الفكر الإسلامي، ص 49.

22- مالك بن نبي: مجالس دمشق، ص 116.

23- سعيد حسن البحيري: دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة،مكتبة الآداب، القاهرة، ط 1، 2005، ص 89.

24- عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص83 .

25- عباس حسن: النحو الوافي مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة،دار المعارف بمصر، .ط3، دت ،ج1، ص 255.

26- ينظر سعيد حسن البحيري: دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، ص 98.

* يرى الدارسون أنه لا يوجد فرق بين الزمان والزمن فهما سيان في المعنى وهذا ما أكدته المعاجم اللغوية وخلافا لما ذهب إليه تمام حسان على أنه يوجد فرق بينهما للاستزادة انظر حنان موسى حمودة، الزمكانية وبنية الشعر المعاصر أحمد عبد المعطي حجازي أنموذجا ،عالم الكتب الحديث الأردن، دط، 2006، ص115

27- محمود عكاشة: النظرية البراجماتية اللسانية، دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، مكتبة الآداب القاهرة، ط1، 2013، ص 84.

28- تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص 240.

29- عمر بلخير: تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الجزائر،ط1، 2003، ص 81، 82.

30- مالك بن نبي: مجالس دمشق، ص .149

31- محمد أبو رمان: الإصلاح السياسي في الفكر الإسلامي، ص 61. وللاستزادة انظر نذير أبو المعالي: نقاط تقاطع في فكر مالك بن نبي وفكر مدارس الإصلاح في العالم الإسلام، مجلة دراسات إسلامية، مركز البصيرة، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، العدد 6، 2006، ص .117

32- محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص .20

33- مالك بن نبي: مجالس دمشق، ص 58، .59

34- قاسم أبو عين: شاهد القرن، مالك بن نبي 1905-1973، وقائع المؤتمر الدولي الثاني لكلية الآداب واللغات، جامعة جدارا، الأردن، ط1، 2002، ص .26

35- عمر بلخير: تحليل الخطاب المسرحي، ص81 .

36- مالك بن نبي: مجالس دمشق، ص .80

37- عمر بلخير : تحليل الخطاب المسرحي، ص86

38- المرجع نفسه، ص .81

39- مالك بن نبي: مجالس دمشق، ص .156

40- المبرد: المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت، دط، دت، ج4، ص .81

41- تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص .241

42- محمود عكاشة: النظرية البراجماتية اللسانية، ص 84-.85

43- محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص22،انظر:محمود عكاشة:النظرية البراجماتية اللسانية،ص 84.

44- ابن منظور: لسان العرب، [مادة جلس]، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، ص 141، مج 6، ص .40

45- مالك بن نبي: مجالس دمشق، مقدمة الكتاب، ص .15

46- جميل حمداوي: السيميوطيقا والعنونة، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج 25، عدد 3، يناير، مارس، 1997، ص .98

47- مالك بن نبي: مجالس دمشق، ص .77

48- حنان محمد موسى حمـودة: الزمكانية وبنية الشعر العربي المعاصر، عبد المعطي حجازي نموذجا، ص .23

49- محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص .24

50- محمود أحمد نحلة: المرجع نفسه، ص .24

51- مالك بن نبي: مجالس دمشق، ص .138

52- محمود أحمد نحلة: المرجع نفسه، ص .35

53- مالك بن نبي: مجالس دمشق، ص .73

54- طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1998، ص .240

55- مالك بن نبي: مجالس دمشق، ص .51

56- المصدر نفسه، ص .137

57- المصدر نفسه، ص 136.

58- عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 264.

إشكالية منظومة المناهج في دراسة النص الأدبي الشعبي

د. سمية فـــالق
قسم اللغة و الأدب العربي
جامعة عباس لغرور– خنشلة

الملخص :

تسعى الدراسة إلى تتبع منظومة المناهج التي تساعد الباحث على دراسة الخطاب الأدبي الشعبي دراسة نسقية تتوافق وطبيعة هذا النص، الذي يتسم بخصوصية لغته وإنتاجه. وهذا من خلال تطبيق منهجي على بعض صنوف الأدب الشعبي، والذي يشمل القصص الشعبي، والألغاز الشعبية، والأساطير، والأمثال الشعبية، والشعر الشعبي. منطلقين من أن قراءة النص الأدبي الشعبي تقع ضمن منظومة القراءات المتعددة التي حظي النص الشعبي بها جراء اهتمام وعناية الدارسين. تطرح الدراسة . جملة من التساؤلات نذكر منها: . إلى أي مدى يخضع النص الأدبي الشعبي لمختلف المناهج؟ وهل يمكن تحليل ودراسة هذا المتن الشفهي واستنطاق مكوناته؟ واستنادا إلى ذلك، يصل بنا الحديث إلى أن المنهج ما هو إلا تشكيلة من مناهج متعددة ، تشمل رؤى واتجاهات مختلفة، تستنطق النص الأدبي الشعبي جسدا وروحا.

الكلمات المفتاحية : النص الشعبي، آليات المنهج. المتن الشفهي.

ABSTRACT:

The study seeks to investigate the system of curricula, that help the researcher to study the popular literary discourse, from a systematic study correlating with nature of a given text, characterized by its language specificity and production. Through a systematic application to some types of popular literature, which includes popular stories, popular puzzles, myths, proverbs , and popular poetry . . . On the basis of text reading of the popular literary text which occurs within the system of multiple interpretations, the popular text has received interests from scholars and researchers . . Accordingly, this literature stands on theories , methods and concepts. To what extent is popular literary text subject to various school curricula?.

Does the approach represent a set of norm restrictions, which the popular literary text is subject to them? Is it possible to analyze and examine this oral substance and the questioning of its components? Accordingly, one could say that the approach is simply a variety of multiple methods, including different views and trends which questions the popular literary text in form and content ; not surprisingly, the application of different approaches to different literary popular texts to detect the text structure, considering that the text is not completely subject to the curriculum.

KEYWORDS : curricula, popular literary discourse.

توطئة:

تتسم مادة الأدب الشعبي بغناها وتنوعها، واتساع مجالها، وصعوبة مقارنتها، ناهيك عن رؤية كل باحث وتوجهه المعرفي، واختلاف أدوات البحث والمناهج، وهذا ما جعل موضوع البحث في الأدب الشعبي يطرح الكثير من الجدال والإشكالات النظرية والتطبيقية، خاصة فيما يتعلق بالمناهج المطبقة على نصوصه الميدانية، والتي تتسم أساسا بالشفاهية، التي تشكل منطلق البحث والدراسة، لأن اشتغال الخطاب الشفاهي يختلف عن اشتغال الخطاب المكتوب، وهذا ناتج عن طبيعة المجتمع، وعن طبيعة الثقافة السائدة فيه، والدور الذي يضطلع به السرد الشعبي بمختلف تشكلاته. «إن هذه الميزة والخاصة الفنية عقدت مجال البحث في الأدب الشعبي. حيث برغم توفر المادة واتساع دائرة الإبداع الشعبي. وغنى الممارسات الفكرية الشعبية، فقد بقيت مجهولة لدى كثير من الدارسين والباحثين وأن انتشارها بقي ضيقا ومحدودا، بل منحصرا بين أفراد فئة شعبية معينة.»[1]

إن هذا الأدب الذي أنتجه فرد بعينه ثم ذاب وانصهر في ذاتية الجماعة، والذي استطاع أن ينقل من خلاله آمال وآلام جماعة شعبية لها مستوى فكري وثقافي انعكس جليا فيما أنتجته، فشكلت بذلك رصيدا ثقافيا وأدبيا تناقلته وتوارثته الأجيال جيلا بعد جيل. ليطرح البحث في الأدب الشعبي والخوض فيه إشكالية لدى الباحث تنطلق من سؤالين اثنين يمثلان :

مبررات الدراسة وهما:

. ماذا ندرس؟ . كيف ندرس؟

ويترتب عنهما مجموعة من الأسئلة المنهجية الفرعية، والتي تشكل :

مشكلة الدراسة ، لتطرح الأسئلة المتمثلة في :

. إشكالية المادة وبالتالي كيف يمكن الحصول عليها، وفق منهجية سليمة متبعة لجمع المادة، وتحديد الموضوع تحديدا دقيقا.

. إشكالية دراسة وتحليل المادة، وبالتالي كيف يمكن دراسة هذه المادة دراسة علمية موضوعية بعيدة عن الاعتبارات الذاتية العرقية أو الاعتبارات السياسية الضيقة، وبلغة أخرى ما هي المنهجية السليمة المتبعة أو الممكن إتباعها لقراءة الأدب الشعبي؟ [2] من هذا المنطلق، تتحدد **أهداف الدراسة وأهميتها** في:

إنه رغم اختلاف الدراسات وتنوع الرؤى والمناهج والمقاربات والأهداف، إلا أن الأهمية تبرز في اعترافها بشيء اسمه الأدب الشعبي كموضوع يستحق الدراسة.

وعليه، تتحدد **منهجية الدراسة** بدراسة بعض صنوف الأدب الشعبي ، واستنطاق مادته ، وفق تطبيق منهجي يتوافق وطبيعة النص.

2ـ نظريات ومناهج ومقاربات في دراسة الأدب الشعبي:

يقتضي تحليل أي نص شفاهي وعيا بطبيعته **الابستيمولوجية**[3] "التي تستدعي اختيار أدوات إجرائية تنسجم وطبيعة النص، وتتوافق ومنهج التحليل، لنصل إلى نتائج تتوخاها الدراسة العلمية الجادة. وهذا ما يروم إليه«كل بحث علمي عبر تحديد مجاله وتحديد الأدوات والأجهزة المنهجية والصورية التي يعتمدها، إلى بناء نوع معين من المعرفة، وهذا الموقف الذي يمكن أن ينعت بأنه موقف أدري يقابله موقف آخر لا أدري AGNOSTICISM[4] ينكر إمكان التوصل إلى معرفة علمية للطبيعة أو الخصائص البشرية. »[5] وبهذا تتحقق معرفة علمية تتوخى الوصول إلى هدف

انطلاقا من ظاهرة سردية شفاهية. تحدد وفقا لاختيار القارئ للجوانب التي تطرحها الظاهرة الشعبية المدروسة. إذ« من الضروري للقيام بهذا البحث القبول منذ البداية(ولا سيما في البداية) بمبدأ حاصر يقي الباحث من تضييع الجهد وتوزيع اهتمامه في البحث عن عناصر متباعدة في نفس الوقت لأن عليه أولا أن يختار تموقعه بالنسبة للنص المقروء ونقطة انطلاقه في التحليل، هذا المبدأ النابع مرة أخرى من اللسانيات هو مبدأ الملاءمة. فلا توصف الوقائع المجمعة إلا من زاوية نظر واحدة، ولا يحتفظ بالتالي من كتابة الوقائع غير متجانسة إلا بالسمات التي تهم زاوية النظر تلك، في حين يقصي الباقي(وتسمى هذه السمات بالسمات الملائمة).»[6] وبهذه الطريقة يستطيع الناقد أن يستكنه دلالات النص ويستكشف بنياته الجمالية والشكلية، انطلاقا من أن النص الأدبي يستدعي المنهج النقدي.

أ/القراءة السيميائية للبنية السردية للقصة الشعبية:

تعد القصة أقدم الآثار الأدبية التي حفظتها ذاكرة الإنسان، وسارت معه من البدائية إلى الحضارة، خاصة وأن الإنسان بطبعه مفطور على الحكاية. فمن خلالها ينفس عن انفعالاته، ويسعد بمشاركة الآخرين له. فالقصة هي الموروث المتنقل من جيل إلى جيل آخر، ومن مكان إلى آخر. فمنذ أن وعى الإنسان ذاته واتصل بغيره، سرد وروى، وأشرك غيره من بني جنسه في سرد مامر به. فنقل مجموعة من الأحداث صورت التجربة الإنسانية التي عاشها ويعيشها، وبذلك تكون القصة متنفسا اجتماعيا له، لأنها «تراث ثمين يحمل في طياته صورا غنية ودلالات متنوعة عن تاريخه البعيد وعن تصوراته الذهنية الساذجة، وتعليله البدائي اللاعقلي للظواهر والوقائع»[7] فكانت القصة الشعبية شكلا من أشكال التعبير، تتبلور فيها أذكى نفحات المشاعر، وتتجلى فيها شتى النوازع والعواطف، من إنسانية، وقومية، وتاريخية، واجتماعية، ووجدانية.

فنقل الوقائع وحور فيها، وعاش جوا مليئا بالمتناقضات بين الواقع واللاواقع، وأختلق الأحداث وأحكم نسجها متفننا في حوار الناس الذين صنعوها واقعيين كانوا أم غير واقعيين، وذلك لكون« القصة الشعبية تحاول أن تعبر عن واقع نفسي في إطار وجود يحتمل أن يقع، وبتعبير أدق، فإن هناك واقعا نفسيا ليس من الضرورة أن يتحقق في عالم الواقع.»[8].

تمثل القصة الشعبية بأنواعها المختلفة ـ حكاية شعبية، وعجيبة ، وخرافية، ومرحة ـ عالما حكائيا قائما بذاته، له خصوصيته ومكنوناته ووظائفه وجمالياته أيضا. فالنصوص القصصية الشعبية التي أنتجتها العقلية الشعبية بفطرتها وبساطتها، ناقلة الواقع المعيش بطريقة حكائية سردية.

يستدعي البحث في الخطاب السردي للقصة الشعبية المنتج، والذي يتوفر على أركان الخطاب الأدبي المتمثلة في:(المُخاطِب، الخِطَاب، المُخَاطَبُ). من هنا تبحث «السردية تبحث في مكونات البنية السردية من راو ومروي ومروي إليه، ولئن كانت بنية الخطاب السردي نسيجا قوامه تفاعل تلك المكونات. أمكن التأكيد:أن السردية هي العلم الذي يعنى بمظاهر الخطاب السردي أسلوبا وبناء ودلالة. »[9]

إن البنية السردية الأولية للقصة الشعبية تلعب دورا أساسيا في حصر المعنى، خاصة عندما تتحدد وضعيات السرد بين وضعيات أولية، ووضعيات ختامية، بين هذين الحدين يتحدد ما

يسمى بالمحور السيميائي، الذي يتموضع بين بداية القصة ونهايتها. لتتمركز البنيات الأولية المنظمة للدلالة ضمن مجموعة من المحاور السيميائية تتحدد حسب المتن اللقصصي ـ الحكائي ـ فلو أخذت المتن القصصي الشعبي»**طامزة وسبع بنات**»، نجد :

1ـ المحور السيميائي :(اعتداء ـ عقاب)

يتحدد في :

أ ـ محور الاعتداء :

اتخذ شكل الاعتداء في القصة ممثلا في ظهور شخصية الجيران، وقرار شيخ القرية برحيل العائلة، ولعب هذا القرار دورا في تنغيص سلام العائلة، وتسبب في إلحاق الضرر بها. وتدخل القصة شخصية جديدة نستطيع أن نسميها المعتدي على البطل أو الشرير، وهي الشخصية الفعلية التي ألحقت الضرر بالبنات، هذه الشخصية التي جسدتها الغولة. خاصة عندما ألحقت الضرر بإحدى أخوات البطلة. هذا الاعتداء كان مصدره شخصية فعلية غيرت مجرى الحكي، لأنها أكسبت القصة حركية، مما ترتب عنه عقاب.

ب ـ محور العقاب :

ظهرت الشخصية المانحة في القصة دون سابق تمهيد، فقد ظهرت في طريق البطلة شخصية ساعدتها لتحاول دفع ضرر الغولة، وبالتالي زوال الشر، وخطر الشخصية الشريرة، وحصول البطلة على حاجتها والتي تمثلت في نجاتها والقضاء على الغولة التي لقت حتفها على يد الحيوانات ـ النمور ـ .

ويتخذ الاعتداء والعقاب أشكالا مختلفة في المتن القصصي الشعبي، فنجد في قصة" **عشبة خضار**" يتمظهر فعل **المعتدي** في خطف "**عشبة خضار**" وترحيلها إلى بلاد الغيلان بعيدا عن مسكنها وذويها.

أما رد الفعل عن **فعل المعتدي**، وهو ما يمثل **محور العقاب**، فلقد لقت الغولة المصير نفسه، لترحل ثم تحرق. وتلقى المصير الذي تستحقه.

إن المتأمل للمحور السردي السيميائي، يجد أن الحكي يبدأ من لحظة الفراق بين الابنة ـ(**عشبة خضار**) ووالديها، هذه النقطة التي مثلت لحظة الفراق بين البنت وعائلتها هي بداية انطلاق الحكي وتشعب الأحداث، ليخلق الابتعاد نسيجا سرديا متنامي الأطراف مثلته مختلف أحداث مجرى الحكي، والتي فتح الراوي السارد للقصة الشعبية سيرورة انفتحت بلحظة الفراق والابتعاد، فانحصرت دلالة النص الحكائي بين لحظتين: لحظة الفراق ، ولحظة اللقاء.

أما في قصة "**عكرك**" يختلف **محور الاعتداء والعقاب**، فيظهر الأول في محاولة المعتدي خداع ضحيته للتمكن منها ومن أملاكها، فيلجأ **عكرك** في كل مرة إلى خداع الغولة، والتي استعملت بدورها أساليب خداع ومكر للتخلص من **عكرك**. أما الثاني فيظهر في خوض البطل صراعا ضد المعتدي. فالصراع بين **عكرك والغولة** هو صراع من أجل إصلاح، وتحقيق الغاية المنشودة، مستعملا الحيلة والفطنة، ولم تعاقب الشخصية الشريرة بموتها، بل بالهروب.

وبذلك تعاقب الضحية في المتن القصصي الشعبي المعتدي، إما عقابا مباشرا من قبلها، وإما يظهر شخص آخر في مجرى الحكي ينوب عنها في العقاب. وقد يلقى الصفح في بعض منها.

وقد يتخذ ـأيضاـ العقاب شكل استرداد، حيث تحاول الضحية استرداد ما سلب منها بالقوة من طرف المعتدي.

2 ـ **المحور السيميائي (قوة/ضعف) و(غنى/فقر):**

إن المحاور الدلالية(**قوة/ضعف**)، (**غنى/فقر**) هي محاور مهيمنة على المتن القصصي الشعبي، هذه المحاور تنتظم وفق دلالات سردية مختلفة تحدد الفعل ورد الفعل، فتشكل البنيات الأولية للقصة الشعبية، والتي تسعى لتحقيق أهداف واحدة نجدها مسطرة بانتظام في مجرى الحكي في القصص الشعبي.

فإذا تأملنا قصة "**الوصية**" نجد أن المحور السردي ينتظم بين لحظتين: مثلت اللحظة الأولى بالوصية وهي الفعل المجسد في قول الراوي :« **كان راجل عندو باباه مريض، ويجيو عندو ماليه يزوروه ، واحد الخطرة حس بروحو راح يموت عيط لولدو يوصيه**...» وأما اللحظة الثانية، فمثلت بتنفيذ الوصية وهي رد الفعل، وجسده في النص "**قالوا ياولدي نخليلك وصاية ماتحلف ما تحضر لي يحلف**..."هذان المحوران الدلاليان شكلا البنية السردية للقصة.

ويتجسد المحور السيميائي (**قوة/ضعف**) مندمجا مع محور سيميائي آخر هو(**غنى/فقر**). يرتبط محور الغنى بالقوة، ومحور الفقر بالضعف. فعند امتلاك القوة يتحقق الفعل الممثل في فعل الاعتداء والعقاب. وهما من نصيب الضعيف الفقير. وتجلى ذلك واضحا في قصة "**الخيان الزوالي والمركانتي**".

ونسجل حضور **محور(غنى/فقر)**بشكل كبير في القصص الشعبي. إذ يشتغل المحور السردي على عنصر الانتقال من حالة إلى حالة أي من حالة أولية اتسمت أساسا بالإحساس بالنقص، إلى حالة ثانية محولة عن الأولى، وسمتها تحقيق الطموح والوصول إلى الغاية. فزواج الفقير من بنت السلطان، أو زواج الفتاة الفقيرة من ابن السلطان. ويشكل الفقر دافعا إلى الانتصار على الغيلان وعلى الظروف القاسية. كما يلعب الحصول على الكنز دورا فعالا للانتقال من حالة إلى حالة.

ما نلحظه أن المحاور الدلالية المذكورة إلا على سبيل التمثيل، فقد نجد محاور دلالية أخرى تتداخل في مواطن كثيرة ومختلفة من القصص الشعبي ، ولا تلتزم بالحفاظ على حدودها الواضحة، وما مرد ذلك إلا لخاصية التداول الشفوي الذي يتمتع به المتن القصصي الشعبي.

ـب/ بروب والمنهج المورفولوجي والقصة الشعبية:[10]

اختار(**فلاديمير بروب**) للقيام بتحليله الشكلاني -الوظيفي من الحكايات الشعبية الروسية- ، وقطعها إلى أجزاء مقارنا بينها، وباحثا عن علاقاتها بعضها ببعض، وبمجموع الحكاية كي يصل إلى تشكيلاتها الصرفية. إن التحليل الوظيفي الذي وضعه (**فلاديمير بروب-Vladimir Propp**)- اعتمد فيه على الوصف الدقيق لبنيات الحكي الداخلية، وأبرز العلاقات التركيبية والمنطقية القائمة بينها، ثم الوظائف المعتمدة لعناصر الحكي، وسار على نهجه ودربه (**رولان بارث-R. Barthes**) و(**غريماس – Greimas**)، وغيرهما فعدلوا، وأضافوا، وطوروا منهجه المورفولوجي. والذي ينطلق من ضرورة دراسة الحكاية اعتمادا على بنائها الداخلي، أي على دلائلها الخاصة وليس اعتمادا على التصنيف التاريخي، أو التصنيف الموضوعاتي اللذين قام بهما من سبقه في البحث.

ويشير (**فلاديمير بروب**) إلى مثال واحد لهذه التيمات التي تتكرر بأشكال مختلفة في عدد كبير من تلك الحكايات.

لقد أثبتت الدراسات أن منهج (**بروب**) يعد إنجازا نقديا لتحليل القصص، فمن خلاله يتم التوصل إلى البنية القصية بتفكيك وحداتها، ومن ثم الكشف عن علاقات الربط بينها وبين وظائفها التي تؤديها في نظام الحكي، وعليه فمنهج (**بروب**) قائم على قاعدة نصية يجسدها ذلك الشكل الحكائي. [11]

إن القصة الشعبية تكشف كما هائلا من الترسبات الثقافية والحضارية والإنسانية أيضا، هذا النظام الذي يحكم التفكير الإنساني إزاء الوجود الإنساني في علاقة الإنسان بكل ما هو موجود في الطبيعة ، لأجل ذلك أمكن تطبيق منهج الوظائف السردية على المتون الحكائية للوصول إلى الكشف عن السلسلة الوظيفية وتركيبها في النص القصصي الشعبي.

والذي نصل إليه ، ـ من خلال ما سبق ـ أن ما قدمه (**بروب**) يشكل مادة خاما، ذات رؤية منهجية لدراسة الوظائف السردية. خاصة وأنه يؤكد على إمكانية الوصول إلى تعليمات في دراسة الحكاية، وحتى تستكمل الدراسة جوانبا سكت عنها منهج (**بروب**)، وجب الاستعانة بمناهج أخرى لإبراز مميزات النص وأهدافه، فمثلا يتيح منهج (**بارت**) لتحليل النص عدة مزايا نذكر منها:

-1- هذا التميز بين نوعين من الوظائف يتيح بعض المرونة لعملية قراءة النص بين عناصره الثابتة والمتغيرة.

-2- اتكاؤه على أساس ألسني بجعله مناسب للتطبيق. [12]

من هنا يمكن القول أن تضافر المناهج يعمل على إضاءة جوانب عديدة في النص القصصي، وهذا-طبعا- من دون إرباك في الرؤية المنهجية الأساس للبحث، وإنما هو توضيح لجوانب نصية سكت عنها المنهج الأصل.

يبدأ (**بروب**) بسرد الوظائف وتصنيفها، ثم يقوم -قبل ذلك- بعرض الوضع الأول للعائلة التي يكون البطل أحد أفرادها، فيذكر اسم البطل ويصف حالته، هذا الوضع يمثل وضعا تركيبيا مورفولوجيا يهيئ ذهنية المتلقي للوظائف الأساسية التي سينهض بمهامها البطل في الحكايات. فالحكاية -عادة- تبدأ بنوع من الاستهلال، رغم أن هذا الأخير ليس وظيفة، إلا أنه عنصر مورفولوجي هام [13] . بعدها تبدأ أول الوظائف بمغادرة أحد أفراد الأسرة مثلا للعمل أو التجارة أو الحرب... وتتوالى وظائف السرد إلى غاية الوصول إلى عقد الحكاية ثم حلها. ويضع (**بروب**) للافتتاحية رمزا خاصا بها لكونها ليست وظيفة. لأنها تدخل في باب القيم المتغيرة. وكل ما يتعلق بالشخصية يدرج ضمن ما يتغير من القيم السردية. لكن ما نركز الحديث عنه هو الوظائف باعتبارها قيمة ثابتة يتواتر حدوثها من خلال أزمنة مختلفة وعند شخصيات متباينة وأوضاع خاصة متغيرة.

من هذا المنطلق عكف (**بروب**) على إضفاء نعوت وصفات على شخصياته، كأن تكون الأميرة دائما ذات شعر ذهبي، أو وسامة البطل وشجاعته، واقتران شخصيات المعتدي بقبح المنظر والهيئة. . . هذا كله يهيئ الإمكانية لقيام دراسة مورفولوجية للحكاية الخرافية.

من هذه المعطيات بدأت أعمال (**بروب**)، وقامت دراسته المورفولوجية للحكاية اعتمادا على بنائها الداخلي، وعلى دلائلها (**Signes**) وعلى ما تقوم به الشخصيات أيضا.

تبدأ القصص الشعبية في نمطها الذاتي بإطار خارجي يقود زمامه الراوي العليم الذي يصرح بعلمه

للأحداث ولمجرياتها. وتلعب الجملة الافتتاحية الوضع الأولي للقصة، ولوضعية الشخصية الرئيسة في القصة وإطار تحركها. كما ورد ذكره في الافتتاحيات المختلفة للقصص الشعبي من نحو «**كان في واحد لبلاد...**" "**... كان في واحد الدوار...**"**زمان كانوا الناس قبائل رحالين...**"**كان يا مكان، كان السلطان، ما سلطان غير الله.**

وتحدد الوضعية البدائية للقصة والبطل والأحداث، إما بذكر زمن الإحداث ، كما نجده في قصة : " **لدمية مع عبد البهلول أعبد المزراق** ".

وعن قصة «**هارون الرشيد**» فقد حدد الزمن كالآتي:» هارون الرشيد هذا رزقوا رب العالمين بخير كبير، لكن رب العالمين أرسل له ملك قالوا عندك خمس سنين تذوقهم في البؤس والحرمان، تحب ايجوك في آخر الزمان، ولا تحب ايجوك في الصغر، خمم أو قيس أو قال ذرك أنا نخليهم أيجيوني فالكبر لكن الكبر نتعب بزاف، يلزمني نفوتهم في الصغر، قالوا لا لا نفوتهم في الصغر. . . "

أو المكان الذي جرت فيه من مثل :قصة "**قديدش**" :"قالك كان راجل يصيد الحوت من البحر هذي هي لمعيشة نتاعو..."وفي قصة"**الرهابنة** " حدد المكان أيضا كالآتي: «الرهابنة هاذو صوالح قليل وين يبانو لبنادم، ويا سعد اللي بانولو، كيما واحد الفقير كان يعيش هو ومرتو مزيرية كبيرة، راح للعرقوب يحفر فيه، باه يسقفوا ويسكن. . . »

أما عن المقدمة الاستهلالية، فيمكن اعتبارها عنصرا ثانويا في القصة، لهذا لم يجعلها **بروب** من ضمن الوظائف السردية في القصة،لذا من المستحب أن تتسم المقدمة بالإيجاز والاختصار. وبعد أن يمهد الراوي للقصة، يقوم بسرد الوظائف على النحو الاتي:

1ـ الوظائف: أشكالها ودلالاتها:

1ـ التحليل المورفولوجي:

أ/- البداية الإستهلالية:

-الأسرة تتكون من الزوج والزوجة والبنات السبع.

ب/-البداية التمهيدية: وتحتوي على الوحدات الوظيفية التالية:

1-وظيفة النأي-الرحيل-éloignement-(الوظيفة 1)، وتمثلت في تغيب أحد أفراد الأسرة عن البيت وهو موت الأب، والذي مثل موته رحيلا حتميا.

2-وظيفة منع-interdiction-(الوظيفة2) ، حدث المنع بشكل عكسي، وهو اقتراح البطلة–البنت الكبرى- يرعي النعاج بدلا عن والدها المريض.

وتعرض بقية القصة اختلال توازن الوضع الأصل، إذ يبرز عدم التوازن في رحيل الأب، وعليه تحرم العائلة من سندها.

3-وظيفة خرق- transgression -(الوظيفة3)، وتمثلت في ظهور شخصية الجيران وقرار شيخ القرية برحيل العائلة، ولعب هذا القرار دورا في تنغيص سلام العائلة، وتسبب في إلحاق الضرر بها. وتدخل القصة شخصية جديدة نستطيع أن نسميها المعتدي على البطل أو الشرير -l'agresseur- وهي الشخصية الفعلية التي ألحقت الضرر بالبنات، هذه الشخصية التي جسدتها الغولة.

4-وظيفة استخبار- interrogation -(الوظيفة4) يظهر هذا الاستخبار بشكل عكسي، تجسد في طرح الضحية (البنت الكبرى وأخواتها)أسئلة على المعتدي (الغولة)، واتجه الجواب من المعتدي إلى الضحية، ويكون الإطلاع للضحية لا للمعتدي.

5-وظيفة خداع -tromperie- (الوظيفة5) يحاول المعتدي أو الشرير (الغولة) خداع الضحية للتمكن منها، والظهور بمظهر عادي وهو انقلاب الغولة

وتنكرها في شكل عجوز طيبة. ومحاولة استعمالها لأساليب سحرية للتمكن من الضحية (إعداد الطعام بعظام البشر).

6-وظيفة إساءة -méfait-(الوظيفة8) يضر المعتدي بأحد أخوات البطلة ويلحق بها أذى(البنت الصغرى).

لهذه الوظيفة أهمية كبرى لأنها تكسب القصة حركيتها، إذ الوظائف السابقة (الرحيل، المنع، الخرق، الإطلاع...) ليست سوى تمهيدا لهذه الوظيفة. لذلك تشكل وظائف تمهيدية، بينما تحبك العقدة حال حدوث الإساءة.

وتمثلت وظيفة الإساءة في إلحاح الغولة في طلب الضحية(البنت الكبرى وأخواتها)، إذ قامت بترديد مقولتها «مَلِحِي إِعَكَّل وِيشكَّل»، للإيقاع بهن .

7-ظهور الشخصية المانحة (وظيفة11) إذ ظهرت في القصة دون سابق تمهيد، فقد ظهرت فجأة في طريق البطلة –البنت الكبرى وأخواتها- هذه الشخصية التي ساعدت البطلة لتحاول دفع ضرر الغولة وبالتالي زوال الشر. (قرية النمور، وتقديم النمور العون لهن).

8-زوال خطر الشخصية الشريرة ، وحصول البطلة على حاجاتها (وظيفة19) والتي تمثلت في نجاتهن والقضاء على الغولة.

9-البطلة وأخواتها يتخذن طريقهن إلى بلدة أخوالهن شاكرين الله على سلامتهن (وظيفة20).

إن التحليل المورفولوجي لقصة «**طامزة وسبع بنات**» يبيّن أنها تتألف من وحدات وظيفيّة مثّلتها الوظائف الآتية:

1- وظيفة نأي- رحيل-éloignement.
2- وظيفة منع – interdiction.
3- وظيفة خرق -transgression.
4- وظيفة استخبار –interrogation.
5- وظيفة خداع –tromperie.
8- وظيفة إساءة -méfait.
11- وظيفة ظهور الشخصية المانحة
19- وظيفة زوال خطر الشخصية الشريرة وحصول البطلة على حاجياتها.
20- وظيفة الإنقاذ –اتخاذ البطلة طريق العودة.

ما نلاحظه في هذه القصة، أن البطلة لم تستعن بأي قوة سحرية في سبيل تحقيق غرضها، بل استخدمت العقل والحكمة. لتضع الأمور في نصابها، وتجسد ذلك جلياً في ظهور الشخصية المانحة(النمر) وتقديمه المساعدة، وبالتالي الإنقاذ والنجاة من الشخصية الشريرة(الغولة).

إن المنطلق في دراسة القصص الشعبي، يبدأ من الوصف والسرد. وقد تتعدد الأهداف بحسب طبيعة النص القصصي، وهنا يلعب الراوي دور المفسر والموضح لما توفرت عليه القصة من رموز وغيرها. فالقصة تتضمن مجموعة من الأحداث، تبدأ من وضعية الاستهلال ثم تتطور الأحداث لتصل إلى الحبكة، ثم حلها لتعرض بعدها خاتمة القصة. ثم يأتي دور الراوي المفارق لمرويه للتفسير والتوضيح واستخلاص العبر، والوصول بالقصة إلى أبعادها المطلوبة.

وعليه سوف تمكن الدراسة الوظائفية للقصة من تكوين تصور واضح، ومن تحديد الوظائف السردية التي يتضمنها القصص الشعبي الموضوعي. وندلل على ذلك بقصة«**السلطان ونسوانو الثلاث**»:

أ/-الوظائف:أشكالها ودلالاتها:

وتحتوي على الوحدات الوظيفية الآتية:

- الوظيفة(8أ) إذ يفتقر السلطان إلى شيء غير مألوف لكنه عديم المفعول السحري وهذا ما سمعه من النسوة الثلاث.

- الوظيفة(5) الشخصية الشريرة تتلقى معلومات عن ضحيتها، إذ يستدعى الستوت من قبل زوجات

السلطان لتتلقى مرة أخرى معلومات عن حمامة، وأخرى عن الولد الذهبي والبنت الفضية.

- الوظيفة(6) الشخصية الشريرة-ستوت أم الهوت-تتمكن من خداع زوجة السلطان-حمامة- وتتمكن من خطف المولودين.

- الوظيفة(7) البطل الضحية يستسلم لخداع الشخصية الشريرة، وبهذا يساعدها بدون قصد منه في تحقيق أغراضها. فلقد خدعت الستوت-حمامة- أثناء الوضع. واستسلام البنت الفضية أيضا لخداع الشخصية الشريرة.

- الوظيفة(8) الشخصية الشريرة-الستوت-تسبب الأذى لزوجة السلطان-حمامة- ومعاقبتها من طرف السلطان.

وهنا تنشأ الحركة الحقيقية.

- الوظيفة(09،10) البطل يعتزم الوصول إلى ضالته، وتمثل ذلك في عزم الولد الذهبي الحصول على ماء الفضة، وولجة بنت الغول، والطائر الذي يغني وترد عليه أجنحته.

- الوظيفة(11) يترك الولد الذهبي أخته وقصره، ويخرج للمغامرة من أجل هدف واضح،وهو الحصول على المطلوب.

نشير إلى أن ظهور الشخصية المانحة في القصة جسدها الوالد الذي قدم الغصن للطفل الذهبي ليحقق أمنيته في الحصول على قصر مماثل لقصر السلطان. وهنا ندمج الوظيفة(14)في حصول الولد الذهبي على الغصن. ويمكن اعتباره الأداة السحرية.

- الوظيفة(15) ينتقل البطل إلى عالم مجهول، حيث تكون حاجته، فلقد انتقل الولد الذهبي إلى عوالم مجهولة.

- الوظيفة(16) مقابلة البطل للشخصية الشريرة، حيث يلتقي الولد الذهبي بالستوت وزوجات السلطان.

- الوظيفة(19) البطل يهزم الشخصية الشريرة. إذ استطاع الولد الذهبي أن يفضح ويهزم مكائد الستوت وزوجات والده السلطان، ويفضح أمرهم جميعا.

-الوظيفة(27، 26، 25) كلف الولد الذهبي بمهمات عسيرة التحقيق، ولكنه ينجح في أدائها، ويحصل على المطلوب، ويذيع سيطه وشهرته، وعند ذاك يكون التسليم ببطولته.

- الوظيفة(30) الشخصية الشريرة تعاقب، بعد افتضاح زوجات السلطان والستوت، يقرر السلطان معاقبتهم وإرسالهم إلى ذويهم.

- الوظيفة(31) يعود البطل وأخته وأمه ليعيشوا في قصر السلطان، وينعم الجميع بالفرح والسعادة.

نلاحظ أن هذه القصة مزجت بين العديد من الوظائف التي تحركت في نطاقها، فلقد شملت عناصر أساسية لعبت دورا في تتابع الحركات والأحداث، إلى جانب عناصر فرعية، إلا أن أهميتها كبيرة في السرد، وهذا اعتمادا على عنصر الاستخبار.

لقد تجسدت موضوعية القصص الشعبي في جعل التركيز ينصب على طابعها الرمزي حتى نصل إلى المغزى. فالحكي ينشأ عن فعل متغير تقوم على أساسه استجابات مختلفة تصل بالحدث إلى الحبكة ثم إلى الحل، وبالتالي تحديد المغزى، والهدف من القص.

إن الوظيفة عند (بروب) تتحدد دلالتها من خلال السياق الحكائي العام، وفق نظام ثابت يسمح بتوزيع الوظائف بين الشخصيات وفق نسق متتالي.

وعليه فلقد أثبتت الدراسات نجاعة منهج (بروب) لتحليل النصوص السردية الشعبية، بتفكيك وحداتها والكشف عن العلاقات الرابطة بينها، والوظائف التي تؤديها، وذلك للكشف عن السلسلة الوظيفية وتركيبها في النص القصصي الشعبي.

لقد أثبتت دراسة أنماط الوظائف في القصص الشعبي الذاتي والموضوعي صلاحية منهج (بروب) فمن خلال تحليل النماذج تبين أن القصص الشعبي بنوعيه مكون من وحدات وظيفية تختلف بحسب متن الحكاية؛وتختلف الوظائف أيضا بحسب طول القصة، مما يسهل دخول وظائف سردية مختلفة تبين النسيج القصصي المكون من مجموعة أحداث لتصل إلى الحبكة، ثم حلها.

1ـ الشكل القصصي في ضوء النموذج العاملي:

يستجيب الشكل القصصي في ضوء النموذج العاملي بدرجات متفاوتة، ففي بعضها يسهل تحديد العوامل وضبط العلاقات بينها، وبعضها يحتاج إلى روية وحذر لتعدد الممثلين، وتشابك الأدوار، وتقاطع البرامج السردية. ولنأخذ نموذجا لقصة"**الولي الصالح:سيدي بلفضل**":

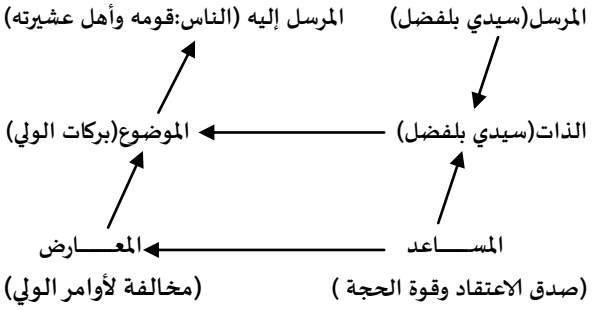

وبالرغم من انضباط القصص الشعبية للنموذج العاملي، لكنها لا تبرر كل التحولات التي تعرفها القصص وعدد البرامج السردية التي يمكن أن تتعايش داخلها، تلك البرامج التي تؤهلها للاشتراك في بناء شامل منظم تبعا لكل برنامج سردي، والذي يشتمل منطقيا على أربعة أطوار يدعو بعضها بعضا هي:

التسخير(التحريك)manipulationالأهلية competenceالإنجازperformance-الجزاء Sanction[14].

ففي قصة"**لونجة**"عملت الغولة على تحريض الأولاد على قتل أمهم بجمع العقارب، ووضعها في كيس، ولجوئها في كل مرة إلى حيلة للقضاء عليهم بمساعدة المدبر. وعليه فتعدد التسخير يترتب عليه تعدد البرامج السردية، وتعدد العلاقات بينها. وتعدد التسخير يترتب عليه تعدد الإنجاز.

ويتوقف التأهيل على أمور هي:وجوب الفعل، ومعرفة الفعل، والقدرة على الفعل، وإرادة الفعل. فشخصيات القصص" **أحمد الناقص**"و"**بوهزقن**" و"**ذياب الفرطاس**"... هي شخصيات تمتلك الحكمة، والقدرة على فعل ما هو ضروري. وتوفر الأهلية يجعل العمل الإنجاز متحققا. فقد يكون مكافأة، وقد يكون عقابا. ويفهم من طبيعة الإنجاز المحقق، والذي يشكل الذات الفاعلة.

نشير إذن ـ إلى أن الخطاطة السردية الناظمة لتشكل القصص السردي الشعبي تتبدى في صورة أو أخرى تبعا للدورة السردية.

ـ خلاصة:

يمكن لنا رصد أهم نتائج الدراسة والتي نذكر منها:

ـ تتميز البنية السردية للقصة الشعبية ببنية ديناميكية غير موحدة بين نصوص المتن الحكائي المروي، ولا تنفصل البنى السردية عن التركيب السردي.

ـ تستجيب القصة الشعبية لمكونات النموذج العاملي بدرجات متفاوتة، ففي بعضها يسهل تحديد

العوامل وضبط العلاقات بينها، وبعضها يحتاج إلى روية لتشابك الأدوار، وتقاطع البرامج السردية.

- يسمح تطبيق منهج الوظائف السردية على المتن القصصي الشعبي بالوصول إلى الكشف عن السلسلة الوظيفية لتركيب النص الشعبي.

- وجوب مراعاة السمة الشفوية للنص الشعبي عند تحليله تحليلا سيميائيا.

- تتحدد البرامج السردية بحسب المتن القصصي الشعبي.

- تكشف القراءة السيميائية والمقاربة المورفولوجية عن البنيات الدلالية الأساسية المكونة للنص الشعبي، وفحص ما أمكن من مكوناته ووظائفه.

جـ/المنهج النفسي ومواد التراث الشعبي:

تعتبر نظرية التحليل النفسي من النظريات التي يعتمد عليها الفولكلوريون، خاصة وأنها تتبع منهج الرمزية لتفسير مواد التراث الشعبي.

تبنى الكثير من الدارسين **المنهج الفرويدي**، أي أن دراستهم للموروث الشعبي تستند إلى أسس نفسية. فلقد استبدلت تفسيرات التحليل النفسي للأساطير والحكايات الشعبية رمزية ظواهر الأجرام السماوية برمزية جنسية. فنجد" **كارل أبراهم**" «KARLE ABRAHEM» في كتابه"الأحلام والأساطير" «Dreams And Myths»يفسر أسطورة بروميثيوس الخرافية بأنها إعلان عن قدرة الذكورة على الإنجاب بوصفها أساس الحياة بكافة أنواعها.[15] ويضيف "**كارل أبراهم**" أن الحكايات الشعبية والأساطير الخرافية التي كانت قد فسرت من قبل بأنها تصور معركة سماوية، والصراع بين الشمس والليل، بين العاصفة الرعدية وسماء الصبح، أصبحت تفسر برموز جنسية. ويضيف «**فرويد**» في كتابه «تفسير الأحلام»«**Interpretation Of Dreams**»والذي لم يكتف فيه بتفسير الأحلام على أنها رموز ورغبات ومخاوف مكبوتة لجنسية الطفولة، وإنما بالاعتماد على المعنى الحرفي لها، فكانت كل صورة تستبدل العناصر الصورية بكلمة أو بمقطع بالمعنى الحرفي. فتفسير الأحلام يعتمد على المعنى الحرفي لها.[16]

إن مظاهر الحلم ماهي إلا لحظات اللاوعي المتخفي في ذاكرة الطفولة. ويفسر «**كارل أبراهام**» ذلك بقوله: «إن الحلم هو بمثابة الأسطورة عند الفرد، فالميكانيزمات السيكولوجية التي تعمل في الأحلام هي نفسها التي تعمل في الأساطير الخرافية، وقد أخضعت لنفس الأسلوب في التفسير,فإذا كان الحلم يكشف عن الرغبات الطفولية عند الكائن البشري، فالأسطورة الخارقة تفصح عن مشاعر الكبت النفسي المتكونة في مرحلة طفولة العرق **race**».[17]

ووجد «**فرويد**»في أسطورة «**أوديب**»نموذجا للأسطورة الخرافية التي تكشف عن تلك الرغبات والدوافع الكامنة داخل النفس الإنسانية. فالطفل الذي يعشق أمه جنسيا أو يشعر نحوها شعورا جنسيا، ولهذا تشتد غيرته من والده ليصل الأمر به إلى الحلم بقتله. كل ذلك ماهو إلا تعبير عن حالات اللاشعور، أو ماسماه «**فرويد**»بالعقل الباطن ، والذي هو مصدر عملية الإبداع ، وهو المنطق الذي بنيت عليه دراسة التحليل النفسي للتراث الشعبي، فكل نتاج أدبي إنما هو صورة لتلك الدوافع الإنسانية المكبوتة. فينصب الأنا الأعلى رقيبا لهذه الرغبات لتظهر في الأحلام والأساطير في ثوب رمزي.[18]

أما «**كارل يونغ**» فينطلق من فكرتين أساسيتين هما :" **النماذج العليا**"و "**اللاشعور**

الجماعي". أما الفكرة الأولى»فهي صورة ابتدائية لاشعورية أو رواسب نفسية لتجارب ابتدائية لاشعورية، لا تحصى، شارك فيها الأسلاف في عصور بدائية وقد ورثت في أنسجة الدماغ بطريقة ما، فهي ـ إذن ـ نماذج أساسية قديمة لتجربة إنسانية مركزة، وهذا مبنى على فكرة عن «**اللاشعور الجماعي**»الذي يختزن الماضي الجنسي في رمزية تتجاوز حدود الزمان غير أنها مألوفة نسبيا وهي رمزية ما تزال تتكرر أبدا.»[19]

تشكل الرواسب الإنسانية النفسية النماذج العليا، والتي خزنت تجارب الإنسان البدائية، وكل تلك الميول الكامنة في اللاشعور. هذا المخزون إنما هو ـ في حقيقته ـ مجموعة القوى والدوافع المستمدة من مختلف التجارب الإنسانية البدائية الموروثة، وكل ما يرد إلى نسيج شعبي.

إن «**كارل يونغ**»في تفسيره للأساطير والحكايات الخرافية يتبع منهج الرمزية الفرويدية، لكنه يستبدل العبارات الجنسية الواردةعند «فرويد» الذكر/الأنثى... بعبارات ميتافيزيقية: الشعور/ اللاشعور، الحياة/الموت، والله/الشيطان... ومع ذلك يبقى المنطق هو اللاشعور. فنجده مثلا ـ في مقالته المعنونة بـ "**عن سيكولوجية شخصية المخادع**" «يحلل شخصية المخادع ، على أنه إله، وحيوان، وإنسان جميعا في شخص واحد، فهو دون البشر وفوق البشر، وهو حيوان واله في نفس الوقت، ويتميز بصفة رئيسية باللاشعورية والافتقار إلى المنطق. فأسطورة المخادع تترجم المستوى الفكري والأخلاقي المنحط القديم الذي كان موجودا قبل ظهور الإنسان الذي بلغ درجة عالية من التقدم، فالإنسان المتحضر قد نسى المخادع، الذي لايفتأ يعاود الظهور ... »[20] .

إن منهج التفسير النفسي للأدب، يختص بتحليل اللاشعور، لأن العمل الأدبي ما هو إلا مجموعة من الرغبات المكبوتة في لاشعور الأديب. لذلك «يمكن اعتبار النصوص الأدبية الشعبية ، والتي هي من إنتاج الوعي الجمعي(أساطير، حكايات خرافية، شعر...)تداعيات تكشف عن اللاشعور الجمعي في صور الأساطير والأحلام التي هي صور جماعية مكافئة لأحلام الفرد، وهي الصور التي تعبر عن حنين دفين(اللاشعوري) من الإنسان إلى العالم البريء الساذج، أو الإنسان الحيواني في مرحلته الطبيعية، مثال(أنجيدو في ملحمة جلجامش، صور مسخ الحيوان إلى إنسان...)أو هاجس الموت عند الإنسان الأول وصور اللاشعورية لتغلب عليه، ورغبة الإنسان إلى الحياة الخالدة(عشبة الخلود جلجامش، التفاح الذي يفوح ويجدد الشباب في الحكايات العجيبة) ورغبة الإنسان في الكمال والخوارق الطبيعية والخوف من شرور الطبيعة وغير ذلك من المشاعر الإنسانية الدفينة منذ طفولة البشرية. »[21]

ولعلنا نستدل على ما سبق ذكره، بحكاية من تراثنا الشعبي وهي حكاية(**بقرة ليتامى**)، محاولين الاستفادة من النظرية النفسية (نظرية يونغ في النمط الأصلي).

تجسد الحكاية صراعا نفسيا بين نمطين : النمط السلبي والايجابي للنموذج الأصلي الموروث للأم الكبرى، والحكاية مبشرة بانتصار النموذج الإيجابي : التخلص من عقدة الأم التي تسيطر علينا وتظل في أعماق لاشعورنا، والاستقلال من طرف الأخوين اليتيمين، كما مثلت البنت الشوهاء النموذج السيئ للارتباط بعقدة الأم ونتائجه السلبية.

ونفصل حديثا بقولنا: نجد جانبين مختلفين للنمط الأصلي بميزان هذه الحكاية:

ـ الأم الأصلية: وهي نموذج ذو وجهين، وجه إيجابي ، تمثل في الأم الضحية، ووجه سلبي تمثل في زوجة الأب الشريرة.

فالأم الضحية تجلت في نبعين من عسل ولبن يغذيان الطفلين المحرومين من الغذاء من طرف زوجة الأب الشريرة، ثم في شكل بقرة حنون تسقيهما لبنا.

ـ أما الوجه السلبي للنموذج فقد تجلى في التآمر والحرمان من الغذاء. كما تجسدت إيجابية وسلبية النمط الأصلي، فالأثر السلبي والايجابي للأم الكبرى يظهر في الجمال /القبح، فأثر الوجه السلبي للنموذج تظهر آثاره في قبح البنت (العوراء) ويظهر الوجه الإيجابي في جمال الأخوين اليتيمين .

كما أبرزت الحكاية ملمحا آخر للنموذج في حالتي السلب والإيجاب تمثل في الاستقلالية عن الأم ومصارعة الحياة اعتمادا على الذات لدى الأخوين اليتيمين. الأمر الذي أكسبهما نضجا مرحليا، وفي الجانب الآخر تمثل في التبعية المطلقة للأم، بالنسبة لابنة الأم الشريرة، مما تسبب في هلاكها في نهاية المطاف.[22]

خلاصة:

لقد كان للتحليل النفسي حضوره بين مواد التراث الشعبي ولا زال، خاصة وأن الأدب لم يعد عملية محاكاة لتجارب ونقل لخبرات إنسانية مختلفة، وإنما أصبح يعتمد على نوع من الرمزية التي تجسد وتنقل كل ميول النفس الإنسانية، والتي تمتد جذورها إلى الأعماق. فلقد حاول «**فرويد**»وغيره تحليل مواد التراث الشعبي تحليلا نفسيا انطلاقا من المكبوتات واللاشعور، ليكون نتاج الفرد تصويرا لتلك الرغبات والدوافع النفسية المكبوتة. فتكشف بذلك مواد التراث الشعبي عن اللاشعور الجمعي في صور وأشكال مختلفة تترجمها مواد التراث الشعبي أو الأدب الشعبي.

د- النظرية التاريخية وفهم الأساطير والحكايات الخرافية:

يحاول دارسو الفولكلور استخدام «**النظرية التاريخية**» لإعادة بناء تاريخ حكاية شعبية، أو تاريخ أغنية شعبية، أو أي عنصر من عناصر التراث الشعبي.وذلك عن طريق دراسة الاحتمالات المصاحبة لتفسير نشوء وانتشار الحكايات الشفاهية في زمان ومكان محددين عن طريق عملية اختراع واعية وإرادية. فالحكاية قد ارتحلت من مكان الاختراع في شكل دوائر تتسع، ويتأثر هذا الانتشار للقصة الشعبية بدروب التجارة والسفر، ولكن الانتشار يحدث فوق رقعة جغرافية تتسع باستمرار.[23] وعليه، كيف وظفت النظرية التاريخية لتفسير مواد التراث الشعبي. ؟

يرى أصحاب هذه النظرية أن الأساطير والحكايات الخرافية، تمثل أخبارا تاريخية حدثت بالفعل للجماعات البشرية الأولى، تحكي عن نشأة القبيلة أو القرية.

لقد فسرت الكائنات الغيبية كالآلهة والجن والعفاريت بأنها أشخاص حقيقيون كانوا يعيشون في بقاع الأرض، فالآلهة هم آباء أو أجداد القبائل والأجناس البشرية والذين أنجبوا أبناءهم وأحفادهم الذين كانوا يأتمرون بأوامرهم. وكذلك الأمر بالنسبة للجن والعفاريت والغيلان والمردة فهم أقوام أو أجناس بشرية عرفوا بهذه الأسماء على سبيل التمييز بينهم وبين غيرهم من بني البشر أو لصفات اتصفوا بها.

أما مفهوم الخلق فهو تعبير عن التأسيس، فهؤلاء الآلهة كانوا أشخاصا لهم سطوة وملك، أو

آباء تأسست من نسلهم عشائر كبيرة العدد، أو ملوكا لهم فضل على شعوبهم لما أسسوا من قرى أو لما شيدوا من منشآت.

أما الحيوانات التي تتكلم وتساعد الأبطال على القيام بمهامهم، فهم ليسوا حيوانات حقيقية وإنما هم أشخاص أخذوا أسماء هذه الحيوانات، واتصفوا بصفاتها من مكر وخبث وقوة وشراسة... أما فعل المسخ فهو تعبير رمزي عن التحول من حال إلى آخر أو من قبيلة إلى أخرى، ويبرز الفعل جليا في الحكايات الخرافية، أين مسخت الحيوانات إلى أدميين أو آدميون مسخوا إلى حيوانات.

وتمثل التمائم والتعويذات السحرية التي يعلقها الناس لاتقاء الأذى، ولكسب ود الآلهة أو اتقاء الأرواح الشريرة، جوازات سفر وكلمات للمرور، يستظهر الفرد من خلالها هويته وانتماءه.

أما الحكايات الخرافية والتي هي في أصلها أساطير مقدسة، وبالتداول وتقادم الزمن، فقدت سمة التقديس، وتحولت إلى حكاية عجيبة، ولاتزال بعض آثار التقديس تحيط بها. ونمثل لذلك بـ "حكاية سندرلا" آلهة الربيع.

يستدل أصحاب هذه النظرية بجملة من الأدلة، منها تشابه الحكايات الخرافية والأساطير في بقاع العالم على الرغم من اختلاف الثقافات .[24]

وهكذا حاول أصحاب النظرية التاريخية تطبيقها لتفسير مواد التراث الشعبي منطلقين من بوتقة الزمان وصولا إلى بوتقة المكان. وبالرغم من سلبية النظرية إلا أنها ساهمت بقدر كبير في تجلية مصدر النص الشعبي ومواده وتفسيره أيضا.

خلاصة:

بالرغم من قصور النظرية التاريخية إلا أنها أسهمت في محاولة تحديد منشأ وأصل مواد التراث الشعبي والأدب الشعبي أيضا.

هـ ـ النقد المعرفي والأمثال الشعبية:

إن دراسة الأدب الشعبي تعنى بعرض طريقة تفكير الإنسان عبر استعمالاته اللغوية، فهو خزين معرفي، تتمثل فيه كل الاستعدادات الذهنية، وكذلك كل التجارب التي يحيا بها الإنسان في أعماق عقله. «من ذلك الخزين المعرفي يشتغل النقد المعرفي في عملية الكشف والتحليل والتفسير من خلال هذه البنى الفكرية النسقية السائدة في العقل الإنساني، والمتمثلة في القوى والملكات العقلية من تصور وإدراك وتخييل، وغيرها من الملكات المنتظمة في التمظهرات اللغوية المصاغة في التعبيرات. »[25]

وهناك من أطلق على معنى النقد المعرفي" ممكنات التحليل العقلي" «القائم على دراسة التصورات الإدراكية العلمية في محيط النص وخارطته، ولا يمكن تفعيل هذه الممكنات التحليلية إلا بعملية تنظيم معرفي للأفكار ونقدها تقويما أو حكما، مما يقتضي وجود إطار من المعرفة الشمولية. تمكن النقد في اشتغاله أن يتوخى الدقة في التحليل، والقصد في تحديد المعنى، والمسؤولية في إنتاج المفاهيم. »[26] سنختار الأمثال الشعبية كشكل تعبيري شعبي، لنحدد القيمة المعرفية. لتكون أمثال الأنواء والفلاحة. والتي سنختار منها مثلين ـ دليلا على ذلك.

ـ اللي فاتك بليلة، فاتك بحيلة:

ينطلق الحكيم الشعبي من جملة واحدة لبناء خطابه. فيبدأ مثله بـ "اللي" وهو وتد تقني ـ كما سماه عبد المالك مرتاض ـ يرتكز عليه الخطاب لأنه يمثل أساسا للبنية. ولا يؤدي وظيفة جمالية في المثل، وإنما هو قاعدة للبنى المنسجمة التي سوف يوضحها الخطاب في بنيته الفكرية.

لقد أدركت العقلية الشعبية دور الخبرة والتجربة والسن في الحياة. وهذه العناصر هي نتائج حتمية لعملية التعلم. هي نتاج احتكاك وتفاعل

الفرد مع بيئته المادية والاجتماعية التي يعيش فيها. فالفرد يقتنع بدور التجربة في تكوين الخبرة.

يتكرر المثل في بنيته، فبنية واحدة(فاتك ، فاتك) تتكرر بنفسها مرتين. ومن جانبها السطحي هما بنيتان(اللي فاتك بليلة)الجانب السطحي الأول، (اللي فاتك بحيلة)الجانب السطحي الثاني.

اعتمد الذوق الشعبي التكرار الذي يقوم عليه جمال السطح، ورونق الشكل. وهو ليس تكرارا عشوائيا، وإنما قائم على نظام بنيوي دقيق، ويتضح ذلك جليا عند إرجاعه إلى الفصحى(من فاتك بليلة، فاتك بحيلة).

وتردد الوحدتان بصوت واحد لتماثل البنى الفردية في المثل: فلدينا أربعة أصوات داخلية (فاتك + فاتك + ليلة + حيلة) وإيقاعان اثنان(فاتك بليلة+فاتك بحيلة). آخذين بعين الاعتبار الاختلاف الواقع بين فونيمي(ل/ح). هذا الاختلاف ـ في حقيقته ـ يمنح النص خصائص صوتية تجعله سهل الرواية والحفظ. فدرجة الائتلاف والاختلاف الصوتي في خطاب المثل تصل إلى 99%، لكن الاختلاف يقع فقط في (ل) و(ح). كل ذلك يبرز تجليات الظاهرة الفردية الإبداعية.

وتتعدد تأويلات المتلقي لهذا المثل، وفق متطلبات الواقع. فقد تستحضره العقلية الشعبية في كل مجال يمت بصلة للسن والخبرة. وهذا ما يتفق و»متطلبات «العلم المعرفي»، وهو علم ذو أبعاد عميقة في البحث، مركز اشتغاله هو البحث في كيفية امتلاك الذهن المعرفة، وكيفية تطورها فضلا عن البحث في علاقة المحيط المجاور في عملية الاكتساب المعرفي مستعينا بعلوم ومعارف قد يتقاطع معها أو يتداخل، ويكون محل اشتغال هذا العلم: مكونات الإنسان النفسية والذهنية، وغايته تفعيل آلية العلم والمعرفة في الموضوعات التي يتناولها، وتمتد تعاملاته العلمية إلى الجوار المعرفي المتمثل في الفلسفة على اعتبار أن الفلسفة تعنى بالمعرفة الإنسانية، من حيث فطرتها أو اكتسابها، وكيف يشتغل الذهن البشري في ذلك كله، والنقد بوصفه بنية معرفية منظمة، تتجلى في منظومته المفاهيمية وآلياته الإجرائية مظاهر العلم المعرفي. »[27]

ـ في الجليد احرث وزيد، وفي الضباب احرث وهاب:

يعتبر الجليد لدى الفلاحين ضربا من الصقيع، أو هو الصقيع نفسه، يبدو كالطبقة الثلجية الخفيفة، سرعان ما يذوب بفعل الحرارة.

تمثلت **البنية الفكرية** للمثل في أنه يرسم تجربة زراعية، ويعالج المضمون قضية الحرث. أجملها الحكيم الشعبي في هذا النص القصير. على أساس أنهم يتفاءلون بجودة الموسم، وهطول الأمطار في السنة التي يتساقط فيها الجليد أثناء الليل. فلك عام يتميز بكثرة الغلال، ووفرة الثمار. كما كانوا يتشاءمون بالضباب، ويدعو الفلاح إلى الحذر منه في مواسم الضباب.

أقيمت التجربة الزراعية على الملاحظة الدقيقة المستمرة إلى أن أصبحت تقريرا فحواه أن عام الجليد يكون مخصبا، وعام الضباب يكون مجدبا.

أما **البنية اللغوية** للمثل، تدل ألفاظه على قائله. ألفاظه نقية، قائمة على الإيحاء ليترك مجالا للتفكير والفهم للمتلقي، ليجد التصور المشترك بين(عام الجليد أو في الجليد)و(احرث وزيد).

تمثلت **البنية الكونية** في أن المثل أرسل في بيئة زراعية جسدها فلاح شديد الذكاء، وسريع الفطنة. جسدها بحديثه عن زمن الجليد في موسم من المواسم الزراعية. فتكون الفرصة سانحة لعام

خصب. أما الإطار الفني للمثل، فيميل الذوق الشعبي إلى الجمل القصار، ليسهل نقل المثل وانتشاره وروايته.

في الجليد، احرث وزيد. . . .

في بنيته التركيبية

لفظة/لفظتين

شكل المثل توازن لفظيا في شقه الأول(في الجليد)(احرث وزيد). كذلك في شقه الثاني(في لضباب)(احرث وهاب)،لفظة تقابلها لفظتان، والذي نتج عنه إيقاع صوتي. ونجد أيضا من الناحية النفسية، تعبيرا عن إحساسه بالتشاؤم، والخوف، وتصورا لأهوال يمكن أن تقع، فوجب التغلب على ذلك بأخذ الحيطة والحذر.

خلاصة:

إن حلقة الوصل والربط بين النص الشعبي والنقد المعرفي هي عملية التحليل للكشف عن مجموع البنى الفكرية في العقل الإنساني، والكشف أيضا عن التمظهرات اللغوية التي تعبر عن وعيه. لينطلق النقد والمعرفة بوصفهما نظامين من التفكير في البحث عن الأسس والمبادئ، ليشرعا في عملية بناء معرفية تتضمن ربط المفاهيم والإجراءات. بهدف الانتقال من الحالة العفوية إلى الحالة المفهومية المنظمة. وهذا ينطبق على عملية إنتاج التراث الشعبي في انتقال الإنسان من الحياة الانفرادية إلى حياة الجماعة. وكذلك تأملات الإنسان البدائي لمختلف الظواهر الكونية.

أما اللغة فتشكل وعاء للمعرفة لأنها الأداة التي يمكن بواسطتها تحويل العالم إلى عالم منظم. وهنا تكمن الحقيقة في كشف وفهم المعنى الذي ينتجه النص الشعبي. من خلال تلك الدلالات التي يحملها، والتي تولدها اللهجة - في النص الرسمي تولدها اللغة- من جانبها الوظيفي، وذلك من خلال تحويل الجانب الفكري المتمثل في المحتويات العقلية من أفكار وتصورات وأحكام تعبر عنها متواليات منتظمة (كلمات، عبارات، قضايا. . . .).

و. منهج القراءة والتلقي في الشعر الشعبي:

يركز منهج القراءة والتقبل على القارئ أثناء تفاعله مع النص الأدبي قصد تأويله وخلق صورة معناه المتخيلة. فالمشاركة الفعالة بين النص الأدبي والنص الشعري الشعبي ، هي التي تخلق ألفة بين مبدع النص وبين قارئه. لأن العمل الأدبي لا تكتمل حركته الإبداعية إلا عن طريق فعل القراءة. والذي تتحقق به جمالية النص، أي أن النص ينتقل من حالته المجردة إلى حالته الملموسة.[28] فالمتصفح للقصيدة الشعبية الثورية، يجد أن المبدع الشعبي قد وزع أبياتها توزيعا يتوافق ومجرى الأحداث التي أراد الإفصاح عنها.

ومثلت أشعار جمالية السجون التجربة الحياتية القاسية المعاشة، وتكمن جمالياتها الفنية في نقل تجربة واقعية عاشها أفراد الشعب الجزائري. فتعددت صور الإقامة(الإقامة الجبرية للجسد، والإقامة الجبرية على الحقائق أو طمسها، والإقامة الجبرية في الموت البطئ، والإقامة الجبرية في السجن ...) فهذه صور لسجون أرض الجزائر المحتلة، فالشعب الجزائري عاش كل أنواع الإقامات الجبرية.

من خلال هذه التجربة المريرة، والحياة المعذبة، تحدث الفرد الشعبي عن سجن كبير واحد، داخله عدة سجون صغيرة، على اختلاف دلالتها وأنواعها. فتمثل عالم (الظلمة/السجن)، و(عالم النور/ الحرية)، واتصال بعالم الظلمة، والوحشة، والوحدة، والسجن. فيقول:

ـسر كلونة بالسيلان والعسة سليقان
ـخلونا في لحباس طول النهار عساس
علينا ابن عساس يشبه القومي

ـ خرجت من السيلان نتلبد والدم على رجلي مكبد
ـ كيدونا لعين اعبيد المكحلة في اليد
يضرب ويقول زيد غشك الرومي
ـ اعزمولي يا اتصال عزمولي بلبراوات
تسركيلة مازالت علينا ياربي فرج علينا[29]

لقد أصبح السجن، ليس مجرد مكان، ذا أبعاد هندسية، إنما هو مكان يختلف عن باقي الأمكنة، إنه مكان فاقد الحرية والقوة، فأصبح السجن هو السيد الذي يحكم بأنظمته وقوانينه.

ومن هنا نستطيع أن ننتهي إلى مقولة مضيئة وهي: «إن الحرية هي التي تهب الإنسان القدرة على تشكيل المكان وإقامة معماريته، واستلاب معماريته، واستلاب الحرية هو الذي يعطي المكان القدرة على إعادة صياغة شخصية الآخر، وبناء معماريته من جديد.»[30]

فالسجن يمثل الانفتاح والانغلاق، والضيق والاتساع، وهذا يشير إلى أن الحرية ليست في تكوين المكان، وإنما في داخل الإنسان، والذي يبدد قيد المكان ليصبح حرا في مكان حر. وإلى جانب هذا، تظهر صورة أخرى لسجن آخر ممثل في عمليات الاختطاف ومنع التجول ليلا وإطفاء المصابيح خوفا من الاستعمار. ليقول:

- باتت الحمراء اطبطب في الليل
ترفد الرجال والصغار في الحين
طفينا ضوء المـــــــغرب
زدنا السهرة في اللـــــــيل
زدنا السهـــــــرة في الـليل
ونصلوا ياربي دير لنـــا التاويل[31]

هذه التعالقات النصية التي ربطت بين النص ومضمونه، نقلت النص أثناء فعل القراءة إلى نسيج متكامل من عناصر متآلفة ومتناسقة، شكلت كل جزئية منه أساسا لجزئية أخرى.

خلاصة:

تفاعل القارئ مع النص لتصوير جمالية النص. واتسمت النصوص الشعرية الثورية ـ على وجه التحديد ـ إذ صور الشعر الشعبي الثوري محطات عديدة للثورة التحريرية. استشف القارئ جماليتها من خلال فعلي القراءة والتلقي.

وختاما للدراسة نقول:أن المنهج يروم في حقيقته إلى دراسة النص الأدبي سواء من الداخل أو من الخارج. ومهما قدمت هذه المناهج والنظريات والمقاربات في دراستها للنص الشعبي، إلا أنها تركز على عنصر دون آخر، وتبرر من خلاله جوانب مخفية في العمل الأدبي، وتهمل جوانب أخرى. ولفض الإشكال نتبنى مقولة«**عبد الفتاح كليطو**» :»لحسن الحظ فإن القارئ الذي يعذب النص لا ينجو من العقاب.»[32].

الإحالات والهوامش:

1. سعيدي محمد، الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق، ديوان المطبوعات الجامعية، ، الجزائر، د ط، ص ص 25، 24.

2. المرجع نفسه، ص 24.

3. **الابستيمولوجية** هي نظرية المعرفة وتبحث في امكان المعرفة وفلسفتها، وهي فرع من فروع الفلسفة.

4. عبد الفتاح كليطو، مسألة القراءة في المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية، دار توبقال، 1986، ط1، ص 42.

AGNOSTICISM5 اللادريةأو اللامعرفة وتعنى بنفي وجود يقين ديني أو إلحادي وهو توجه فلسفي.

6.رولان بارت، مبادئ في علم الأدلة، ترجمة:محمد البكري، دار قرطبة للنشر والتوزيع، 1986، دط، ص141.

7.ميشال عاصي، الفن والأدب، مؤسسة نوفل، بيروت، 1980 ، ط3 ، ص173.

8. التلي بن الشيخ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، م، و، ك، الجزائر، 1990، دط، ص 109.

9 عبد الله إبراهيم، االسردية العربية، بحث في البنية السردية للموروث الحكائي، المركز الثقافي العربي، يوليو 1992، ط1، ص 90.

10. مورفولوجيا القصة:تعني مورفولوجيا دراسة الشكل والبنية دون النظر في الوظيفة، ومورفورلوجيا القصة هو التحليل البنيوي للحكاية الشعبية.

11 Vladimir Propp,Morphologie du conte,traductions de Derrida,T. Todorov,C. Kahn,collection .poetique,Ed,seuil,1965,1970,page28,29

12- موريس أبو ناضر، الألسنية والنقد الأدبي في النظرية والممارسة، دار النهار للنشر، بيروت، 1979، ط1، ص241.

13- سمير المزروقي، جميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة(تحليلا وتطبيقا) ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الدار التونسية للنشر، دت ، دط، ، ص25. /و/فلاديمير بروب، مورفولوجيا الحكاية الخرافية، ترجمة وتقديم:أبو بكر أحمد باقادر، أحمد عبد الرحيم نصر، النادي الأدبي اليقافي، جدة، 1989، ط1، ص ص83، 82.

14. سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائيات السردية، منشورات الاختلاف، 2003، دط، ص 56/و/ ص67.

15. د. دورسون، نظريات الفولكلور المعاصرة، ترجمة وتقديم:د/محمد الجوهري ود/ وحسن الشامي، دار الكتب الجامعية، الإسكندرية، 1972، دط، ص ص 102، 103.

16. رث باركن غونيلاس ، الأدب والتحليل النفسي ، ترجمة:حنا عبود، وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، 2006، ص ص 52، 51.

17. د. دورسون، نظريات الفولكلور المعاصرة، ص104.

18. المرجع نفسه ، ص 105.

19. ستانيلي هايمن، النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، ترجمة:محمد يوسف نجم/و/إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت، 1958، دط، ص ص 246، 245.

20. د. دورسون، نظريات الفولكلور المعاصرة، ص ص 125، 124.

21. د/أحمد زغب ، الأدب الشعبي (الدروس والتطبيق)، مطبعة مزوار الوادي، 2008، ط1، ص ص 71، 70.

22. المرجع نفسه ، ص 71/و/شريفة جوادي ، التفسير النفسي لحكاية بقرة اليتامى، الموروث الشعبي وقضايا الوطن، رابطة الفكر والإبداع ، الوادي 2006.

23. د. دورسون، نظريات الفولكلور المعاصرة، ص ص 44، 43.

24. د/أحمد زغب، الأدب الشعبي ، ص ص 68، 67.

25. عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية، الدار العربية للكتاب، ط2 ، دت، ص 178.

26. د/محمد سالم سعد الله، ماوراء النص ـ دراسات في النقد المعرفي المعاصر ـ عالم الكتب الحديث، إربد، ط1 ، 2008، ص 10.

27. آزاد حسان شيخو، النقد المعرفي في الدرس البلاغي ـ نسقية البيان ـ عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط 1، ص ص 96، 95.

28. د/جميل حمداوي، مناهج النقد العربي الحديث والمعاصر، مكتبة المعارف، الرباط، 2010، ط!، ص ص 27، 25.

29. العربي دحو، ديوان الشعر الشعبي عن الثورة التحريرية(في الولاية التاريخية الأولى بالعربية والأمازيغية)، منشورات جائزة الأوراس، ديسمبر 2003 ، باتنة. (نصوص مختارة للاستشهاد).

30- شاكر النابلسي، جماليات المكان في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1994، ط1، ص318.

31. العربي دحو، ديوان الشعر الشعبي عن الثورة التحريرية(في الولاية التاريخية الأولى بالعربية والأمازيغية).

32. عبد الفتاح كليطو، مسألة القراءة في المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية، دار توبقال، 1986، ط1، ص 20.

ـ بالنسبة للنصوص الواردة في المتن على سبيل الاستشهاد :مدونة القصص الشعبي والأمثال الشعبية المجموعة من قبل الأستاذة الباحثة د/سمية فالق .

علاقة السياق بالمعنى التأويلي في كتاب الموافقات للشاطبي

د. عبدالحق سوداني
قسم اللغة و الأدب العربي
جامعة الشاذلي بن جديد – الطارف

الملخص :

يعد السياق مفهوما استراتيجيا لفهم الخطاب، إذ من دونه يصعب تأويل النص و الوصول إلى مقاصده، وقد أعطى الشاطبي للسياق أهمية كبرى لما له من دور في تأويل الخطاب فبين أنواعه كالسياق اللغوي والسياق المقامي عن طريق مصطلح المعنى التركيبي والمقام. ويرتبط السياق بالمعنى من أجل الوصول إلى مقاصد الخطاب بشكل تأويلي، وهذا ما يعطي للسياق بعدا تداوليا هاما. ومقاصد الخطاب هي الغاية الكبرى من العملية التأويلية والتي تزاوج بين السياق والمعنى.

الكلمات المفتاحية : السياق ، تأويل الخطاب ، تأويل النص

ABSTRACT :

The context is regarded as a strategic concept to understand the discourse and without which it is difficult to interpret the text and reach its purposes. Eshatibi gave the context a great importance because of its role in the interpretation of the discourse. He has disclosed its types as language context and place context through the structural meaning term and the denominator.

The context is linked to the meaning that gives it a crucial interpretive dimension. The purposes of discourse are the ultimate goal of the interpretive process that intertwines both context and meaning.

KEY WORDS : le contexte, discours , texte, interpretive.

مقدمة :

يمثل السياق مفهوما دلاليا و وتواصليا وتأويليا وقد وظف مفهوم السياق اللغوي وسياق الموقف في المقاربات التحليلية للخطاب بغية الوصول إلى المعنى الذي يتضمن قصد المتكلم.

فالسياق اللغوي ضروري من أجل أن يكون الخطاب متسقا ومنسجما ويكون المعنى واضحا ومفهوما، وينبني الاتساق والانسجام على تفاعل بين البنية والدلالة أي تماسك البنية التركيبية والدلالية عبر المستويات اللغوية كلها لينتج لنا في النهاية خطابا ذا بنية واحدة.

وفي الدراسات التداولية أصبح مفهوم سياق الموقف ضروريا لفهم مراد المتكلم وقصد الخطاب، ويشتمل سياق الموقف على جملة من العناصر كالمتكلم والمخاطب والمكان والزمان والمكانة الاجتماعية للمتخاطبين والسياق الثقافي والحضاري وأحوال الناس وعاداتهم وتقاليدهم.

وورد السياق في التراث العربي القديم بعدة مفاهيم منها السياق اللغوي وسياق الموقف، وقد وظف البلاغيون مفهوم النظم والمناسبة والتعالق والمقام ومقتضى الحال، واستعمل الأصوليون الخاص والعام واسم الحال والقرائن والمقام بمفهوم المناسبة وأسباب النزول والمكي والمدني.

1-السياق في الفكر اللساني المعاصر:

تعد فكرة السياق من أهم الأفكار اللسانية التي جاء بها الفكر اللساني فقد«غدا من المصطلحات الشائعة والمؤثرة في الدرس اللغوي الحديث منذ ابتدعه مالينوفسكي Malniveski ليتسع مفهوم السياق خصوصا في الدراسات التداولية حتى أصبحت تعده من أسسها المكينة»[1].

فالسياق اللغوي هو «مفهوم واسع بحيث يشمل السياق الصوتي والصرفي والنحوي والمعجمي، ولا يظهر المعنى المقصود للمتكلم إلا بمراعاة الوظيفة الدلالية للألفاظ المستخدمة، وبناء على ذلك فقد فرق فيرث Ferth بين خمس وظائف أساسية مكونة للمعنى هي الوظيفة الصوتية، الصرفية، المعجمية، التركيبية والوظيفة الدلالية، وتتحدد كل وظيفة من هذه الوظائف في إطار منهج يعرف بمنهج الإبدال، ولا يظهر معنى العنصر اللغوي على أي مستوى من المستويات الخمسة إلا بتميزه السياقي من مقابلاته التي لا يمكن أن تقع موقعه في ذلك السياق، فإذا لم يكن ثمة بديل سياقي ممكن لذلك العنصر اللغوي فلن يكون له معنى» [2].

أما سياق الموقف في الفكر اللساني المعاصر فهو يتحدد «على الأقل في كل موقف شخصان أحدهما فاعل حقيقي والآخر فاعل من جهة الإمكان أي المتكلم أو المخاطب على التوالي، وكلاهما ينتميان على الأقل إلى جماعة إنسانية أي طائفة من الأشخاص لها نفس اللغة وترابط ضروب الاتفاق والتواطؤ للقيام بالفعل المشترك الانجازي وطوال مدة معينة من الوقت فإن نشاطات عضوين(فأكثر) من الجماعة قد تتسق وتنتظم على معنى، وأن المتكلم ينتج عبارة أو ربما ليس ذلك فحسب وإنما يصير فاعلا وينجز عددا من الأفعال الإنجازية، وقد يكون هذا الوصف لميزات الموقف التواصلي أمرا بديهيا إلى حد ما»[3] .

وفي هذه الحالة تمتزج اللغة بالحيثيات السياقية والوقائع الحدثية لينتج لدينا القصد التخاطبي من قبل المتكلم أوالحمل من قبل المخاطب لتصل في النهاية إلى بناء إستراتيجية معينة في الخطاب بحسب الوضعيات والمقامات والأعراف وباستثمار الأدوات اللغوية المناسبة، يقول فيرث «لدى أهل المنطق نزعة إلى القول بأن للكلمات والأطروحات معنى في حد ذاتها يمكن بطريقة أو

بأخرى تحديده بمعزل عن المشاركين في الخطاب والظروف والمناسبات التي وقع فيها الحدث الكلامي، يبدو أنهم لا يرون في طرحهم أهمية الأخذ بعين الاعتبار دور المتكلمين والمستمعين، أما أنا فأقترح أنه لا يمكن الفصل فصلا تاما بين الأصوات المتكلمة وبين السياق الاجتماعي الذي تلعب فيها دورها، ومن ثم فإنه يجب النظر إلى كل النصوص المنطوقة على أنها تحمل في طياتها مقومات القول بحيث تحيل على مشاركين نموذجيين في سياق معمم»[4] .فعملية الفهم والإفهام تقتضي توفر جملة من العناصر التي تحقق التواصل بين المتكلمين والتي تتمثل في:

1- « الخاصيات المتعلقة بالأطراف المشاركة كالأشخاص والشخصيات.

2- الفعل الكلامي للأطراف المشاركة.

3- الفعل غير الكلامي للأطراف المشاركة .

4- الأشياء المتعلقة بالموضوع.

5- وقع الفعل الكلامي» [5].

وهنا يحقق السياق دورا مركزيا في عملية التخاطب بحيث يعطي للفعل الكلامي حيويته وتأثيره ويجعل اتجاه الخطاب يأخذ وضعيته الصحيحة، وتتكيف الأقوال اللغوية بحسب المقامات والسياقات وهنا تكمن قدرة السياق في إنتاج الخطاب وفي تحديد القصد على حد سواء، «فالتركز على المفهوم المجرد للواقعة الكلامية لا يبرر إلا اتخاذها وسيلة احتجاج على اختزال أكثر تجريدا للغة من حيث هي لسان لأن فكرة الواقعة الكلامية تعطينا مفتاح الانتقال من لسانيات الشفرة إلى لسانيات الرسالة، فالواقعة الكلامية تذكرنا بأن الخطاب يدرك زمنيا وفي لحظة آنية في حين أن النظام أو النسق اللغوي افتراضي وخارج الزمن، لكن ذلك لا يحدث إلا في لحظة التحرك الفعلي والانتقال من اللغة إلى الخطاب، ولذلك فان أي دفاع عن الكلام من حيث هو واقعة لا يكون دالاً إلا إذا أظهر علاقة التحقق وجعلها شيئا مرئيا، وهي ما تتحقق بفضلها قدرتنا اللغوية على الأداء»[6] ،

إن هذه السمات السياقية سمات عامة وعلى اللساني ومحلل الخطاب أثناء تحليله للنصوص والخطابات أن يأخذ بالعناصر الخاصة بذلك الخطاب حتى يستطيع أن يصل إلى المقصود منه، فالتقدير هنا هو تقدير احتمالي للخطاب ولسياقه وليس تقديرا يقينيا لأن الأمر يتعلق بالتأويل في ضوء السياقات.

2-السياق عند علماء الأصول والتفسير:

اهتم العلماء القدامى اهتماما بالغا بالسياق إذ يعد مقوما أساسيا لفهم الخطاب القرآني وآلية ضرورية للوصول إلى قصد الشارع فمن دونه يستحيل أن نصل إلى الفهم والإفهام.

وقد ورد مصطلح السياق عند علماء التفسير والأصول بعدة مفاهيم وتراوح استعماله بين السياق اللغوي وسياق الموقف.

أما السياق اللغوي فقد أشار إلى هذا المفهوم علماء الأصول كالشافعي(ت277)، ففي كتابه الرسالة يقول: «إنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها، وكان ما تعرف من معانيها اتساع لسانها، وإن فطرته أن يخاطب بالشيء منه عاما ظاهرا يراد به العام الظاهر، ويستغنى بأول هذا منه عن آخره، وعاما ظاهرا يراد به العام، ويدخله الخاص فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه، وعاما ظاهرا يراد به الخاص، وظاهرا يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره، فكل هذا موجود في أول الكلام أو وسطه أو آخره»[7] .

أما سياق الموقف فقد أطلق عليه علماء اللغة والتفسير والبلاغة مصطلح الحال والمقام ويعنون به «القرائن الخارجية المتعلقة بالمتكلم والمخاطب أو الحالة العامة للكلام مع اعتبار المكانة الاجتماعية لطرفي التخاطب، ويطلق عليه غيرهم بالمشاهدة والمشاهد والدليل والقرائن والمقام والموقف»[8] .

«وقد اعتنى المفسرون بالمخاطب وحاله باعتباره في التفسير حديثهم عن المكي والمدني وهو حديث تناول بالإشارة نزول الآيات، وإذا كان يفهم من النسبة إلى مكة والمدينة المكان فإنه يفهم منه أيضا حال المشمولين بهما (أهل مكة والمدينة)،كما يفهم منه زمان نزول القرآن باعتبار الهجرة وما قبلها ومعرفة مكان وزمان نزول القرآن نوع من العلوم القرآنية، ويطلق عليه المكي والمدني تغليبا لكثرة ما أنزل فيهما» [9].

ويرى الزركشي أن فوائد أسباب النزول تكمن في:

1- معرفة وجه الحكمة الباعثة في تشريع الحكم.

2- تخصيص الحكم عندما يرى العبرة بخصوص السبب.

3- الوقوف على المعنى»[10] .

هذه الفوائد تجعل من أسباب النزول مقوما أساسيا من مقومات مقاصد الخطاب القرآني وأنه لا مناص لمحلل الخطاب القرآني من أن يلم بمعرفتها وتكون له خلفية إدراكية ضرورية، «إذ هي أول ما يجب الوقوف عليها وأولى ما تصرف العناية إليها لامتناع تفسير الآيات وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها»[11] ، وبها يشكل القصد الجمعي للجماعة التخاطبية التي ترسي الحالة الثقافية والفكرية والشرعية في المجالات التعبدية والاجتماعية كالعبادة والسلوك والزواج والطلاق والقتال وغيرها، والذي يقوم على المنطق اللغوي المتجاوز للسياقات التنزيلية نحو السياقات المتجددة، وذلك إرساء لقواعد تكييف الخطاب حسب الحيثيات المستجدة .

وهنا تبرز العبارة المشهورة للأصوليين «هل العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص السبب؟»[12] وإن الرأي الغالب هو أن» مقصود الشارع ومراده أن يعم بالحكم جميع المكلفين ودليل ذلك عدوله إلى التعبير بالألفاظ العامة التي تشمل سائر الأفراد دون الألفاظ الخاصة، التي تقتصر على أصحاب الواقعة أو على السائلين على حكم من الأحكام، فإذا ورد اللفظ العام في مناسبة خاصة فالحجة في اللفظ العام، وهو باق على عدمه وليس خاصا بالمناسبة التي ورد فيها.

ويرى الغزالي(ت506) أن لا وجه لإنكار بقاء العام في عمومه دون تخصيصه بسبب ذلك أن أكثر أصول الشرع خرجت على أسباب كقوله تعالى "والسارق والسارقة" نزلت في سرقة المجن أو رداء صفوان، وأنزلت آية الظهار في سلمه بن صخر، وآية اللعان في هلال بن أمية، وكل ذلك على العموم وهو يدل على أن السبب غير مسقط للعموم .

وإذا أردنا أن نضع هذا القول الأصولي في إطار المقاربة الخطابية فإن خصوص السبب يعد واقعة الخطاب الخاصة التي في ضوئها أنتج الخطاب، أما عموم اللفظ فهو تكرر الواقعة التي يفسر في ضوئها الخطاب لأن السياقات واحدة وفي حالة تشابهت الوقائع الخاصة مع الوقائع المستجدة يعطي للخطاب القرآني استمرارية اختراق السياقات والبنيات الثقافية عبر الزمان والمكان.

«ولضبط منهج اعتبار السياق في فهم مراد الله انطلق علماء الإسلام إلى حصر العناصر التي تقع خارج النص وترتيبها وتصنيفها كلا بحسبه فصنفوها حسب الموضوعات العامة ثم عمدوا إلى كل موضوع

فصنفوا أجزاءه ورتبوا عناصره، ومن أمثلة العناصر العامة التي نصوا عليها ما يتعلق بالآية من أحوال الزمان والمكان لأن من ينظر في الآية عليه أن يستحضر الملابسات الزمانية والمكانية لها، وكل ما يحف بها من القرائن والمقامات وما يحيط بالمعاني من الظروف والأحوال العامة، وكلما تمكن الناظر من ذلك كان فهمه للآية أتم وأمكن» [13].

فقد تعددت مواقف القرآن الكريم في مواجهة الأوضاع الجاهلية فكان خطابه يتلاءم والظروف المستجدة، كان ينبغي على اللغوي أن يعرف« ترتيب ما نزل بمكة والمدينة، وما نزل بمكة والمدينة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي، وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، وما يشبه نزول المكي في المدني، وما نزل بالجحفة وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف وما نزل بالحديبية، وما نزل ليلا وما نزل مشيعا وما نزل مفردا، والآيات المدنيات في السور المكية والآيات المكيات في السور المدنية، وما حمل من مكة إلى المدينة، وما حمل من المدينة إلى مكة وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة، وما نزل مجملا وما نزل مفسرا، وما اختلفوا فيه فقال بعضهم مدني وبعضهم مكي»[14]،فكل هذه الأوضاع والأحوال ما هي إلا عناصر سياقية تعبر عن وقائع الخطاب القرآني، وهي بمثابة سمات سياقية للقرآن تضبط المقصود من الآيات والسور باعتبارها مراد الله تعالى.

فالأصوليون وعلماء التفسير جعلوا السياق نوعين سياق لغوي وسياق حالي «فالأول منهما يعطي الكلمة أو العبارة معناها الخاص في الحديث أو النص فهو يزيل اللبس عن الكلمة في حين يزيل السياق الحالي أو المقام اللبس عن جمل النصوص، والسياق بهذا المفهوم يتعدى ما هو معروف من حيث أنه تتابع للأصوات والألفاظ ليشمل فضلا عن ذلك الجو البيئي والنفسي المحيط بكل من المتكلم والسامع»[15] .

3- السياق والتأويل عند الشاطبي:

تناول الشاطبي مفهوم السياق ومقتضياته وعلاقته بالخطاب مما يؤدي إل مضامين تأويلية من قبل السامع و «أن يكون الاعتناء بالمعاني المبثوثة في الخطاب هو المقصود الأعظم بناء على أن العرب إنما كانت عنايتها بالمعاني، وإنما أصلحت الألفاظ من أجلها، وهذا الأصل معلوم عند أهل العربية، فاللفظ إنما هو وسيلة إلى تحصيل المعنى المراد، والمعنى هو المقصود، ولا أيضا كل المعاني، فإن المعنى الإفرادي قد لا تعبأ به إذا كان المعنى التركيبي مفهوما دونه كما لم يعبأ ذو الرمة ببابس ولا يابس اتكالا منه على أن حاصل المعنى مفهوم»[16] .

ولمتصدر فهم الخطاب القرآني أن يعلم أن معرفة أسباب التنزيل لازمة والدليل على ذلك أمران:

1- إن علم المعاني والبيان الذي يعرف به إعجاز نظم القرآن فضلا عن معرفة مقاصد كلام العرب إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال، حال الخطاب من جهة نفس الخطاب، أو المخاطب أو الجميع، إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، وبحسب مخاطبين، وبحسب غير ذلك، كالاستفهام لفظه واحد ويدخله معان أخر من تقرير وتوبيخ وغير ذلك، وكالأمر يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجب وأشباهما ولا يدل على معناها المراد إلا الأمور الخارجية وعمدتها مقتضيات الأحوال، وليس كل حال ينقل ولا كل قرينة تقترن بنفس الكلام لمنقول وإذا فات فهم الكلام جملة أو فهم شيء منه ومعرفة الأسباب رافعة لكل شكل في هذا النمط.

2 –وهو أن الجهل بأسباب التنزيل موقع في الشبه والإشكالات ومورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال حتى يقع الاختلاف وذلك مظنة وقوع النزاع، وهذا شأن أسباب النزول في التعريف بمعاني المنزل بحيث لو فقد ذكر السبب لم يعرف من المنزل معناه على الخصوص دون تطرق الاحتمالات وتوجه الإشكالات»[17] ، لذا قال ابن دقيق العيد «بيان سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب»[18] ، فأسباب النزول تختص بالأحداث الإنسانية والوقائع الحدثية والعادات الاجتماعية القديمة المناقضة للقيم الجديدة، وهي سمات سياقية لها علاقة بالزمان، المكان، الأشخاص، الأشياء، الأحداث والأفعال، فهي تحاصر المعنى وتقيد التأويل وتدفع بالخطاب نحو المقصود.

وأشار الإمام الشاطبي إلى هذه الوحدة قائلا: «المدني من السور ينبغي أن يكون منزلا في الفهم على المكي، وكذلك المكي بعضه مع بعض على حسب ترتيبه في التنزيل وإلا لم يصح، وقال في موضع آخر مأخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين إنما هو على أن تؤخذ الشريعة كالصورة الواحدة بحسب ما ثبت من كلياتها وجزئياتها المرتبة عليها، وعامها المرتب على خاصها، ومطلقها المحمول على مقيدها، ومجملها المفسر لمبينها إلى ما سوى ذلك من مناحيها فإذا حصل إلى الناظر من جملتها حكم من الأحكام فذلك[19] الذي نظمت به حين استنبطت»[20] .

وأورد الشاطبي مفهوم «معهود العرب» وهو يمثل المعرفة المشتركة بين المتكلمين، والذي يعد مكونا من مكونات اللسان بالمفهوم الأصولي، وبه يتحدد وإليه يضيف البعد الاجتماعي الذي يسمح بالتأويل وتقييده.

إن هاته القواعد السوسيولسنية هي ما يميزه الشاطبي بمصطلح خاص هو مصطلح معهود العرب الذي يختص به «أهل الأخبار المنقولة عن العرب لمقتضيات أحوال الألفاظ. إنه تجسيد لثقافة المجتمع في جدلها مع اللسان المحض أو ثقافة المجتمع التي أنتج فيها الخطاب في سياق علمي ومعرفي وتاريخي معين. فعلاقة «اللسان» بـ «المعهود» إذن علاقة شمول وخصوص، علاقة الجزء بالكل الذي ينصهر فيه، وفي الوقت نفسه يتميز عنه بسمات وخصائص متميزة. فاللسان بمفهومه الشامل الواسع يتضمن «المعهود» ويعطيه طابعه اللغوي في حين يعطي «المعهود» للسان طابعه الاجتماعي بوصفه أداة للتواصل في إطار جماعة اجتماعية معينة»[21] تشترك في قيم وعوائد وسياقات واحدة ما يؤدي إلى التفاعل بين المتخاطبين.

4- منهج السياق عند الشاطبي وصلته بالمقاصد:

ينتمي الإمام الشاطبي الفقيه المالكي إلى مدرسة المتكلمين الأصولية، و« هي مدرسة أسس لها وأقام بنيانها الإمام «الشافعي» في العقد الأخير من القرن الثاني الهجري، وعلى الرغم من طول المساحة الزمنية التي يقطعها مؤرخ الفكر بين القرن الثاني حيث عاش «الشافعي» المتوفي عام204هـ، وبين القرن الثامن حيث عاش ورحل الشاطبي المتوفي عام 790هـ، فالقرون الستة ليست بالأمر الهين، فمنذ رسم الإمام «الشافعي» الملامح الأساسية لعلم أصول مكتمل المباحث، لم تبدأ دورة جديدة لهذا العلم إلا على يد «الشاطبي»، ليس بإضافاته الرائعة في الجانب المقاصدي وإنما من خلال دعوة متكاملة إلى تجديد علم الأصول قائمة على نظرية معرفية يمكن القول أن «الشاطبي» انفرد بها، وعليها ارتفع إنتاجه العلمي حتى في مجالات اللغة والنحو، لقد قدم للناس – كما يقول الجيلاني المريني- أصول الفقه على أنه مادة علمية يستوعب جملة من الكليات

والقواعد الشرعية واللغوية التي بواسطتها يفهم الفقيه معنى النص الشرعي ومقاصده وعلله... وهذا يعني أن الرجل قد استفاد جيدا مما وصله من عطاء فقهي وأصولي خلفه من سبقوه – من لدن الصحابة رضوان الله عليهم إلى شيوخه الذين أخذ عنهم علم الشريعة»[22]- حتى نضج في فكره هذا العلم الجليل -أصول الفقه- واكتملت معالمه وآفاقه، وتبلورت قواعده وأسسه، فراح يكتب بمنهاج يقوم على أساس إبراز هذه القواعد والأسس إبرازا علميا تنظيريا مؤطرا قاصدا.

لقد انطلق البحث اللغوي عند الشاطبي لتحقيق أمرين:

الأمر الأول: عملي وهو إبراز عناصر الثبات في البنية الأصولية مستهدفا بذلك –كما يقول بحق عبد المجيد الصغير- «تفويت الفرصة على كل من يريد تأويل النص أيديولوجيا ليشهد لصالح اختياراته.

الأمر الثاني: علمي أساسه البحث في الدلالات وضبطها من أجل الوصول إلى مقاصد الشريعة، فالفهم لا يتوقف عند اللفظ المجرد بل هو دعوة إلى الانفتاح على المراد الذي يلزم به مقتضى الحال.

وقد أحسن «فريد الأنصاري» صنعا عندما انطلق من هذه المسلمة في ضبط خصائص وضع التعريف الأصولي عند الشاطبي حيث يمكن إجمالها فيما يلي:

1-إجراء الصيغة على عادة العرب في التعبير فلا بد كما يقول الشاطبي في فهم الشريعة من إتباع معهود الأميين –وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم- فإن للعرب في لسانهم عرفا مستمرا، فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة.

2- التعريف بالأمر المحسوس أو الظاهر، وعلى هذا وقع البيان في الشريعة، كما قال عليه السلام «الكبر بطر الحق وغمط الناس» ففسره بلازمة الظاهر لكل أحد.

3- ضبط المعنى قبل المبنى، فالاعتناء بالمعاني –كما يقول الشاطبي- المبثوثة في الخطاب هو المقصود الأعظم، بناء على أن العرب إنما كانت عنايتها بالمعاني، وإنما أصلحت الألفاظ من أجلها، وهذا الأصل معلوم عند أهل العربية، فاللفظ إنما هو وسيلة إلى تحصيل المعنى المراد، والمعنى هو المقصود.

4- ضبط المعنى التركيبي قبل المعنى الإفرادي، وذلك بتوجيه التعبير نحو كلي المعنى ابتداء، دون السقوط في بيان الجزئي الذي ربما شذ عن كليه فيضيع المقصود، والرأي عندي أن نظرية السياق في بنية الشاطبي الأصولية تتحدد ملامحها بهذه الخصائص، بل إن هذه الخصائص ينبغي أن تتحكم في أي منهج للسياق يدرس به النص الإسلامي، لأن عالم الحداثة الغربية أنتج منهجا سياقيا مغلقا على النص وعلاماته وعلاقاته، منفصلا عن مصدره وزمانه ومكانه، وكأن اللغة مجرد حروف[23].

نخلص في النهاية إلى أن مفهوم السياق بنوعيه اللغوي والمقامي قائم عند الشاطبي بما له علاقة بفهم النص الشرعي وأنه يرتبط ارتباطا وطيدا بمقاصد القرآن العامة وبالأحكام الشرعية، فهو مقوم أساسي في فكر الشاطبي.

الإحالات والهوامش :

1) الشهري (عبد الهادي بن ظافر)، استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديدة، ط1، ليبيا، 2004،ص 40.

2) علي محمد يونس،مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 2004، ص25.

3) فان دايك، النص والسياق، إفريقيا الشرق، بيروت، 2008،ص258.

4) يول وبراون، تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي زليطي ومنير التريكي، النشر العلمي والمطابع، السعودية، ص46.

5) المرجع نفسه ، ص 47.

6) بول ريكور، نظرية التأويل، تر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2006 ص37.

7) ردة الله بن طلحي ، دلالة السياق، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى،1418، ص106.

8) المرجع السابق، ص 37.

9) ردة الله بن طلحي بن ضيف الله الطلحي، دلالة السياق، 91.

10) محمد الخمليثي، دلالة السياق بين مفهومي التفسير والترجيح، - أعمال الندوة العلمية الدولية، أهمية اعتبار السياق في المجالات التشريعية،دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2007، ص 378.

11) المرجع السابق، ص 91..

12) الزركشي، البرهان في علوم القرآن ج2 ، الدار العلمية ، بيروت، ط1، ص 124..

13) النيسابوري (أبو الحسن علي بن محمد الواحدي)، أسباب النزول، دار الكتاب الجديد، ط1،2004،ص8..

14) السيوطي(جلال الدين)، الإتقان في علوم القرآن، ج1، تح أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، 2006، ص110..

15) طاهر بن سليمان حمودة، دراسة المعنى عند الأصوليين، الدار الجامعية، الإسكندرية،1997، ص56.

16) عبد الكريم عكيوي، منهج اعتبار السياق في فقه النص الشرعي، أعمال الندوة، ص588 .

17) السيوطي(جلال الدين)، الإتقان في علوم القرآن ج1، ص48.

18) خلود العموش، الخطاب القرآني، عالم الكتب الحديث، الأردن،ط1، 2008، ص26.

19) الشاطبي، الموافقات، ج2، تح، محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت، 2007، ص63

20) الشاطبي (أبي إسحاق)، الموافقات في أصول الشريعة، ج3 ، تح: محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت،2007، ص 217..

21) ادريس مقبول ،السياق في تداوليات أبي إسحاق الشاطبي، أعمال الندوة، ص273..

22) محمد كمال، المعنى والسياق بين الشافعي والشاطبي، اعمال الندوة، ص214

23) المرجع نفسه، ص214.

مدرسة الحوليات الفرنسية من تاريخية التوجه إلى تاريخانية التمثل

أ. نصيرة مصابحية
قسم اللغة والأدب العربي
جامعة باجي مختار – عنابة

الملخص :

يعتبر علم التاريخ من أهم العلوم التي ساهمت في تطوير الوعي الإنساني والبحث عن مضمرات تفكيره وكيفية تطوره عبر العصور، وقد حملت مدرسة الحوليات الفرنسية لواء الكشف عن هذه المضمرات، كما أنها حاولت الخروج بالتاريخ من بوتقة التاريخانية والحتميات المختلفة إلى التاريخ العلمي الموضوعي.

الكلمات المفتاحية : تاريخ، الحوليات، تاريخ شامل، تاريخانية.

ABSTRACT :

History is one of the most important sciences that have contributed to the development of human consciousness and the search for its fields of thought and how it has evolved through time. The French School of Annals was behind the discovery of these fields. It has as well attempted to get history out of historicism and the various determinants to the objective scientific history.

KEY WORDS : history, annals, global history, historicism.

مقدمة :

يمثل عصر النهضة المرحلة الانتقالية في الوعي الأوروبي من العصور الفيودالية إلى العصر الحديث الرأس المالي، ومن السلطة الكنسية والميتافيزيقية إلى سلطة العقل والإبداع، فقد كان هذا العصر عصر قطيعة إبستيمولوجية مع كل تفكير ماضوي حيث صار الإنسان سيد الكون ومركزه وبهذا فقدت الكنيسة هيمنتها المطلقة على الفكر والوجدان، وتطورت بذلك المفاهيم والآليات النقدية والفلسفية.وقد استفاد علم التاريخ من هذا التحول الفكري حيث انتقل من كونه مجرد سرد أسطوري للأخبار كما تجلى ذلك في الملاحم اليونانية إلى علم قائم بذاته له أصوله ومبادئه.

ويعتبر علم التاريخ من أقدم العلوم ظهر لما توصل الإنسان إلى ترتيب فكره وتطوير معرفته، فاكتشف حقيقة الزمن، وتوصل إلى أن تدوين الماضي شيء مهم في مساره الثقافي، وبهذا فان المنهج التاريخي ليس وليد فكر معين ولا حضارة بعينها ولا وليد عصر من العصور، بل هو نتاج معرفي جاء كحوصلة لتفاعل الفكر البشري وتفاعل الحضارات فيما بينها «فلا هو نتاج الحضارة الغربية وحدها ولا هو ثمرة القرن التاسع حصرا كما شاع عند البعض، إن المنهج هو موضوع دائم القواعد وضوابط وتقنيات سعي ويسعى دائما إليه منذ زمن بعيد هذا هو حال المنهج التاريخي كما يقول أحد المؤرخين المعاصرين منذ ألفي سنة »[1] .

وسنحاول من خلال المنهج التحليلي النقدي رصد الملامح الفكرية لمدرسة الحوليات باعتبارها المدرسة الأولى التي حاولت إرساء معالم الموضوعية في مقاربة الحوادث التاريخية بناء على مختلف العلوم الإنسانية،ونستطيع القول إن هذه المدرسة لاقت رواجا معرفيا، بسبب ما حققته من نتائج ساهمت في تغيير الموقف من التاريخ كما أنها ساهمت في تغيير الرؤية النمطية التي صاحبت هذا العلم منذ عصور طويلة من خلال الاتجاهات التي حاولت تفسيره مثل:اتجاه التعاقب الدوري للتاريخ،التفسير البطولي للتاريخ،التفسير المثالي،التفسير اللاهوتي، التفسير المادي،التفسير البيولوجي.

وتأتي مدرسة الحوليات لتدشن عصرا جديدا من التدوين التاريخي، حيث حطمت مفهوم الحتميات والنزعات المختلفة التي رافقت هذا التدوين لعصور طويلة : كالنزعة الدينية والإنسانية، النزعة العقلانية، الرومانسية،الوضعية،التاريخانية، الماركسية، البنيوية. ونستطيع القول إن هذه المدرسة في تاريخ تطور مسار هذا العلم تعد الفيصل المعرفي في تشكل ملامح علم التاريخ بطريقة موضوعية بعيدا عن التحيزات والحتميات التي أطرت الفكر البشري منذ قديم الزمان،ولن نبالغ إذا قلنا أن هذه المدرسة حققت موضوعيتها من الناحية النظرية لكنها من ناحية التطبيق وقعت في شرك الحتميات وبالتالي اتجهت نفس اتجاه المدرسة التاريخانية،مع أنها كانت ترفضها رفضا مطلقا.

وتجدر الإشارة إلى أن تعريف التاريخانية يتحدد ضمن مسار الوعي بمضمرات الفكر البشري وكيفية تطوره، لأن علم التاريخ في هذا الاتجاه سن طريقة خاصة في تفسير الأحداث حيث أصبح لهذا العلم قوانين تفسره وتتحكم به، مما يجعلنا نستطيع التنبؤ بالتاريخ وقد نتج هذا النمط من التفكير عن تيارين أساسيين هما :

1-التطور التاريخي يتم وفق تطور الكائنات الحية،وهو الاتجاه الذي اتبعه هيغل فلسفة تطور الأفكار.

2- تأسيس علم للمجتمع قائم على قوانين التطور الاجتماعي من أهم رواده: Auguste Comteأوغست كونت،و San Simonسان سيمون[2].

ومما تقدم نستطيع القول إن التاريخانية تقوم على مفهوم مركزي واحد وهو النموDéveloppement ، أوالتطورProgress ، بمعنى أن للتاريخ نموذج واحد للنمو وهذا ما رفضته مدرسة الحوليات التي أسست للتاريخية بمنظور أكثر انفتاحا من التاريخانية، حيث أنها تسعى إلى تقويض مبادئ التاريخانية التي رأت فيها تسييجا للفكر الإنساني وقتلا لإبداعه،

جاء في معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية تعريف التاريخانية والتاريخية كما يلي :أما التاريخية «L historicité «فهي صفة لكل ما هو تاريخي مميز عن الخرافي أو الخيالي كما أنها من جهة أخرى ميزة الإنسان الذي يعيش التاريخ ويحياه باعتباره كائنا زمنيا وكائنا تاريخيا . والنزعة التاريخية «Historisme» هي النظر إلى كل موضوع معرفي على أنه نتاج حاضر ناشئ عن التطور التاريخي . أما أصحاب المذهب التاريخي «Lhistorecisme» فيرون أن الأحداث والظواهر الاجتماعية تتصف بالنسبية التاريخية، وهي على ذلك غير قابلة لأن تدرس على غرار الظواهر الطبيعية»[3].وبهذا حاولت مدرسة الحوليات تغيير مسار البحث التاريخي وإعادة ترميم الوعي الإنساني في موقفه من التاريخ والزمن .

1-ارهاصات مدرسة الحوليات وأهم أسباب ظهورها:

بعد خروج العالم من الحرب العالمية الأولى تغيرت معالم الخريطة الفكرية واتسع نطاق البحث العلمي ليطال الاقتصاد باعتباره القطب الأساسي في تحريك عجلة التطور والحضارة، كما وضعت فكرة التقدم Progrès محل التساؤل والجدل خصوصا بعد انفجار الأزمة المالية الكبرى من بورصة وول ستريت Wall Street في أكتوبر 1929 فلقد بدأت «الأسئلة تتوجه إلى الحقل الاقتصادي لاسيما إلى تاريخ الأسعار لفهم ما يجري من انتكاسات وتراجعات وأزمات اجتماعية» [4].

كما أن الحرب العالمية الأولى جعلت من المفكرين يعيدون النظر حول كتابة التاريخ، فلم يعد التاريخ الكلاسيكي يعنيهم، حيث وسعوا دوائر اشتغالهم واستغنوا عن النمطية في الكتابة التاريخية فظهرت بذلك مؤلفات جديدة» من ذلك كتابات شبينغلر Oswald Arnold Gottfried Spengler انحطاط الغرب le déclin de l'accédait سنة 1920 وكتابات أخرى عن أزمة الحضارة الأوروبية عبرت كلها عن اهتزاز يقينيات ما قبل الحرب والالتفات إلى مراكز أخرى (اليابان، الولايات المتحدة) وإلى تجاوز المركزية الأوروبية نحو تعدد الحضارات، وإلى ممارسة نقد الأفكار السائدة الموروثة من القرن التاسع عشر...»[5].

فقد سعى المؤرخ الجديد إلى نقد الأفكار وتمحيصها ورفض كل ما هو سائد في التاريخ وكسر القواعد المنهجية المتوارثة وأعاد صياغة النظرة التاريخية من منطلق المجتمع وقضاياه وبهذا رفض التاريخ السياسي الذي ساد لدى المدرسة المنهجية الفرنسية ومن هذا المنطلق حاول المؤرخ الفرنسي «التفلت من وصاية الدولة على المعرفة، لاسيما المعرفة التاريخية، إنها محاولة الخروج عن التاريخ الرسمي الذي كانت قد فرضته المدارس والجامعات المدرسة المنهجية الفرنسية»[6].

كما تأثر التاريخ الفرنسي في هذه المرحلة بعلم الاجتماع خصوصا بمدرسة دور كهايم David Émile Durkheim الذي أسس عام 1897 مجلة الحوليات السوسيولوجيةL'année Sociologique ويرى هذا

المفكر أن علم الاجتماع يجب أن يستفيد من العلوم القريبة لتعميق مفهوم السببية الاجتماعية للظواهر، كما أكد على أهمية علم التاريخ « إذ يعده جوهريا، ولكن على المؤرخ أن يكتفي بجمع الرحيق الذي يجعل منه عالم الاجتماع عسلا، أما عند ما يطمح التاريخ أن يحلل ويفسر الظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فإنه يصبح في رأي دور كهايم فرعا من علم الاجتماع»[7].

وبهذا مارست مدرسة علم الاجتماع تأثيرا كبيرا على علم التاريخ الفرنسي وما شهده هذا الأخير من تحولات جذرية، جعلته يخرج من حيز التاريخ السياسي إلى رحاب دراسات الحياة الاجتماعية الشاملة. كما شكل الجدل القائم بين علم الاجتماع وعلم التاريخ أرضا خصبة جعلتها مدرسة الحوليات الفرنسية مهدا لدراساتها، كما استفادت هذه المدرسة من أفكار المدرسة التاريخية الألمانية التي تزعمها ماكس فيبر ويرى هذا الأخير بأن المعرفة الإنسانية تلتقي وتتشابك في معالجة الظواهر الاجتماعية والدينية والاقتصادية في كل واحد متكامل وأنه لا يوجد انفصال بين هذه المعارف «لاسيما حين معالجة تعددية الخلفيات والتكوينات والأبعاد، كما هو الشأن في كتاب ماكس فيبر الاقتصاد والمجتمع أو كتاب الأخلاق البروتستانتية والروح الرأسمالية.....»[8].

فقد قدم ماكس فيبر Maximilian Carl Emil Weber في معالجة التاريخ والمجتمع منهجا متكاملا تتعاضد فيه جميع العلوم الإنسانية وذلك من أجل فهم الظواهر والمحطات الكبرى في التاريخ الاقتصادي والسياسي والديني فقد استفاد»ماكس فيبر من المدرسة الألمانية التاريخانية ولكنه تجاوزها لناحية البحث في ما تعنيه الواقعات، كمسائل كبرى في التاريخ العالمي، وتاريخ الحضارات المقارن»[9] .

فقد تخطى مسألة الدوائر المغلقة في معالجة التاريخ وكسر مركزية الرؤية ليجعل التاريخ أكثر مرونة، كما أنه ركز على الربط بين العلوم الإنسانية والاجتماعية من أجل إحراز نتائج أكثر علمية، وما ميز مجهود فيبر أنه استلهم أفكار ماركس وإنجلز لكنه شذ عن أفكارهما التي ربطت بين الدين والاقتصاد بنظرية الانعكاس ورأى بأن الدين والمعتقدات تؤثر بشكل مباشر في جمع الثروة في المجتمعات.

وبهذا فإن رؤية مدرسة الحوليات الفرنسية للتاريخ نتجت عن تأثرها بتيارات فكرية مختلفة أسست للبديل الفكري كما كسرت قيود النمطية التي أعاقت التاريخ في تطوره كعلم، والحديث عن نشأه هذه المدرسة يدفعنا بالضرورة إلى الإشارة إلى تاريخ آخر هام ساهم في تبلورها وبروزها وهو استقلال الألزاس واللورين وعودتهما الى السيادة الفرنسية 1919، وتحولت جامعة ستراسبورغ إلى رمز علمي«وكان المطلوب أن تمحو هذه المنارة العلمية بإشعاعها عار أربعين سنة من الاحتلال الألماني (1872 -1918) وأن يثأر الفرنسيون عمليا من التبحر الألماني المعروف l'érudition، وتم اختيار أحسن الأساتذة الفرنسيين للتدريس بجامعة ستراسبورغ مثل عالم النفس شارل بلوندالCharles blondel، وعالم الجغرافيا هنري بورلينغ Henry Bourling، وعالم الاجتماع موريس هلبواكس Mauric Halbwachs، وعلماء التاريخ مارك بلوخ ولوسيان فافر LUCIEN FEBVRE، ولابد من الإشارة كذلك إلى أن هذه الجامعة كانت تضم كلية الحقوق وكلية دينية ولا جدال في أن تعدد الاختصاصات في جامعة واحدة ينتج تلاقح الأفكار وإخصابها»[10]

وبهذا فإن من أهم أسباب انطلاق مجلة الحوليات الفرنسية هوالتحدي الفكري للفرنسيين ومحاولة إثبات ذواتهم أمام الثقافة الألمانية بعد

استعادة الألزاس واللورين وقد ظهرت مجلة الحوليات تحت «اسم حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي Les annales L'histoire Economique et Sociale 5 جانفي 1929، وصدرت عن دار نشر أرمان كولان collui Armand وكان مديرا المجلة هما لوسيان فافر «Lucien Febvre».....ومارك بلوخMarc Bloch.....وقد تدربا على صناعة التاريخ منذ بداية القرن العشرين في المجلة التاريخية التأليفية La revu Synthèse historique التي أسماها هنري بار عام 1900»[11].

واهتمت هذه المجلة بالمقالات التاريخية التي نوعت مصادرها في البحث عن الحدث التاريخي والتي اعتمدت على العلوم القريبة للعلوم الإنسانية والاجتماعية ومزجت بينها في الدراسة.

وقد غيرت المجلة اسمها عديدا من المرات «حوليات التاريخ الاجتماعي Annales historique et sociale (1939 - 1941)، ثم أمزاج تاريخية Mélanges d'histoire (1942 - 1944)، ثم عادت المجلة التي اسمها القديم 1945 حوليات التاريخ الاجتماعي، وفي عام 1946 ثبت اسم الحوليات: اقتصاديات مجتمعات حضارات – Annales Economies – Société - Civilisation»[12].

تبنت هذه المجلة منهجا مغايرا في معالجة الأحداث التاريخية حيث حاولت قطع صلتها بالتاريخ الوضعي الذي أسسته المدرسة الوضعية الألمانية،ورأت بأن هذه الأخيرة قلصت أهمية التاريخ في «البحث عن الموضوعية فقط وإنما الأهم بالنسبة إلى الحوليات هو شخصية المؤرخ، لأن ما يميز مؤرخا عن آخر، ليس اكتشاف المصادر التاريخية الجديدة وإنما ما يطرحه المؤرخ من أسئلة وجهة على تلك المصادر Histoire - Problème»[13].

وحتى يأخذ التاريخ صفة العلمية حاولت هذه المدرسة صياغة مبادئها ارتكازا على هدم المتعارف والموروث خصوصا التسلسل الكرونولوجي للأحداث وبالتالي رفضت «التاريخ الحدثي Histoire évènementielle»[14]،وأقامت التاريخ غير الحدثي «Histoire non évènementielle»[15].

2-من التاريخ الحدثي الى التاريخ الشامل :

حاولت هذه المدرسة بلورة مفهوم التاريخ الشامل، وذلك بالدعوة لاتحاد العلوم الإنسانية والاجتماعية وأيضا ممارسة الأبحاث الميدانية على أرضية التاريخ المعاصر، كما حاولت أن تبني أفكارها من منطلق السجال النقدي مع المدرسة المنهجية «وبخاصة مع سينوبوس من أجل إبراز عقم التاريخ بأسلوب التسلسل الحدثي،وقد أخذ من كتاب سينوبوس تاريخ روسيا مثالا على سطحية هذا التاريخ حيث لا يرى في المشهد التاريخي كما يقول إلا قياصرة ومآسي قصور ووزراء متأخرين وبيروقراط .... ولكن الحياة الزاخرة الأصلية والعميقة لهذه البلاد، حياة الغابة والسهوب والموجات السكانية المتحركة... والحياة المتفجرة للأنهار والصيادين وللمراكب، ولطرق الترانزيت... ودور العقيدة الارثوذكسية في الحياة الجماعية...والمسائل اللغوية والتعارضات الإقليمية ومسائل أخرى كلها غائبة»[16].

يقر أصحاب هذه المدرسة بالعلاقة الوثيقة بين البيئة الجغرافية وأنماط العيش وقد تأثرت بأفكار عالم الجغرافيا بول فيدال دي لا بلاش « Paul Vidal de la Blache» مؤسس «مجلة حوليات الجغرافيا»، فقد انتقل هذا المفكر في منهجه من الحتميات الجغرافية للمجال الطبيعي أوبمعنى أوضح دراسة

الوسط الطبيعي بعلاقاته المتفاعلة مع الإنسان حيث درس «الجغرافيا من زاوية العلاقة (أرض / إنسان) فعمقت دراسته عددا من المفاهيم «الوسط Milieu»، نمط الحياة «Genre de Vié»، المشهد «الراهنOuotillienneté»، وكانت هذه المفاهيم مرجعا لدراسة مؤرخي مجلة الحوليات، مكنتهم من تعميق دراستهم التاريخية لفهم العلاقة الجدلية بين البشر والمكان»[17].

ودعم هذا الموقف من الجغرافيا مارك بلوخ Marc Blochحيث أقر بأن التاريخ وحده لا يكفي للوصول للحقيقة التاريخية الشاملة، وأن الوثائق على الرغم من دعمها للجانب الموضوعي إلا أنها تظل قاصرة على الإحاطة بالواقعة التاريخية لذلك أصر على أن التاريخ يجب أن يدعم بعلوم أخرى كالأنثروبولوجية وعلم الآثار وخصوصا علم الجغرافيا لما لهذا العلم من أثر كبير على رصد الظواهر التاريخية ضمن حيزها الجغرافي وما يمتاز به ذلك الحيز من مواصفات ومميزات تؤثر على بنية الحدث وكيفية تبلوره، فمارك بلوخ كزميله لوسيان لوفافر LUCIEN FEBVRE» يقر بأهمية الوثائق وأهمية التبحر بمعطياتها ومفرداتها وجزئياتها لكن هذا لا يكفي لأنه لا ينبغي بالاكتفاء بالوثائق وتصديقها كمصادر للتأريخ، إن ركام الوثائق Stockالتي يمتلكها التاريخ ركام غير محدود ولا يقتصر التأريخ على الوثائق المكتوبة، يمكن استكمال دراسة الحركات السكانية والهجرات من خلال المقابر الأثرية في منطقة من المناطق أو حضارة من الحضارات، ثم إن المعتقدات والمشاعر والعواطف يمكن أن تنبئ عنها الصور والرسوم والتماثيل أكثر مما تنبئ عنها النصوص»[18].

فمارك بلوخ Benjamin Bloch Léopold Marc لا يدعوإلى اكتشاف مصادر جديدة للتاريخ فقط بل هو يركز على علاقة التاريخ بغيره من العلوم وهي النقطة الجوهرية التي انبثقت عليها مدرسة الحوليات وحاولت أن تؤسسها كمبدأ خاص في معالجة الحدث التاريخي وفي ممارسة عملية التاريخ. وبوفاة لوفافر LUCIEN FEBVRE عام 1956 تولى رئاسة المجلة ..... بردويل «Fernand Braudel»، وقد حققت هذه المدرسة برئاسته نتائج باهرة على مستوى الدراسة التاريخية، حيث أن هذا المؤرخ سعى إلى إلغاء فكرة المركزية الأوروبية، وفتح المجال أمام الفكر العالمي، وهذا ناتج عن آثار الحرب العالمية الثانية، كما اتجهت المجلة إلى الاهتمام بالمسائل الاقتصادية وكان أثر ماركس واضحا فيها وهذا الاهتمام راجع إلى ما خلقته الحرب الثانية من دمار شامل على جميع المستويات والأصعدة «وقد ظهرت على المجلة دراسات متينة عن النشاطات الاقتصادية وعن الموانئ والهياكل العائلية وعن ظاهرة التمدرس..... إلخ وظهر في صلبها شغف بالتاريخ الجدولي l'histoire Sérielleالذي يعتمد على تحويل كم هائل من الوثائق حول نفس الموضوع إلى جداول رقمية مفيدة جدا»[19].

ومع بداية الستينيات هيمنت الأنثروبولوجيا البنيوية وتأثرت بها مجلة الحوليات، خصوصا بأفكار رائدها كلود ليفي شتراوس «Claude Lévi-Strauss «وبهذا تداخلت موضوعات البحث بين المؤرخين والإنتولوجيين فأثرى مجال البحث وانكسرت الحدود بين العلوم وتداخلت فيما بينها، كما تجادل العلمان حول مفهوم البنية وحاول كل منهما تحديد ما تعنيه هذه البنية وظيفيا ونفعيا بالنسبة لحقل اختصاصهم»[20].

وحاول كلود ليفي شتراوس-Claude Lévi Strauss أن يضع مجموعة من المبادئ التقنية التي تحدد معنى البنية وترصد دلالاتها مفاهيميا وإجرائيا

وذلك بعد وضعها ضمن جملة من المصطلحات والمبادئ الإجرائية من أجل بلورتها كمفهوم لغوي لساني وكمفهوم اجتماعي وكاتجاه مستقل يمارس حضوره عن طريق التجلي، ونقصد بالمستقل أن البنية في نظر هذا المفكر أخذت أهمية كبيرة لدرجة أنها تحولت إلى اتجاه أساسي داخل منهجه الفكري، فمن خلال مفهوم البنية في بعدها الاجتماعي تتضح الرؤية وتستقيم، وحتى يحدد مفهوم هذه الأخيرة فقد سعى إلى ترتيب أفكاره وتمحيصها من أجل الخروج بنتيجة موضوعية أول هذه الأفكار، هي التخلي: «عن فكرة الاثنية المركز الأوروبية التي تحكمت بأعمال الكثير من المؤرخين والباحثين الاجتماعيين الغربيين، كانت هذه الفكرة تشدد على تبني المقولة الحالية : إن مختلف الحالات التي تفسدها المجتمعات البشرية ماهي إلا مراتب أودرجات Etapes على طريق نموالإنسانية»[21].

وبهـذا حدد مراحل تكون المجتمع بالمراتب أوالدرجات هذه المراتب أوالدرجات لا تتحرك إلا وفق مفهوم التقدم والتطور هذا الأخير الذي يساهم في تبلورها ارتكازا على جملة من البنيات الداخلية التي تمنحها ملامحها ومميزاتها الخاصة. والتقدم في رأي كلود ليفي شتراوسClaude Lévi-Strauss «لا يحصل بحكم الحتمية أوالضرورة أوبحكم الديمومة أوالاستمرارية فهو-أي التقدم بهذا المعنى الأحادي– ليس ضروريا وليس دائما، فقد يحصل عبر فقرات (Souts) أوعبر طفرات Mutationوباتجاهات مختلفة وليس باتجاه واحد، يضاف إلى أن هناك مجتمعات قد تكون أكثر تراكمية «Cumulatives» من أخرى في مجال اكتساب مهارات من هذا النوع وقد تجمد في مرحلة وتنمو في مرحلة أخرى»[22].

فالبنيـة هنا تحدد حسبه باعتبارها جملة الخصائص المميزة لكل مجموعة بشرية أوطائفة ثقافية أو فكرية، وهذه الخصائص تظهر للعيان من خلال مظاهر التقدم الحاصل على مستوى المجتمع ويرى بأن التقدم لا يحصل بفعل الحتمية وإنما التطور قد يحصل بفعل تراكم الخبرات، وأن التقدم كمعيار يختلف في تجليه وحدوثه من أمة إلى أخرى، وهو بهذه الفكرة يناهض التاريخانية التي تقول بفكرة التطور المغلق الذي يسير وفق خط واحد، فالتراكم في الثقافة لا يعني سكونها، بل أن التقدم هو ناتج طبيعي للمجتمعات المتفاعلة مع غيرها «فاحتمال التقدم من نصيب الثقافات التي توصلت إلى إنجاز أكثر أشكال التاريخ تراكمية ليست من صنع ثقافة معزولة، بل من صنع ثقافات تفاعلت فيما بينها بإرادتها أو بقراراتها عن طريق الهجرات الاقتصاديات والمبادلات التجارية بل عن طريق الحروب أيضا»[23].

وبهـذا فإن شتراوسClaude Lévi-Strauss يفرض الأحادية التطورية التي فرضتها التاريخية، والتي تجعل من التاريخ يسير وفق اتجاه واحد مستقيم ويتقولب ضمن النتيجة الحتمية الناتجة عن السببية وهوما يسمى بفكرة التبوء* كما يرفض شترواس التاريخ الذي يقوم باستقراء الأحداث التاريخية من خلال الوثائق استقراء ظاهريا غير معمق، فعلى التاريخ أن لا يكتفي بظاهر الحدث وإنما يحاول الغوص في كنه الأحداث «وسبر أغوار الحضارات وتفسير السلوكيات والمعيش وعقل ما يبدوغير معقول في الرموز والأساطير واللغة وشتى تعابير الحياة اليومية لدى الجماعات والشعوب»[24].

فالتطـور التاريخي الذي يراهن عليه شتراوس مرهون بفكرة تحليل بنية الإنسان الثقافية، فلكل

ثقافة بنيتها الخاصة التي لا تقرأ من ظاهر الخطاب أومن ظاهر الوثيقة بل يجب الغوص أعمق لاكتشافها لأن هذا التطور هوالذي يكشف الأشكال الراهنة من الحياة الاجتماعية، لذلك يصر على دراسة التاريخ من الجانب الإثنولوجي حتى يتمكن من رصد الحقائق مركزة وأكثر موضوعية لأن الإثنولوجيا تنبش في التغييرات وعلاقاتها مع الشروط اللاواعية للحياة الاجتماعية»يفهم من ذلك أن التاريخ يقع في حيز القيل le dit وفي مستوى الظاهر البين Manifesteوعلى سطح المشاهدات، في حين أن الإثنولوجيا تبحث فيما هوتحت القيل وفي ماهوخلف الظاهر، وذلك باستخدامها طرائق الألسنية ذلك بأن الثقافة تنظم المسلكيات (اليومية) كماهوحال اللغة التي تشكل نموذجا للخطاب Modeleبمعزل عن وعي الفرد المتكلم إذا بالمقدور ونحن نتسلح بالأداة لمعرفية الألسنية، أن نتوصل إلى البحث في البنية اللاواعية الكامنة خلف كل مؤسسة، أووراء كل عرف أوتقليد coutume بهدف الوصول إلى مبدأ في التفسير صالح لتفسير مؤسسات أخرى وأعراف أخرى»[25].

وبهذا يحاول كلود ليفي شتراوس من خلال البحث عن البنية ومفهومها ومن خلال علمي التاريخ والنياسة، أن يصل الى البنيات العميقة التي تشكل المجتمعات عن طريق تحليل الصورة الواعية في المجتمع للوصول إلى الصور غير الواعية، لأن هذا العلم لا يمكنه إغفال «تعاقب الأحداث وتقلبات الزمن ولكنها من جهة أخرى لا تتناولها ولا تعتبرها إلا من أجل غربلتها لتصفية «المعطيات البنيوية»، كما أنها حينما تأخذ التغييرات الواعية للظواهر الاجتماعية (أي ما يسميه المؤرخون معطيات) فإنها تخضعها للدراسة لتجد من خلالها البنية المخبأةStructure Cachot، تهدف الإثنولوجيا في منظور – ليفي شتراوس- إلى الوصول عبر الصور الواعية والمتنوعة والمختلفة والتي بتمثلها البشر في صيرورتهم إلى جردة من الممكنات اللاواعية «possibilités inconsciente»التي تقدم عبر دراسة علاقاتها نوعا من الهندسة المنطقية لتطورات تاريخية، قد تبدو غير مرتبة ولكن ليست أبدا اعتباطية بالضرورة »[26].

ونجد لهذه الأفكار امتدادا لدى بردويل Fernand Brodwel لكنه يؤكد بصفة أساسية على أهمية علم التاريخ وأن هذا الأخير يهتم أيضا بالبنية التي تحول إلى شيء أساسي فيه، ويرى بردويل على عكس ليفي شتراوس بخصوص دراسة الأشكال الواعية ضرورة التنقيب على البعد الاجتماعي» في طبقات المدد الطويلة من الزمن التاريخي، إن البنية لا تظهر ولا يمكن أن تدرس من خلال المدد القصيرة أوالمتوسطة، إن التاريخ ذا الاتساع الزمني هوتاريخ البنى ومن هذا الباب يمكن أن نفهم معنى البنية بالمفهوم الذي يدعوإليه بردويل،نعني بالبنية من وجهة نظر دارسي الموضوع الاجتماعيLe social تنظيما Organisation وإطارا متماسكا Cohérences من علاقات ثابتة نسبيا وبين وقائع Réalités وكتل أومجموعات اجتماعيةMasses Sociales، بالنسبة إلينا نحن المؤرخين البنية هي لا ريب نوع من هندسة بنائية Architecture وتركيب Assemblage ولكنها أيضا واقع أوحقيقة واقعية Réalité يحملها الزمن ببطئ. إن بعض البنى ذات الزمن الطويل، تصبح عناصر ثابتة لأجيال غير متناهية هذه البنى تطغى على التاريخ، تعيقه أو تقود جريانه، هذا في حين أن بنى أخرى تكون أكثر قابلية للزوال.....»[27]

فالبنية عند بردويل متحركة وديناميكية ذات بعد تاريخي وزمني وهي جزء من الزمن الدائم المنتهي لا الزمن الأبدي، فهي التي تؤثر على سلوكيات الأفراد

ونمط تفكيرهم وعيشهم كما أن هذه البنى تتشكل وفق نظام اجتماعي متعدد البنيات بمدد متغيرة أو بمعنى أوضح ليس شرطا أن تتطور كل البنيات مع بعضها البعض، فقد تتطور بنية وتتأخر أخرى وبهذا«مفهوم البنية عند برودويل حية ومتحركة بسرعات ذهنية مختلفة وهي متعددة وليست لها معنى البنية التحتية الماركسية من جهة وليست هي ما تحت الواقع en deçà du Reel كما هي عند ليفي شتراوس من جهة أخرى إنها تعبر عن خطوط القوة ونظامات المعيش المرئيLe Vécu Perçu» [(28)]

وبهذا فإن برديل يقوم بعملية الجدل والمماحكة الموضوعية لمبادئ العلوم ويحاول الاستفادة منها قدر المستطاع لتطويعها من أجل الوصول إلى نتائج موضوعية، وإن خالف هذا المفكر آراء المدارس والمناهج الأخرى فهذا الخلاف بناه على أسس موضوعية داعما موقفه بالحجج والبراهين ونجد هذا الموقف يتجلى أيضا في ردة فعله على فكرة الأشكال الواعية1 التي سنها شتراوس والتي أشرنا إليها سابقا، حيث نجد برديل يرفض رفضا مطلقا الفصل بين الأشكال الواعية والأشكال غير الواعية وفي هذا يقول «إن الانطلاقDépart بين السطح الواضح والأعماق المظلمة، بين الضجيج والصمت صعب والوصول غير أكيد هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن التاريخ الذي نسميه تاريخا لا واعيا غالبا ما يكون مرئيا أكثر مما نتصور، من هنا كانت المهمة المنوطة بالعلوم الاجتماعية وخاصة بالتاريخ، إيضاح نسبة الظلمة، وذلك من خلال تصور نماذج مفسرة ومحددة تكون بمنزلة فرضيات وسستمات (أنساق) تفسير مترابطة فيما بينها على صيغة معادلة (Equation) أوصيغة عامل (Fonction)» [(29)]

كما اختلف برديل عن شتراوس في فكرة الواقع والنماذج واعتبر أن النماذج «هي أدوات لوصف الواقع المدرك في لحمته العميقة يمكن أن تكون ثابتة أو ديناميكية ميكانيكية عندما يتعلق بمجموعات صغيرة من البشر أو إحصائية عندما يتعلق الأمر بجماعات واسعة، هذه النماذج يمكن نقلها وتطبيقها على بيئات اجتماعية من الطبيعة نفسها ولكن في كل الحالات يجب إخضاعها للمدة الطويلة، أو المدى الزمني الطويل، لنرى هل طرأ تغير أو تحول بالعودة إلى البنية الأصلية، هكذا يشدد برديل على خصوصية التاريخ بإخضاع مفاهيم البينيوية إلى قانون الزمن التاريخي» [(30)].

فالزمن التاريخي هنا لا يتحدد وفق مفهوم الزمن الأبدي المنتهي كما في التاريخانية ولا يتحدد أيضا وفق الزمن الارتدادي والتراكمي كما عند ليفي شتراوس وإنما الزمن التاريخي هو ذلك الامتداد المستمر والمنتهي عند نقطة محددة، هذه النقطة تحددها النماذج لتعكس صور التقدم، فالزمن التاريخي يتدرج ضمن سياق مفاهيمي يؤسس للانفتاح غير المشروط أو الانفتاح غير المربوط بفكرة التبوء لأن التاريخ يركز على قراءة الخصائص والتحولات غير أن برودويل ورغم سعيه الجاد في تخليص التاريخ من فكرة النسق المغلق إلا أنه وقع في فخ الحتميات ومن أبرز الحتميات التي تحدث عنها : الحتمية الاقتصادية والاجتماعية والجغرافية وقد قام بتقسيم الزمن إلى ثلاث أزمنة:

1- الزمن الجغرافي أو الزمن الجغرافي التاريخي أو الزمن الطويل الأمد وهو الأهم في نظر برودويل، وهوزمن شبه راكد وبطيء جدا ويهم تاريخ علاقة الإنسان بمحيطه الجغرافي (المجتمعات الزراعية

حيث التقنية محدودة جدا والفضاء والمناخ والتضاريس والسواحل البحرية أشياء رئيسة جدا).

2- الزمن الاقتصادي والاجتماعي: أو الزمن الطرفي أو الدوري وهوزمن أمده متوسط والتغيير فيه بطئ ويهم المجموعات البشرية وٱقتصاديات والدول.

3- الزمن السياسي الفردي أو الزمن الحدثي: وهوزمن أمده قصير وهو التاريخ الوقائعي وهوزمن الأفراد وزمن التاريخ التقليدي القائم على الأشكال الحكومية والسياسية والعسكرية والفنية، وقيمة هذا الزمن ثانوية جدا فهو هيجان سطحي وتاريخ ذو ذبذبات قصيرة وسريعة وعصبية والمطلوب في رأيه الصعود من الأمواج إلى المد والجزر»[31].

ومن خلال تقسيم بردويل Fernand Paul Achille Braudel للزمن نلاحظ أن التاريخ لا يستطيع أن يخرج عن نطاق الحتمية، وأن التاريخ عبر تعاقبه فإنه يسير ضمن حيز اجتماعي أو اقتصادي أو جغرافي أوديني وثقافي يحدد ملامحه العامة ويجعله ينتهي عند نقطة معينة معروفة سابقا، هذه النقطة وإن اختلفت في مظاهرها وبنيتها عن النموذج Modelésوتبلورت عبر المدد الطويل إلا أنها وصلت لمرحلة الانتهاء بفعل الحتميات المذكورة، وبهذا تسقط تاريخية مدرسة الحوليات في فخ الحتمية وبهذا تتحول إلى تاريخانية منتقلة في ذلك من إطار الزمن المنتهي الأبدي إلى الزمن المنتهي الارتدادي وهذا ما انتهى إليه برودويل في معنى التاريخ حيث قال في آخر أيامه: «أعتقد أن الإنسان ليس حرا....... وماركس مخطئ بنسبة 50 % عندما قال إن الناس يصنعون التاريخ، إن الثابت هو أن التاريخ هو الذي يصنعهم وهم يخضعون له ...... إن التاريخ الإرادي وهم ونقطة ماء في محيط»[32].

ومما تقدم نستطيع القول إن الفكر التاريخاني تحول إلى منظومة من القيم تؤطر الفكر الإنساني وتتحكم به، اذ لا يستطيع هذا الفكر أن يتموقع خارج مجال الحتميات التي تحيط به،لذلك تحولت هذه الحتميات إلى قواعد راسخة تتنوع وتختلف باختلاف منطلقات المؤرخين واتجاهاتهم، كما أن التاريخية التي حاولت أن تؤسسها مدرسة الحوليات والقائمة على مبدأ التطور والتغيير في آخر مطافها تحولت إلى تاريخانية بصيغة جديدة، صحيح أنها خرجت من مجال التنبؤ التاريخي اللاهوتي وحطمت مصداقيته لكنها انبنت على التنبؤ التاريخي العلمي النسبي القائم على الافتراضات والحقائق والمقاييس الاجتماعية والاقتصادية وغيرها، كما أن الإيديولوجية التي رفضت في التاريخانية كرست في التاريخية وفق معادلة الحتميات: اقتصادية اجتماعية جغرافية... وأيضا تحت ما يسمى مبدأ الثقافة التراكمية .

فالتاريخية –حسب ما سبق- تحمل مدلولا ايجابيا يسعى إلى تطوير الوعي البشري، حيث أصبح الإنسان فاعلا في تاريخه منتجا ومؤثرا،يعي اللحظة التاريخية بمرونة ويتفاعل معها،فالتاريخية هي امتياز الإنسان حيث تخرجه من بوتقة السياجات المغلقة لتفتح أمامه مجال الابتكار والتغيير، فهو بذلك يسير وفق مسار التحول ويتفاعل معه ويعيه وعيا تاما، فهو وحده صانع لتاريخه .

بمعنى أوضح أن الظواهر الاجتماعية بما فيها التاريخ تسير وفق قانون التطور والتغيير،وبالتالي لا يمكننا فصلها عن التاريخية بصفتها قانونا لكلية العالم وتجليه . فالتاريخانية والتاريخية تختلفان في فكرة الثبات وتشتركان بفكرة التطور لكن التطور الذي تنشده التاريخانية هو تطور معروف سابقا ينحى منحى تطور الكائن الحي في مراحل نموه وفنائه،وعلى الرغم من أن التاريخانية رفضت فكرة الدائرية المطلقة والتكرار المطابق للأصل، إلا أنها

وقعت في فخ التنبؤ وهذا ما رفضته التاريخية وأكدت عليه، فالتاريخية تحاول أن تتعامل مع الظواهر الإنسانية بمرونة مطلقة كما أنها لا تستثني الأساطير والخرافات والحكايات المتوارثة الشفوية والدين على اعتبار أنها أشياء محفزة للمخيال الشعبي كما أنها تساهم في بنائه، وهذا ما رفضته التاريخانية وأصرت على إلغائه بوضع العقل والوثيقة التاريخية المادية من أساسيات التفسير التاريخي، وهي ترفض كل الأحداث المتافيزيقية التي تدخل في تشكيل المخيال كما أنها ترفض الأحداث غير الموثقة .

وما نلاحظه أن الفرق بين التاريخية والتاريخانية فرق وإن بدا جوهريا إلا أنه فرق شكلي فقط ويعتبر أركون*أول من حاول التركيز على التفريق بين المصطلحين، لكن المتأمل لكلا الحقلين يجد أن التاريخية والتاريخانية تسيران وفق خط متقاطع وأن هناك الكثير من العلماء من يتعامل مع المصطلحين على أنهما واحد .

الإحالات والهوامش :

1 وجيه كوثراني:تأريخ التاريخ،اتجاهات مدارس،مناهج إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسات سياسية،ط1 2012، ص25

2المرجع السابق،ص164 بتصرف

3 - جلال الدين سعيد :معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية،دار الجنوب للنشر،تونس،2004،دط،ص 84

4 - وجيه كوثراني :تأريخ التاريخ،ص 199

5 -المرجع السابق :ص 200

6المرجع السابق:ص200

7-المرجع السابق ،ص201

8-المرجع السابق ،ص202

9-المرجع السابق،ص203

10لهادي التيمومي ،المدارس التاريخية الحديثة،دار التنوير للطباعة والنشر،لبنان بيروت،ط1،2013،ص179

11-المرجع السابق ،ص180

12-المرجع السابق ،ص 180

13 -المرجع السابق ،181

14 الهادي التيمومي ،المدارس التاريخية الحديثة،ص 181

15 - وجيه كوثراني ،تأريخ الكتابة التاريخية،ص.203

16المرجع السابق ،ص208.

17المرجع السابق ،ص204

18وجيه كوثراني،تأريخ التاريخ،ص209

19الهادي التيمومي،المدارس التاريخية الحديثة،ص186

-المرجع السابق،ص222 (20)

21المرجع نفسه ،ص223

22المرجع السابق ،ص224

23المرجع السابق ،ص 224

*-التنبوء: وهي فكرة نادى بها أصحاب اتجاه التعاقب الدوري في تفسير التاريخ، فالتاريخ حسب هذا الاتجاه يخضع لمجموعة من الدورات التي تفرض نفسها في كل مرحلة تاريخية والإنسان خاضع لها، "فكل شي يختفي من الوجود يعود مرة أخرى من جديد،وهي حلقات متشابهة كل بداية لابد ان يعقبها نهاية، وكل نهاية يعقبها تكرار للبداية الأولى، ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن التاريخ يسير في صيرورة وديمومة دائرية يخضع لها الإنسان والشعوب والحضارات"،انظر أنور محمد زناتي :علم التاريخ واتجاهات تفسيره ص 79 كما نجد هذه الفكرة عند بعض مؤسسي مدرسة الحوليات مثل: مارك بلوخ نظرية التاريخ التراجعي،بردويل.....

24 –المرجع السابق :ص224-225

25– Gye Bourdé et martin Hervé, les écoles historiques (paris : Seuil, 1983 et 1997).

26- وجيه كوثراني، تأريخ التاريخ،ص226

27 المرجع السابق، 229

28-المرجع السابق ص،230،229

29– المرجع السابق، ص230

30- المرجع السابق، ص.230

31 الهادي التيمومي ،المدارس التاريخية، ص186

32 المرجع السابق ،ص 186

-*-ينظر محمد اركون : تاريخية الفكر العربي الاسلامي

-محمد اركون :القران من تفسير الموروث الى تحليل الخطاب الديني - محمد اركون : الفكر الاسلامي قراءة علمية.

REFERENCES BIBLIOGRAPHIQUES

(1) Grandguillaume. G. « Arabisation et langues maternelles dans le contexte national au Maghreb», URL :< http://grandguillaume.free.fr/ar_fr/arlangma.html>.

(2) Grandguillaume. G. « Algérie, la politique linguistique d'arabisation », URL :< http://www.tlfq.ulaval.ca /axl/afrique/algerie-3Politique_ling.htm>.

(3) Grandguillaume, G. *Arabisation et politique linguistique au Maghreb*, Paris, Editions Maisonneuve et Larose, 1983, p. 106

(4) Ordonnance n° 68-92 du 26 avril 1968, *Journal Officiel de la République Algérienne*, n°36, Alger, Imprimerie officielle de l'Etat, mai 1968

(5) Grandguillaume, G. *Ibidem.*

(6) Décret n°69-9 du 08 février 1969, *Journal Officiel de la République Algérienne*, n°94, Alger, Imprimerie officielle de l'Etat, février 1969

(7) Grandguillaume, G. *Ibidem.*

(8) Grandguillaume, G. *Op.cit*, p. 107

(9) Ordonnance n° 71-2 du 20 janvier 1971, *Journal officiel de la République Algérienne*, n°102, Alger, Imprimerie officielle de l'Etat, 22 janvier 1971

(10) Arrêté interministériel du 21 mars 1973, *Journal officiel de la République Algérienne*, n°336, Alger, Imprimerie officielle de l'Etat, avril 1973

(11) Grandguillaume, G. *Op.cit*, p.108

(12) Grandguillaume, G. *Op.cit*

(13) Grandguillaume, G. *Op.cit*, p.108

(14) Zenati, D. « L'Algérie à l'épreuve de ses langues et de ses identités : histoire d'un échec répété», URL :< http://mots.revues.org/index4993.html. >.

(15) Grandguillaume, G. « Algérie, la politique linguistique d'arabisation », URL :< http://www.tlfq.ulaval.ca /axl/afrique/algerie-3Politique_ling.htm>.

(16) Loi n°91-05 du 16 janvier 1991, *Journal Officiel de la République Algérienne*, n°3, Alger, Imprimerie officielle de l'Etat, janvier 1991

(17) Zenati, D. *Op.cit*

(18) Décret législatif n°92-02 du 04 juillet 1992, *Journal officiel de la République algérienne*, n°54, Alger, Imprimerie officielle de l'Etat, 15 juillet 1992

(19) Ordonnance n°96-30 du 21 décembre 1996, *Journal Officiel de la République Algérienne*, n°81, Imprimerie officielle de l'Etat, décembre 1996

(20) Grandguillaume. G. « Algérie, la politique linguistique d'arabisation », URL : <http://www.tlfq.ulaval.ca/axl/afrique/algerie-3Politique_ling.htm>.

(21) Abréviation de *General Agreement on Tariffs and Trade*, qui signifie en français *Accord général sur les tarifs douaniers et le commerce*, accord, signé en 1947 à Genève, qui a fourni le cadre des grandes négociations commerciales internationales, mises en œuvre, depuis 1995, par l'Organisation mondiale du commerce (OMC).

(22) Chachou. I. *Aspects des contacts des langues en contexte publicitaire algérien: Analyse et enquête sociolinguistiques*, Thèse de doctorat en sciences du langage sous la direction de Philippe Blanchet et Anissa Lounici, Université de Mostaganem, document publié en ligne, 2011, p.149

(23) Derradji. Y. « Le français en Algérie : langue emprunteuse et empruntée », URL :< http://www.unice.fr/ILF-CNRS/ofcaf/13/derradji.html>.

(24) Bedjaoui, M., cité par Mebarki Mohammed, In *Sauver l'Université*, Editions Dar El Gharb, Oran, 2003, p.41.

ses échanges écrits permanents avec les différentes représentations diplomatiques étrangères accréditées en Algérie. En outre, l'administration du commerce avait recours de façon régulière au français mais aussi à l'anglais afin de traiter et de suivre l'aboutissement des contrats commerciaux signés à la faveur de la libéralisation de l'économie et des échanges commerciaux algériens après l'entrée en vigueur des accords du GATT [(21)] qui deviendra plus tard l'Organisation Mondiale du Commerce.

Le pragmatisme était donc la raison principale qui avait amené la législation algérienne à revoir le contenu de la loi de 1991 pour la rendre plus flexible et plus malléable quant aux langues étrangères et surtout la langue française qui est restée, en raison d'impératifs et en fonction de la nature de certains services administratifs, présente et fortement ancrée en tant que langue professionnelle malgré les interdictions officielles.

Conclusion

Au lendemain de l'indépendance du pays, un rapport de force a marqué la question des langues au travail en Algérie entre réalité sociolinguistique et mesures législatives imposées par l'Etat. Ce rapport de force a pris la forme de liens souvent conflictuels entre courants arabophone et francophone au sein des institutions professionnelles.

Nos enquêtes de terrain nous ont révélé cependant que malgré la promulgation d'une batterie de plusieurs textes législatifs consacrant la langue arabe littéraire comme langue de travail et de communication en milieu administratif depuis le décret du 22 mai 1964 et jusqu'à l'ordonnance n°96-30 du 21 décembre 1996, le français est encore utilisé dans sa dimension orale et écrite en tant qu'outil d'activité professionnelle dans les administrations, prétendant à une situation de *co-officialité* et à un statut de *langue co-institutionnelle* selon la qualification empruntée au linguiste et universitaire algérien Abderrazak Dourari, cité par Ibtissem Chachou [(22)].

Cette situation de perpétuation de l'usage du français est loin d'être le résultat d'une volonté manifeste de non respect des textes de lois ou encore de mépris et de dénigrement de la langue arabe. Elle se veut plutôt comme une alternative pour faire face à ce que le sociolinguiste algérien Yacine Derradji qualifie d'*Impératifs d'interaction sociale* [(23)] en milieu professionnel où la langue arabe a montré certaines limites.

Cela témoigne aussi de la richesse du paysage administratif algérien sur le plan sociolinguistique, loin des querelles linguistico-identitaires qui avaient secoué le contexte professionnel en Algérie au lendemain de l'indépendance et jusqu'au milieu des années 1990, date du dernier texte voté en faveur d'une arabisation administrative massive. A ce titre, Mohammed Bedjaoui, Ministre algérien de la Justice entre 1964 et 1971 et des Affaires étrangères entre 2005 et 2007 avait affirmé que : « *Le plurilinguisme est une nécessité du monde contemporain et plus que jamais, je crois, une nécessité pour mon pays qui se veut fidèle à la tradition, mais indissolublement moderne et tourné vers l'avenir* [(24)]. »

1.4.1. Ordonnance n°96-30 du 21 décembre 1996

Tout comme la loi n°91-05, l'ordonnance n°96-30 reprend avec insistance l'interdiction pour les institutions administratives algériennes d'avoir recours à une autre langue que l'arabe dans ses rapports professionnels principalement ceux à caractère épistolaire [(19)]. Sans distinction de secteur d'activités et donc valable aussi bien pour les administrations de la fonction publique que celles du domaine technico-économique, l'ordonnance de 1996 est venue consolider et renforcer le contenu de la loi de janvier 1991 mais également la réactiver après que celle-ci avait été gelée en 1992. L'impulsion du courant islamo-conservateur demeure, selon Gilbert Grandguillaume, la raison principale du dégel du texte de 1991 et de sa re-promulgation sous forme d'une ordonnance reprenant presque article par article le contenu de la loi sus-indiquée [(20)].

A titre indicatif, nous prenons l'exemple de l'article 11 de l'ordonnance n°96-30 relatif à la langue écrite en milieu administratif. Cet article reprend les mêmes dispositions édictées dans le même article 11 de la loi de janvier 1991 relatives à l'obligation de l'usage exclusif de la langue arabe dans les échanges et les correspondances entre toutes les administrations quelque soit leurs domaines d'activités. En effet, l'alinéa 1 de cet article stipule que : *« Les échanges et les correspondances de toutes les administrations, entreprises et associations, quelle que soit leur nature, doivent être en langue arabe. ».*

Toutefois, la modification apportée à cet article prend la forme d'un ajout d'un deuxième alinéa inexistant dans le même article (article 11) de la loi de 1991. L'alinéa 2 prévu dans l'article 11 de l'ordonnance de décembre 1996 met l'accent sur le fait que les échanges écrits sous forme de correspondances avec des institutions et organismes étrangers peuvent se faire dans la langue de l'institution et de l'organisme en question. Cette disposition non prévue en 1991 marque un changement significatif dans les pratiques linguistiques administratives dues au début de l'ouverture du marché du travail algérien au partenariat étranger.

L'année 1996 avait en effet marqué le commencement de tractations entre institutions algériennes et étrangères y compris françaises et francophones afin de faire bénéficier l'Algérie d'expériences en matière de gestion et de production. Or, la réalité qui devait être prise en ligne de compte par les législateurs algériens était de prendre le soin de prévoir, par besoin et sous forme de texte juridique, la possibilité de ne pas faire de la langue arabe une langue exclusive de travail dans les administrations publiques. Cette mesure était donc impérative car elle intervenait au moment où le milieu administratif est appelé à se mettre au diapason des nouvelles techniques et modalités de fonctionnement mondiales qui ne peuvent être acquises sans création de contact avec les pays dépositaires de ces nouvelles modalités. Dans ce cas, parler de contact algéro-étranger implique par conséquent l'usage de la langue du partenaire.

En ce qui concerne le domaine administratif, la langue française était utilisée dans les correspondances de l'administration diplomatique nationale dans

ressortissants français d'origine algérienne ou encore les actes de mariage pour les couples d'Algériens qui ont scellé leur union en Algérie avant de s'établir en France. Pour ce cas particulier, l'alinéa 2 de l'article 32 déclare que : *« Toutefois, il est possible de signer des documents traduits destinés à l'étranger. »*

Quant à l'article 33 faisant office de résumé, il vient rappeler que tous les articles de cette loi, qu'ils soient relatifs au code écrit ou oral, doivent être scrupuleusement respectées et appliqués sous peine également de sanctions financières. Concrètement parlant, il est écrit que : *« Les responsables des entreprises privées (…) qui contreviennent aux dispositions de la présente loi sont passibles d'une amende de 1000 à 5000 DA (dinars algériens). En cas de récidive, il est procédé à la fermeture temporaire ou définitive du local ou de l'entreprise.»*

Ce genre de sanctions qui n'existait pas dans les dispositions des textes législatifs précédents rend la loi n°91-05 particulièrement sévère à l'égard des fonctionnaires qui continuent d'utiliser la français dans l'exercice de leurs fonctions mais nous pouvons déduire aussi que si le contenu de cette loi est aussi rigoureux et austère c'est parce que tous les textes législatifs promulgués jusque là par l'Etat avaient connu une certaine caducité en termes d'application. Loin d'être le résultat d'un dénigrement de la langue arabe, ce manque d'application des textes précédents était plutôt dû à des facteurs tels que la formation francophone des fonctionnaires ou encore la difficulté avérée d'arabiser des activités fortement empreintes de technicité et dont l'arabisation pouvait freiner l'évolution et rendre plus compliquée.

En janvier 1992, après la démission du Président Chadli Bendjedid et l'installation du Haut Comité d'Etat (HCE) avec à sa tête le Président Mohamed Boudiaf, celui-ci, et après consultation du Conseil Consultatif National qui avait remplacé pendant un moment l'Assemblée nationale dissoute, avait décidé de geler la loi portant généralisation de l'utilisation de la langue arabe de janvier 1991, estimant, selon Djamel Zenati, que *« les conditions pour la généralisation de l'arabe n'étaient pas réunies* [(17)]». Le gel de la loi a été promulgué officiellement par le décret législatif n°92-02 du 04 juillet 1992 [(18)].

1.4. L'époque de Liamine Zeroual (1994-1999)

Succédant à celle du Haut Comité d'Etat (HCE) à partir de 1994, la période de présidence de Liamine Zeroual avait elle aussi été marquée comme celle de Chadli par

la mise en place d'un autre important texte législatif portant généralisation de l'utilisation de la langue arabe et interdisant de fait l'utilisation d'autres langues étrangères dans les situations de communications formelles y compris en milieu administratif. Le nouveau texte qui vient réactiver, modifier et compléter la loi n°91-05 de janvier 1991 avait pris la forme d'une ordonnance votée à l'unanimité par le Conseil Consultatif National en date du 17 décembre 1996. Cependant, la principale particularité de ce texte est qu'il n'était pas applicable dans l'immédiat puisque l'Etat avait arrêté la date du 05 juillet 1998, soit deux années après sa promulgation, pour qu'il soit effectivement appliqué sur le terrain.

travail. Concernant son contenu, nous pouvons lire dans cet article 5 :

« Tous les documents officiels, les rapports, et les procès-verbaux des administrations publiques, des institutions, des entreprises et des associations sont rédigés en langue arabe. L'utilisation de toute langue étrangère dans les délibérations et débats des réunions officielles est interdite. »

Une accentuation est cependant faite sur le volet écrit dans l'article 11 qui rappelle avec insistance et additivement à l'article 5 cité précédemment l'obligation de l'usage unique de l'arabe en matière de rédaction administrative de tous types de correspondance. En effet, dans cet article, il est stipulé que : *« Toutes les correspondances des administrations, institutions et entreprises doivent être rédigées exclusivement en langue arabe. »*

L'accès à toute fonction administrative est également tributaire selon la loi de 1991 d'une maîtrise de la langue arabe. Le recrutement des nouveaux fonctionnaires administratifs ne peut plus avoir lieu sans une évaluation draconienne du niveau d'arabe. De plus, il est mentionné dans l'article 8 que la langue arabe est la langue dans laquelle sont élaborés les sujets d'examens et de concours et que tout candidat est censé manier parfaitement afin de pouvoir être reçu aux épreuves écrites et orales. Selon cet article 8 *: « Les concours professionnels et les examens de recrutement pour l'accès à l'emploi dans les administrations et entreprises doivent se dérouler en langue arabe. »*

Afin d'affirmer le caractère obligatoire et intransigeant de la loi n°91-05, le chapitre 4 relatif aux dispositions pénales renferme les sanctions encourues par les fonctionnaires refusant d'appliquer les dispositions de cette loi d'arabisation. Par rapport au code écrit, il est stipulé en article 29 que tout fonctionnaire administratif qui élabore un document dans une langue autre que l'arabe rend son document caduc et sans signification ni authenticité.

Quant à la validation des contenus des correspondances, le signataire d'un document administratif non rédigé en arabe est clairement mis devant ses responsabilités et aux effets pouvant en découler. Cela signifie que tout fonctionnaire qui apposerait sa signature au bas d'une correspondance écrite par exemple en langue française la transforme en document non reconnu et n'ayant aucune autorité ni aucune crédibilité. L'article 29 mentionne que : *« Tout document officiel préparé dans une autre langue que l'arabe est considéré comme nul et non avenu. La partie ayant rédigé ou authentifié ledit document assume l'entière responsabilité des effets qui en découlent. »*

Concernant la sanction encourue en cas de non respect du caractère obligatoire de la rédaction administrative en langue arabe, nous pouvons lire dans l'article 32 que : *« Quiconque signe un document rédigé dans une langue autre que la langue arabe, lors de l'exercice de ses fonctions officielles, est passible d'une amende de 1000 à 5000 DA. »* Toutefois, il est fait exception des documents élaborés dans une langue autre que l'arabe ou ayant fait l'objet d'une traduction pour être utilisés uniquement à l'étranger c'est-à-dire en dehors du territoire national. Nous pouvons citer comme exemple l'acte de naissance élaboré en français et demandé souvent par les

suffisante et fonctionnelle de la langue arabe littéraire.

1.3.1. La loi n° 91-05 du 16 janvier 1991

Cependant, en matière de législation linguistique, la période Chadli avait connu un tournant particulier sous l'impulsion du courant arabo-islamo-conservateur visant à mettre un terme définitif à l'utilisation du français dans les institutions administratives algériennes. L'année 1991 avait en effet connu la promulgation d'une nouvelle loi portant arabisation des administrations de l'Etat ainsi que du secteur économique qui semblait le plus récalcitrant quant à l'application massive de l'arabisation. Dès le mois de janvier de la même année, les fonctionnaires prenaient connaissance du nouveau texte de loi consacrant l'unicité de l'utilisation de la langue arabe littéraire comme outil linguistique des institutions administratives algériennes.

La loi n°91-05 du 16 janvier 1991 demeure, selon les propos de Djamel Zenati, « *sans précédent depuis l'indépendance de l'Algérie* [(14)] », en ce sens qu'elle visait à exclure de façon radicale et définitive l'usage et la pratique du français dans l'administration avec ses deux sous-ensembles : fonction publique et secteur économique. Pour Gilbert Grandguillaume : *« Ce nouveau texte législatif visait également à évincer l'élite francisée formée essentiellement dans les écoles d'administration publiques algériennes et représentant l'encadrement technique et scientifique de tous les secteurs d'activité. En définitive, la loi de 1991 imposait l'usage unique de la langue arabe, interdisait toute «langue étrangère» et prévoyait pour les contrevenants de fortes amendes. Elle a été appliquée inégalement selon les gouvernements au pouvoir parce qu'elle s'est révélée difficile d'application* [(15)]. »

En termes de contenu, la loi n°91-05 du 16 janvier 1991 contient six chapitres et 41 articles [(16)]. Dans son deuxième chapitre relatif aux domaines d'application, l'article 4 stipule clairement que la primauté est désormais à la langue arabe dans son usage exclusif en tant que langue professionnelle dans les organismes administratifs. Il est écrit que :

« Les administrations publiques, les institutions, les entreprises et les associations, quelle que soit leur nature, sont tenues d'utiliser la seule langue arabe dans l'ensemble de leurs activités telles que la communication, la gestion administrative, financière, technique et artistique.».

A travers cet article, nous constatons que les secteurs financier et technique longtemps gérés en langue française après l'indépendance sont désormais appelés à s'arabiser et à se mettre au même niveau que les secteurs judiciaire et éducatif en matière d'arabisation totale. Aucune distinction n'est faite entre administrations de la fonction publique partiellement arabisées pour la plupart et celle technico-économiques où l'arabisation n'avait donné que de très maigres résultats depuis 1962, eu égard à la nature même des activités et des tâches professionnelles inhérentes au domaine économique et technique.

L'article 5 de cette loi met l'accent à la fois sur les codes écrit et oral. Longtemps confinée dans la seule utilisation scripturale, la langue arabe selon cet article doit être également utilisée dans les communications administratives orales à caractère formel, excluant par conséquent les échanges oraux informels entre les fonctionnaires au sein des bureaux ou des couloirs de leurs lieux de

1.2.6. Circulaire ministérielle de juillet 1976

Envoyée par le Ministère de l'Intérieur, cette circulaire était surtout relative à l'espace environnemental des structures administratives. Dans ses alinéas 3 et 4, on pouvait lire [(13)]:

-Alinéa 3 : *« Arabiser totalement toutes les enseignes extérieures des administrations et sociétés publiques, et les écrire en lettres apparentes (…) et interdire absolument toute inscription en langue étrangère. »*

-Alinéa 4 : *« Utiliser seulement l'écriture en arabe pour les divers services, bureaux et guichets internes, et pour les diverses inscriptions, panneaux d'indications ou d'orientation tant à l'intérieur qu'à l'extérieur des institutions. »*

Ceci démontre clairement que la campagne d'arabisation de l'administration ne concernait pas uniquement les documents administratifs et les pratiques langagières des fonctionnaires dans l'exercice de leur activité mais s'est propagée jusqu'aux enseignes, aux inscriptions et aux indications à l'intérieur des organismes administratifs comme les noms des services affichés sur les portes des bureaux, les plaques indicatives des directions à emprunter pour aller dans les services, les écriteaux portant les noms et prénoms des fonctionnaires posés sur les bureaux en vue de faciliter leur identification notamment par les administrés, etc. En d'autres termes, la substitution du français comme langue de travail par la langue arabe devait se faire dans l'ensemble de la vie administrative algérienne.

1.3. L'époque de Chadli Bendjedid (1979-1992)

Vingt ans après *l'Année de l'arabisation* qu'était l'année 1971, la scène politique et sociale en Algérie avait connu de multiples mutations dont le multipartisme consacré à la faveur de la constitution de 1989. Cette nouvelle donne a fait émerger une mouvance islamo-conservatrice prônant la primauté de la langue arabe littéraire sur toute autre langue, y compris le français, dans les rapports sociaux et professionnels. Ce conservatisme linguistique avait touché par conséquent le milieu administratif où, malgré les différents textes législatifs décrétés depuis l'indépendance, l'usage de la langue française n'avait pas disparu des pratiques langagières des fonctionnaires mais avait plutôt formé un tandem bilingue avec l'arabe littéraire dans certaines administrations de la fonction publique : collectivités locales, Etat-civil, etc.

Quant à la domination du français, elle est restée de mise dans les administrations des finances et des secteurs techniques comme l'énergie, l'habitat, l'industrie, etc. Autrement dit, entre la théorie et la pratique, l'écart était béant car si on pouvait arabiser avec une certaine aisance les documents et autres pièces administratives, il n'était pas en revanche très aisé d'arabiser totalement les fonctionnaires, surtout que les diverses formations linguistiques en langue arabe organisées depuis 1962 s'inscrivaient en faux par rapport aux pratiques linguistiques des fonctionnaires et ne prenaient pas en considération leurs besoins en la matière. Cette situation n'a donc fait qu'ancrer davantage l'usage du français comme outil de travail et de communication en contexte administratif conjointement à l'arabe dialectal en l'absence d'une connaissance

français dans leurs activités professionnelles ;

- Le sentiment d'inutilité de cet effort, car l'arabe n'est pas utilisé dans la vie professionnelle : l'écart existant entre les pratiques langagières en milieu administratif faisant intervenir essentiellement le français dans les diverses situations de communication écrites et orales conjointement avec le parler dialectal, et l'absence totale de l'usage de la langue littérale a fait naitre chez les fonctionnaires en formation des interrogations sur la nécessité d'organiser des formations qui ne correspondent pas à la réalité du terrain professionnel et qui n'apportent aucun bénéfice en matière communicationnelle ;

- La confusion entre arabisation et alphabétisation : les cours d'arabe ressemblaient à des séances d'alphabétisation plutôt que d'arabisation. L'insistance des formateurs se faisait sur des points de langue jugés obsolètes et sans intérêt par les administratifs alors que la formation aurait dû plutôt cibler les discours produits en contexte administratif. En d'autres termes, au lieu de privilégier un accès sur les énoncés produits en administration, les formateurs s'investissaient à travailler la prononciation des voyelles arabes, la conjugaison des pronoms personnels avec les verbes transitifs et intransitifs, et l'orthographe de mots et de phrases n'ayant aucun trait à la fonction administrative ;

- L'absence de ligne pédagogique concernant les moyens, les méthodes, les formateurs et les contenus : calquée sur les méthodes de l'école primaire, la formation d'arabe qui s'adressait à un public professionnel adulte utilisait des moyens didactiques inadéquats avec l'objectif visé. Par exemple, aucun travail sur des documents administratifs authentiques n'était fait en classe et aucune analyse de discours oraux n'a été effectuée durant les trois années de formation. De plus, les formateurs, issus des instituts de formation éducative, ne possédaient aucune connaissance du milieu administratif et ne pouvaient donc présenter que des cours d'arabe général ;

- La non-convenance des plages horaires imparties aux cours : programmés vers la fin du service actif des fonctionnaires, les cours étaient dispensés à des heures où le public formé ne pouvait mobilisé une grande capacité d'écoute et de suivi des contenus notamment pour cause de fatigue ou de responsabilités familiales que les administratifs assument après la fin de leur service.

Ces différentes causes expliquent que, dans les divers ministères et les administrations qui en relèvent et malgré les procédures et les initiatives prises par les pouvoirs publics, la connaissance de la langue arabe à caractère administratif n'était pas acquise par les fonctionnaires. Cependant, certains secteurs comme ceux de la justice, de la défense et de l'enseignement originel pouvaient prétendre à un niveau d'arabisation appréciable de son personnel actif, grâce au recrutement dès les premières années de l'indépendance d'un certain nombre de diplômés algériens arabophones formés en Tunisie, en Libye ou au Moyen-Orient, et qui ont contribué grandement à arabiser une grande partie des documents et même des personnels initialement francophones mais qui, au contact des collègues arabisants plus nombreux, ont pu apprendre un arabe plus fonctionnel car acquis aussi à partir de situations de communication concrètes.

l'Intérieur et des Enseignements primaire et secondaire selon lequel : *« Sont dispensés de l'examen du niveau de connaissance de la langue nationale les fonctionnaires issus des établissements de formation professionnelle préparant l'accès à la fonction publique* [(10)]».

Ainsi, il y a lieu de mentionner ici que le remplacement du français par l'arabe en tant que langue de l'administration n'était pas une entreprise aisée pour la tutelle administrative de l'époque. Il fallait opter pour une gradation ascendante en matière d'arabisation tout en évitant d'occulter complètement la place de la langue française qui est restée jusqu'à cette période des années 1960-1970 un instrument de travail et de communication avéré.

1.2.5. Rapport de 1974 : l'arabisation de l'administration, entre élan et retombée

Le 05 décembre 1974, la commission nationale d'arabisation mise en place par l'Etat rend un rapport relatif à la situation de l'arabisation de l'administration par départements ministériels dont les résultats sont qualifiés de minces [(11).] Ce rapport constate que tout se fait en français, aussi bien la formation que l'accomplissement des tâches. Le secteur économique est classé en tête de liste de ces constats, qualifié comme le secteur accusant le plus de retard en matière d'arabisation, et le rapport précise qu'on n'est pas encore arrivé à la prise de conscience du caractère inéluctable de l'arabisation de ce secteur qui englobait à cette époque dix ministères : finances, industrie, PTT, commerce, travaux publics, plan, hydraulique, agriculture, transports, tourisme.

De plus, non seulement ce secteur travaille uniquement en français mais il possède également ses propres instituts de formation et ne diffuse cette formation qu'en français. C'est le cas par exemple du Ministère de l'industrie qui englobe sous sa tutelle trois établissements de formation professionnelle initiale et continue, où sont assurées les formations aux métiers de l'industrie : il s'agit de l'Institut Algérien du Pétrole (IAP) de Boumerdès, l'Institut National des Combustibles et de la Chimie (INCC) et de l'Institut National pour les industries légères (INIL).

En outre, concernant le secteur de la fonction publique, qui constitue avec le secteur économique, les deux secteurs d'activité professionnelle et administrative du pays, le rapport met en évidence qu'après la promulgation de l'ordonnance d'avril 1968, il y a eu un certain élan, puis une certaine retombée qui est due selon des experts mobilisés sur le terrain à une série de causes qui sont les suivantes [(12)] :

- Le manque de contrôle de l'opération d'arabisation des fonctionnaires : aucun suivi n'a été assuré pendant les trois années de formation en langue arabe, et aucun agent contrôleur n'a été mobilisé à l'effet de veiller au déroulement des études ;

- Le manque d'empressement des fonctionnaires, et principalement des cadres supérieurs : un manque d'intérêt et d'engouement pour la formation s'est fait ressentir de la part d'une frange d'administratifs composés surtout de cadres supérieurs appelés également *cadres dirigeants*, qui se sont montrés récalcitrants par rapport à la formation en langue arabe, préférant plutôt continuer à n'utiliser que le

Coran et la réécriture de certains versets sur des plaques en bois à l'aide de plumes d'oies. Cependant, cette connaissance même primaire de la langue arabe n'était pas acquise par tous les fonctionnaires, en ce sens que certains d'entre eux n'avaient pas accès aux cours des *katatib* et n'avaient donc aucune connaissance de la langue arabe. Il fallait pour eux commencer par les aspects élémentaires de la langue arabe écrite et lue.

En d'autres termes, l'arrêté de février 1970 visait à parfaire les acquis en langue arabe de ceux qui en possédaient déjà des rudiments et d'assurer une formation initiale et de base pour ceux qui n'en avaient aucune connaissance, en vue de les préparer au rendez-vous du 1er janvier 1971 fixé par les pouvoirs publics et rendant obligatoire l'apprentissage de cette langue.

1.2.4. Ordonnance du 20 janvier 1971

L'année 1971, consacrée comme *Année de l'Arabisation* par les autorités publiques, constituait la date butoir fixée par les pouvoirs publics aux fonctionnaires afin de justifier de niveaux de connaissance de la langue arabe en tant qu'outil de travail et de communication administrative. En effet, dès la promulgation de l'ordonnance du 26 avril 1968, l'Etat avait accordé aux administratifs un délai de trois années afin d'apprendre l'arabe à travers des cours organisés par leur tutelle comme nous l'avons mentionné précédemment. Dès le 1er janvier de cette année, une circulaire avait été envoyée aux différents départements ministériels et transmise par voie hiérarchique aux organismes administratifs de toutes les wilayas du pays. Selon cette circulaire, tout fonctionnaire désireux d'obtenir de l'avancement dans sa carrière professionnelle devait impérativement avoir atteint depuis le début des cours en 1968 un certain niveau d'arabe [(8)].

Le 20 janvier 1971, parait l'ordonnance n°71-2 portant extension de l'ordonnance n°68-92 du 26 avril 1968 rendant obligatoire pour les fonctionnaires et assimilés la connaissance de la langue arabe. L'extension à laquelle cette nouvelle ordonnance en deux articles fait référence concerne désormais, outre le personnel de la fonction publique, celui des entreprises économiques nationales, c'est-à-dire appartenant à l'Etat algérien, et excluant de fait les entreprises étrangères exerçant sur le sol algérien [(9)]. Désormais, les employés des entités économiques devaient au même titre que leurs collègues de la fonction publique justifier d'un niveau de connaissance de la langue arabe afin de pouvoir continuer à exercer une fonction administrative et prétendre aux promotions professionnelles qui en découlent.

Cependant, devant le constat d'échec des cours programmés dès 1968 à cause des méthodes utilisées à cet effet et des profils inadéquats des formateurs d'arabe avec celui des fonctionnaires administratifs, l'Etat a du ralentir la cadence de l'arabisation notamment par rapport au volet relatif à la justification obligatoire de la connaissance de la langue arabe pour l'ensemble des fonctionnaires. Selon Gilbert Grandguillaume, des mesures d'exception interviennent deux ans plus tard en 1973 et visent à alléger proportionnellement l'ordonnance d'avril 1968 en dispensant les nouvelles recrues des établissements professionnels de l'obligation de subir une épreuve de langue arabe au moment de leur embauche. Le Journal Officiel du 06 avril 1973 publie un arrêté interministériel du 21 mars 1973 émanant des ministères de

ces besoins. En outre, la programmation des séances de formation après les heures de travail faisait que le taux d'absentéisme atteignait des niveaux record. Les fonctionnaires étant fatigués après la fin de leur service, fuyaient les cours d'autant plus qu'ils s'inscrivaient en faux par rapport à la réalité et aux pratiques du terrain administratif.

1.2.2. Décret du 08 février 1969

Emanant de la présidence du Conseil, le décret n°69-9 du 08 février 1969 constituait une complémentarité au décret du 22 mai 1964 portant création de l'école supérieure de traduction et d'interprétariat. En effet, le nouveau décret de 1969 qui se composait de cinq articles, stipulait dans son premier article ce qui suit : *« Il est crée, dans chaque ministère, un bureau d'interprétariat chargé des traductions écrites et verbales en langue arabe de documents, correspondances, textes officiels, projets de textes à caractère législatifs et projets de textes réglementaires* [(6)]». Ce texte de loi permettait à la 1ère promotion de diplômés de l'école de traduction créée en 1964 de faire bénéficier l'administration publique de leur formation en matière de traduction et d'interprétariat du français vers la langue arabe afin de jeter les bases d'une arabisation progressive de l'appareil administratif. Ayant un profil de parfaits bilingues ou trilingues, les nouvelles recrues des bureaux d'interprétariat allaient permettre à la langue arabe d'être un outil usuel dans les activités administratives conjointement avec le français dont le remplacement définitif en tant que langue administrative n'est pas encore envisagé par les décideurs.

Le rôle des traducteurs-interprètes était aussi de permettre aux fonctionnaires francophones de se familiariser graduellement avec la langue arabe en entrant en contact avec des interprétations orales ou des traductions écrites de divers types de documents administratifs ce qui leur donnerait la possibilité d'acquérir des rudiments en langue arabe qu'ils auraient à réutiliser dans des situations de communication en administration où ils avaient l'habitude d'utiliser le français. Mais au-delà de la traduction documentaire et des interprétations orales, la finalité derrière la formation et l'embauche des traducteurs-interprètes au sein des nouveaux bureaux d'interprétariat était surtout de créer des liens et des affinités entre le personnel administratif et la langue arabe en sa qualité de langue nationale et officielle du pays et, par voie de conséquence, de l'administration publique.

1.2.3. Arrêté interministériel du 12 février 1970

Comme complément à l'ordonnance d'avril 1968, un arrêté interministériel a été mis en application le 12 février 1970 avec comme objectif de fixer les niveaux de connaissance de la langue nationale dont doivent justifier les personnels des administrations de l'Etat, des collectivités locales et des établissements et organismes multiples [(7)]. Cet arrêté avait pris en considération le fait que les fonctionnaires n'avaient pas tous le même niveau d'arabe : certains avaient pu, durant la période coloniale, s'inscrire dans les *katatib,* terme qui renvoie aux écoles coraniques qui assuraient une formation de base en langue arabe à travers notamment la psalmodie du

par l'administration comme les imprimés et les actes mais aussi ceux élaborés par les administrés et adressés aux instances administratives comme les demandes manuscrites, principal document de requête et de doléance rédigé par les citoyens. Mais il fallait également arabiser les ressources humaines : les fonctionnaires devaient obligatoirement acquérir des compétences et des niveaux de connaissance de la langue arabe s'ils voulaient continuer à exercer au sein de l'administration publique et obtenir une évolution de carrière. L'instruction présidentielle est venue confirmer cela durant le printemps 1968.

1.2.1. Ordonnance du 26 avril 1968

Trois années après le début de la présidence Boumediene, une ordonnance a été promulguée le 26 avril 1968 sous le n° 68-92 par la présidence du Conseil des Ministres rendant obligatoire pour les fonctionnaires et les assimilés la connaissance de la langue arabe, désormais langue nationale et officielle de l'ensemble des structures de l'Etat [(4)]. Un délai de trois ans est accordé aux fonctionnaires actifs afin d'améliorer leur connaissance de leur nouvelle langue de travail et le rendez-vous fixé à cet effet était le 1er janvier 1971. En outre, à partir de cette date, tout nouveau recrutement de fonctionnaire sera subordonné à la connaissance de l'arabe, à travers une épreuve appelée *épreuve de langue nationale*, où durant deux heures, le candidat à la fonction administrative aura à répondre à des questions de grammaire et de conjugaison arabe et à rédiger un essai de quelques lignes sur un sujet d'ordre général selon ce que nous avons recueillis auprès de deux anciens employés de mairie qui avaient été recrutés au début des années 1970 en qualité d'agent de bureau au service des certificats de résidence de la commune de Souk-Ahras, et dont le recrutement était tributaire de ce type d'épreuve de sélection en langue arabe.

A la suite de l'ordonnance d'avril 1968, des cours d'arabe ont commencé à être donner pour la première fois depuis l'indépendance dans les diverses administrations aux fonctionnaires qui ne maîtrisaient qu'une seule langue, le français. Pour Gilbert Grandguillaume, ces cours d'arabe ont été organisés avec plus ou moins de succès mais le rapport de la commission d'arabisation de 1974 en établira un bilan largement négatif [(5)]. Les fonctionnaires dans leur majorité ont commencé à se plaindre des contenus des cours dispensés, qui avaient trait à l'arabe général plutôt qu'au contexte administratif.

B. Abdelmadjid, un ancien cadre de la sous-préfecture de Souk-Ahras que nous avons rencontré lors de nos enquêtes de terrain nous a fait savoir que les enseignants mobilisés pour la formation d'arabe, venus pour la plupart des pays du Moyen-Orient (Egypte, Irak, Palestine) dans le cadre de la coopération interarabe, n'avaient aucune connaissance du milieu administratif ni des savoirs de langue administrative à faire acquérir aux fonctionnaires en formation afin de les amener à utiliser l'arabe en lieu et place du français dans l'exercice de leur fonction.

Selon notre enquêté, il s'agissait de cours de lecture oralisée, de grammaire, de conjugaison et d'orthographe autour de thèmes de la vie quotidienne, sans rapport avec leur domaine professionnel. Les fonctionnaires s'attendaient à être formés plutôt aux techniques rédactionnelles en administration ou aux modalités de prise de parole en situation professionnelle mais le profil des formateurs ne correspondait pas à

débats parlementaires [2]. Aucune loi ne précisait auparavant le statut des langues au Parlement. Cependant, face aux lacunes des locuteurs par rapport à la langue arabe littéraire tant en matière de compréhension que d'expression au sein de l'hémicycle et en l'absence d'un système de traduction simultanée, l'arabe dialectal (ou arabe algérien) et le français ont été largement utilisés.

1.1.1. Décret du 22 mai 1964

Au début de la campagne d'arabisation, le faible niveau de connaissance de l'arabe classique chez les fonctionnaires conduisait d'abord le gouvernement à n'envisager l'arabisation que par le moyen d'un système généralisé de traduction. Pour doter les organismes professionnels de personnel spécialisé en traduction, le Gouvernement avait promulgué le 22 mai 1964 un décret portant création de l'école supérieure de traduction et d'interprétariat [3]. Il incombait à cette nouvelle structure de former des diplômés en techniques de traduction et d'interprétariat qui seraient par la suite employés dans des institutions administratives, et qui auraient comme mission de prendre en charge l'interprétation orale et la traduction écrite en arabe des textes officiels rédigés initialement en français comme les lois, les décrets, les ordonnances et les arrêtés contenus dans les journaux officiels. En d'autres termes, cette école devait fournir à l'administration les éléments qui permettraient de la faire fonctionner progressivement en arabe. En fait, les interprètes furent surtout utilisés pour établir les relations inévitablement en arabe entre l'administration francisée et les pays arabes.

A cette époque, l'Algérie avait besoin d'asseoir son appartenance à l'espace arabe mais cette initiative ne pouvait se concrétiser sans l'utilisation de l'outil linguistique commun à l'ensemble de cet espace géographique. Les échanges d'expérience en matière de gestion et de production avec les pays arabes devaient donc se faire en langue arabe et face à l'ignorance de cette langue par la quasi-totalité des 100 000 fonctionnaires administratifs existant à l'époque et exerçant notamment dans les ministères, il fallait opter pour une mesure d'urgence, en l'occurrence, le recours à la formation des traducteurs et des interprètes.

En conclusion, il y a lieu de mentionner que le décret du 22 mai 1964 constitue officiellement le premier texte législatif mis en place afin de favoriser l'arabisation de l'administration algérienne mais demeure le seul texte de loi voté dans ce sens durant la période Benbella qui n'a duré que trois années et qui a pris fin le 19 juin 1965.

1.2. L'époque de Houari Boumediene (1965-1978)

Le processus d'arabisation des institutions administratives a connu durant l'époque du président Boumediene un essor important, et est devenu l'un des chantiers les plus ciblés par les actions de réforme des appareils de l'Etat. Plusieurs textes législatifs ont été votés et mis en application dès 1968 en vue de consacrer de manière plus concrète l'utilisation massive de la langue arabe dans toutes les administrations et surtout par tous les fonctionnaires.

En effet, il était impératif d'arabiser les documents à usage administratif produits

Introduction

Depuis l'indépendance de l'Algérie en 1962, un vaste chantier de réformes a vu le jour et a touché différents secteurs de la vie sociale. Le citoyen algérien était le témoin de mutations opérées à divers niveaux et sous plusieurs aspects à ce qui avait trait à son quotidien y compris en milieu professionnel. Parmi ces chantiers de réformes lancés par l'Etat figure celui des langues. Une campagne de substitution progressive de la langue du colon par celle reconnue par les pouvoirs publics comme langue nationale et officielle a eu lieu et s'est étalée sur des décennies. L'objectif étant de remplacer subtilement mais certainement un outil linguistique longtemps utilisé comme langue professionnelle par les travailleurs par une autre langue qu'ils ne connaissaient pas tous forcément mais avec laquelle ils devaient désormais apprendre à fonctionner.

Cet article se propose d'apporter des éléments de réponse à la question suivante :

- Quelle évolution a connu la question des langues en milieu professionnel, et plus particulièrement administratif, en Algérie au lendemain de l'indépendance dans sa dimension juridico-législative ? Et quel bilan peut-il en être fait ?

Pour ce faire, il est important de décortiquer les différentes initiatives gouvernementales prises dans le sens de la politique d'arabisation du secteur administratif décidée après l'indépendance. Cette analyse prendra en ligne de compte les mesures adoptées à travers plusieurs périodes de l'histoire contemporaine de l'Algérie qui vont de la présidence d'Ahmed Benbella à celle de Liamine Zeroual en passant par l'ère des présidents Houari Boumediene et Chadli Bendjedid.

1. Chronologie des textes législatifs

1.1. L'époque d'Ahmed Benbella (1962-1965)

Porté au pouvoir officiellement en septembre 1962, le président Benbella avait décidé la mise en place de mesures visant à donner à la langue arabe le statut de langue nationale et officielle en Algérie, revendiquant par là même la dimension arabe de l'identité algérienne. Cette revendication devait toucher tous les secteurs de la vie sociale du citoyen à commencer par les institutions scolaires et administratives.

Concernant l'administration, l'opération d'arabisation devait prendre en entière considération la réalité de ce terrain professionnel dirigé pendant plus d'un siècle par un pouvoir qui avait imposé sa langue comme outil unique de travail. Par conséquent, le remplacement de la langue française par l'arabe n'était pas une entreprise sans difficultés mais elle devait quand même se faire.

Pour l'anthropologue et historien Gilbert Grandguillaume :

« Au lieu d'être la langue de la prière et du rituel, la langue arabe classique allait devenir celle de la gestion quotidienne de l'administration, de l'enseignement. Ses contenus étaient destinés à être peu à peu modifiés, déviés, de façon à être analogues à ceux que la langue française recelait. Pour cette raison, sous une apparence de retour à l'Islam et à la tradition, la langue de l'arabisation, sous l'égide de l'État, devait devenir un agent de modernisation [(1).] *»*

Sur le terrain, la première mesure concrète est venue changer le cours des choses d'abord au sein de l'administration parlementaire. Le 12 juin 1963, l'Assemblée nationale vota une motion en faveur de l'introduction de la langue arabe dans les

Revue Apuleius
Volume 05 Numéro 09 juin 2018

L'aspect juridico-législatif de la question des langues en milieu professionnel algérien

Amir Gahmia

Département des langues étrangères

Université de Souk-Ahras

ABSTRACT

This article suggests exploring the juridico-legislative dimension of the question of the languages in the occupational environment, and more exactly administrative Algerian after the independence. He aims to be as a rather exhaustive inventory of the various legislative texts which were promulgated on three decades to regulate the problem of the linguistic uses in the work in our country, between national language and foreign languages.

KEY WORDS : decree - prescription - law – language - administration – arabization.

الملخص :

هدا المقال يهدف إلى تسليط الضوء على البعد التشريعي و القانوني لإشكالية اللغات في المجال المهني و بصفة خاصة في المجال الإداري الجزائري غداة الاستقلال. هده المساهمة تتمثل في جرد شبه كامل لمختلف النصوص التشريعية التي تم سنها على مدى ثلاث عشريات بهدف تقنين مسألة التعاملات الغوية في المجال المهني في بلادنا بين اللغة الوطنية و اللغات الأجنبية.

الكلمات المفتاحية : مرسوم – أمر – قانون - لغة – إدارة – تعريب .

Annexe 5 :

Tableau 2 : L'emploi des symboles en PDN

Les noteurs ayant utilisé des symboles (N)	Nombre de symboles utilisés
01	02
02	02
03	04
06	09
09	09
10	09
11	03
13	17
18	02
21	03
23	01
24	01
30	11
34	02
37	02
38	08

Annexe 6 :

Tableau 3 : Catégorisation des variétés de symboles mobilisés et fréquence d'emploi.

Les noteurs ayant utilisé des symboles (N)	Les symboles utilisés	La fréquence de l'utilisation des symboles (nombre de fois)
01	//	02
02	↓	02
03	→ =>	01 03
06	→ └> => //	03 03 01 02
09	→ ↓	06 03
10	=> //	08 01
11	↓ §	02 01
13	/ → //	14 02 01
18	=>	02
21	/	03
23	↔	01
24	=>	01
30	// └>	03 08
34	=> ᴗ>	01 01
37	→	02
38	=> → +	04 02 02

Exemple 2 :

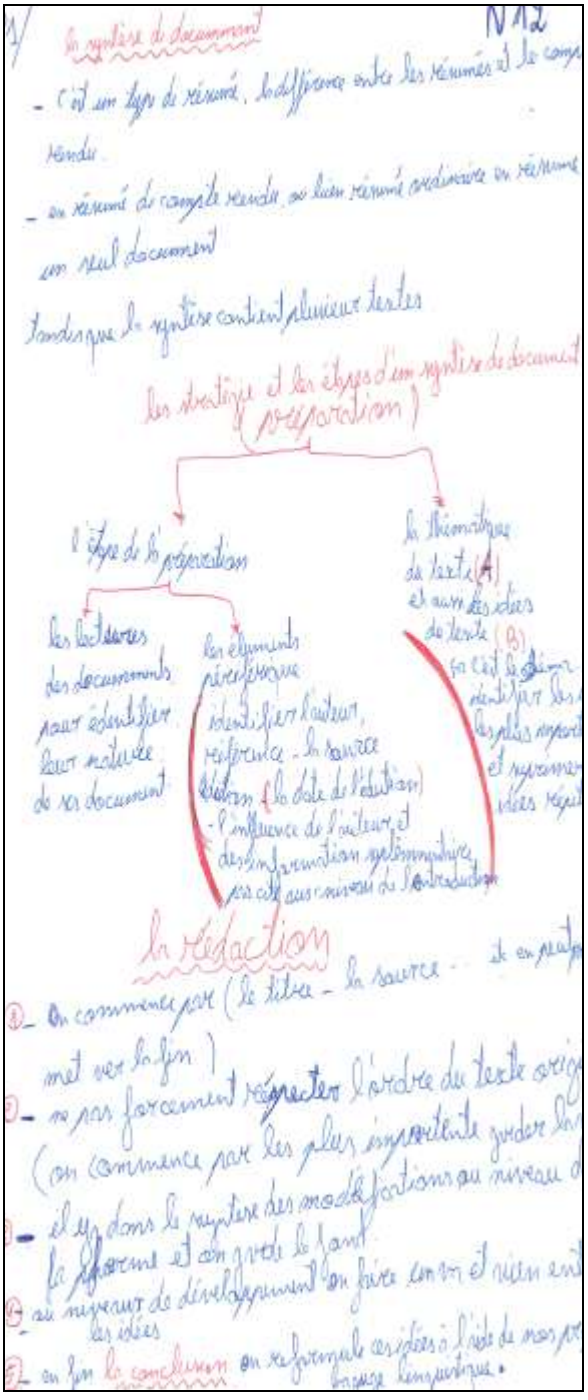

Annexe 4 :

Tableau n° 1 : Correspondance mots notés / mots abréviés.

Les notes (N)	Nombre de mots notés	Nombre de mots abrégés	Pourcentage
01	142	06	4.22
02	189	00	00
03	138	05	3.62
04	217	00	00
05	81	00	00
06	84	09	10.71
07	72	00	00
08	117	00	00
09	168	03	1.78
10	165	20	12.12
11	73	09	12.32
12	206	00	00
13	88	04	4.54
14	121	00	00
15	202	00	00
16	170	01	0.58
17	179	00	00
18	203	04	1.97
19	147	00	00
20	131	00	00
21	122	00	00
22	202	04	1.99
23	204	02	0.98
24	160	01	0.62
25	114	00	00
26	159	00	00
27	129	00	00
28	87	00	00
29	181	05	2.76
30	128	01	0.78
31	261	00	00
32	148	00	00
33	177	01	0.56
34	264	04	1.51
35	139	00	00
36	163	00	00
37	123	01	0.81
38	95	00	00
39	242	00	00

Annexe 02

(La N10 : copie de l'étudiant ayant abrégé 20 mots sur un total de 165 mots notés)

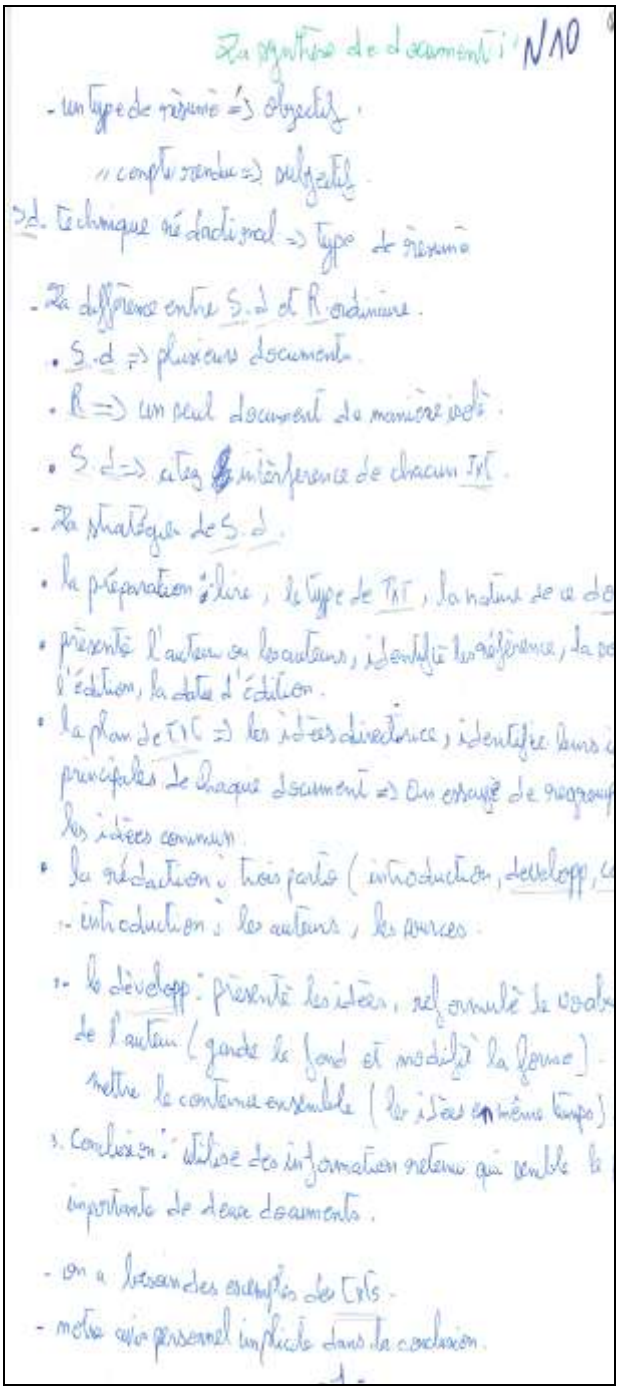

Annexe 03

(Exemples de copies contenant des schémas minimes) Exemple 1

REFERENCES BIBLIOGRAPHIQUES

1 Les auteures attestent de ce point de vue au regard de leur parcours de formation. En témoignent également les réponses des étudiants au questionnaire utilisé en magister.

2 Pris de :
http://www.ext.Upmc.fr/urfist/cerise/p8.htm .

AUBREE Christine, Les techniques de prise de notes: Méthodologie et exploitation, CFPJ, 2007.

BARBIER, M. L., FARACO, M., PIOLAT, A., & BRANCA, S, « Prise de notes et procédés de condensation en français L2 par des étudiants anglais, espagnols et japonais ». In N. Andrieux-Reix, S. Branca, & C. Puech (Eds.). Ecriture abrégées (notes, notules, messages, codes…). L'abréviation entre pratiques spontanées, codifications, modernité et histoire (pp. 143-161). Gap : Editions Orphys, 2007.

Boch, F., Tutin, A. et Grossmann, F. Analyse de textes réécrits à partir de prise de notes. Intérêts de la méthode RST (Rhetorical Structure Theory). Arob@se volume 1-2, 2003. pp. 30-46.

BOUCHAIR Wafa. La prise de notes des étudiants de quatrième année en licence de français en Algérie : Pratiques et difficultés. Magister, Université Badji Mokhtar, Annaba. 2009

BRU, M, Les méthodes en pédagogie. Que sais-je. Paris : Presses Universitaires de France. 2006

CORDEIL-LE MILLIN Ysabelle, La prise de notes efficace, DUNOD, 2011

Hoffbeck, G. et Walter, J. 1987. Savoir prendre des notes vite et bien. Dunod-Bordas. Paris.

PIOLAT Annie, La prise de notes, Presse universitaire de France, Editions PUF, 2001

PIOLAT Annie, « Introduction : Pourquoi étudier la prise de notes en langue seconde? » Arob@se, volume 1-2, 2003, pp. 1-5.

POCHARD Jean-Charles, BOUCHARD Robert et PARPETTE Chantal, « Le cours magistral et son double, le polycopié : relations et problématique de réception en L2 ». Cahiers du Français Contemporain, 10, pp.191-208, 2005.

ROBERT Paul, Le nouveau Petit Robert, Paris, Dictionnaires Le Robert, 2001.

http://www.ext.Upmc.fr/urfist/cerise/p8.htm

Sebane, M. L'effet de deux modalités de prise d'informations sur la compréhension et la production d'un texte explicatif en FLE chez les étudiants de magistère d'économie. Thèse de doctorat. Université Ibn Badis –Mostaganem. 2008.

Annexes

Annexe 01

(La liste des abréviations données par l'enseignante en L1)

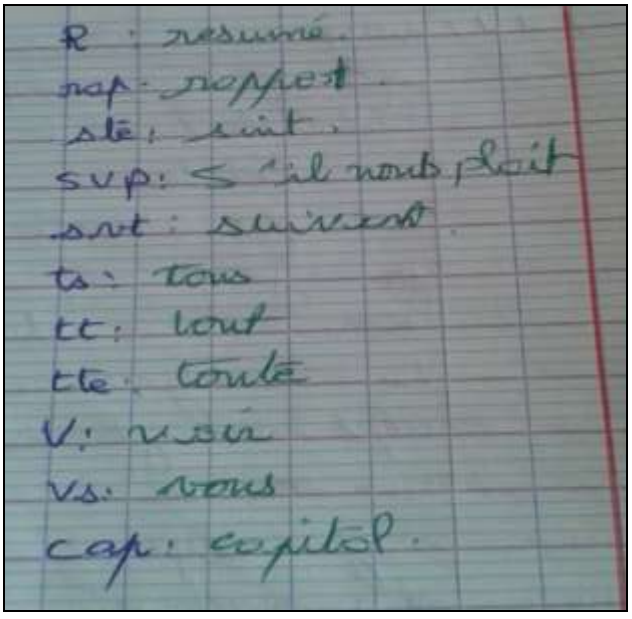

Une telle stratégie de travail, que nous avons analysée dans son volet technique, nécessiterait un enseignement plus élaboré, détaillant tous les aspects de cet acte plurifactoriel puisqu'il associe la compréhension, la production et la gestion du temps. Sur le plan exclusivement technique abordé dans cet article, la démarche d'enseignement gagnerait à expliciter aux étudiants, les différents procédés de condensation lexicale identifiés par les auteurs spécialistes du domaine de l'étude de la PDN, en l'occurrence Françoise Boch, Annie Piolat et Sonia Branca-Rosoff. Parmi ces procédés, nous citons à titre d'exemples la contraction du suffixe, les sigles, la suppression de lettres isolées, la suppression d'unités syllabiques centrales avec préservation du début et de la fin, …etc. auxquels il faut associer l'emploi d'icônes en tant que procédés de substitution par le recours à des idéogrammes mathématiques ou de signes de ponctuation ou encore d'emploi de rébus. Cette démarche d'enseignement n'a pas été mobilisée et mériterait un intérêt didactique manifeste qui se justifie par le rôle éminemment important qu'occupe la PDN en tant qu'activité transversale en contexte universitaire.

Certes, après un désintérêt de longue date, le socle commun pour les langues a explicitement établi l'importance de l'enseignement de la prise de notes à l'université algérienne ; toutefois, sa pratique aléatoire, et les échos recueillis du terrain interpellent le didacticien pour réfléchir à une prise en charge plus efficiente aussi bien au niveau de la technique que des représentations de son utilité. En final, il nous parait utile d'ajouter que les difficultés des étudiants face à la PDN lors d'un cours magistral n'est pas une caractéristique endémique puisque ce discours didactique universitaire pose « des problèmes de réception et de prise de notes (…) même pour les étudiants français » (Pochard, Bouchard et Parpette, 2005 : 191).

Nos résultats nous permettent de montrer que la PDN se cantonne toujours à une technique mnémotechnique davantage qu'un processus de traitement et de reconstruction d'un contenu linguistique et sémantique exigeant puisque la PDN comme l'atteste Sebane (2008 : 143) nécessite « l'activation simultanée de plusieurs processus inhérents à la compréhension, à la production et à la réécriture », dans le dessein d'associer les connaissances antérieures à celles nouvellement acquises.

Sur le plan de l'agir enseignant, nous pouvons noter que la PDN était davantage proche d'une dictée que d'un cours avec PDN où le réinvestissement de l'apprenant est davantage plus grand. Ainsi, il est nécessaire de mentionner que la PDN n'est pas qu'une technique, elle est une activité didactique nécessitant au sens de Bru (2006) la mise en place d'une conjoncture comportant des paramètres cognitifs, matériels et temporels spécifiques. De ce fait, l'agir de l'étudiant est à mettre en écho avec l'agir enseignant .

mots abrégés, est également rare. En effet, la majorité des participants ont abrégé les mêmes mots et de la même façon. Les noteurs n'ont pas utilisé la procédure d'abréviation par charpente de consonnes ou même troncature de fin de mots ou une autre procédure d'abréviation ; ils inséraient simplement des abréviations célèbres et communes, comme : *TX* ou *TXT* pour texte, *tjrs* pour toujours. Les résultats obtenus nous permettent d'avancer que le cours magistral serait semblable à une dictée et que les étudiants seraient inconscients de la nécessité des abréviations pour accroitre la vitesse d'écriture et leur capacité mémorielle. Cette hypothèse est en contradiction avec le fait que ces étudiants ont bénéficié, l'an passé, d'un enseignement portant sur la PDN et ses objectifs, notamment l'accélération de l'activité d'écriture par le recours aux abréviations. Cependant, nous pouvons avancer que cet apprentissage a été insuffisant à développer une palette élaborée de mécanismes ritualisés. Ces automatismes en didactique de la PDN sont d'une importance avérée puisque leur insuffisance affecte « la capacité des étudiants non natifs à saisir l'information. Les étudiants se focalisent alors généralement sur la microstructure du discours source et manifestent de plus grandes difficultés sur le plan conceptuel» (Barbier, Faraco, Piolat et Branca, 2004: 145).

Les étudiants observés n'ont pas mobilisé le procédé abréviatif, soit parce qu'ils ne le maîtrisent pas, soit parce qu'ils l'ont oublié faute de pratique régulière. Cela indique, dans les deux cas, que l'activation du savoir antérieur (les informations acquises l'année précédente lors du cours de prise de notes) a échoué, puisqu'il n'a pas été mis en œuvre en situation-problème. Ainsi, malgré la focalisation des travaux dirigés de l'an passé sur les abréviations, la technique reste insuffisamment employée et maitrisée.

Quant aux symboles, nos résultats interpellent le didacticien. La rareté de leur emploi par les étudiants pourrait s'expliquer par l'absence d'applications lors du cours de l'an passé. Cet enseignement s'était limité à la définition des « symboles » et la présentation de quelques exemples. On pourrait avancer que l'enseignement de la PDN a pâti du volume horaire réduit réservé à sa prise en charge peu valorisée.

Comparativement à la manière dont le procédé abréviatif a été enseigné à notre public, le recours des étudiants aux symboles a été plus important que celui des abréviations. Ils avaient en cours la définition des abréviations, quelques procédures abréviatives (brièvement et théoriquement), une liste d'exemples et quelques séances d'exercices. En revanche, ils n'avaient que la définition des symboles et une liste restreinte d'exemples sans interprétations ; ce qui confirme l'utilisation aléatoire de ces derniers, tels que la barre oblique « / ». Ce résultat nous permet aussi de noter que la dominance des pictogrammes, en l'occurrence ici les flèches, indique un intérêt plus grand pour la structuration du discours par la représentation des relations sémantiques entre les idées et les paragraphes, que le volet lexical basé sur les abréviations et différentes troncatures. En définitive tous nos résultats susmentionnés présentant des pratiques négligées de la PDN, nous permettent de conclure à une prise en charge didactique inopérante et infructueuse de la prise de notes.

Le présent corpus est pauvre en matière de symboles. Cette technique a été marginalisée par la quasi-totalité des étudiants. Nous concluons à une pauvreté du répertoire des signes des apprenants et une absence de maîtrise de la technique de la PDN.

5.3 Utilisation de schémas, tableaux, dessins et cartes heuristiques

Nous avons constaté une totale absence d'emploi de tableaux, dessins et cartes heuristiques. Quant aux schémas, leur utilisation est très réduite. Cinq (05) étudiants sur un total de trente-neuf (39) noteurs ont inséré de minimes schémas dessinés avec des flèches, soit 12.82% des PDN. Ainsi, la conception de la PDN se limite à la linéarité réduisant ainsi l'exploitation efficiente de l'espace et des données.

5.4. L'après PDN

Nos résultats de l'analyse de l'aspect technique de la prise de notes dénotent une déficience avérée. Conformément aux travaux d'Aubrée (2007), nous nous interrogeons à présent sur leur compétence par rapport au dernier moment de la PDN, celui de l'exploitation, reformulation et enrichissement des notes prises à la hâte. A cet effet, une question a été adressée aux concernés sous la forme suivante:

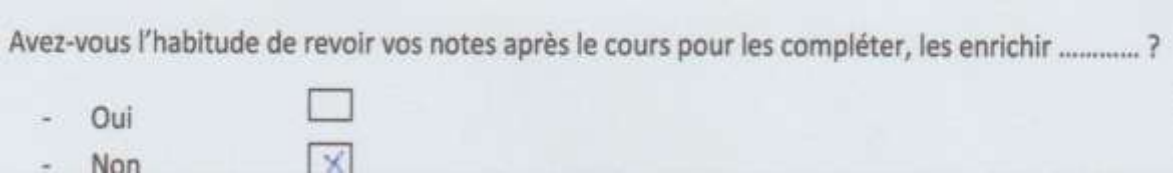

L'analyse des réponses révèle que les apprenants se limitent au moment présent de la PDN sans une exploitation fine et approfondie de ces bribes d'informations prises hâtivement. Nous rejoignons donc Hoffbeck et Walter (1987 : 2) pour lesquels « les notes ne sont jamais une fin en soi. Elles constituent une structure intermédiaire entre un produit (texte (…), livre, (…) conférence…) et une production ». Nos résultats nous permettent d'avancer que les notes ne sont que des béquilles en papier, incapables de constituer des appuis solides pour un apprentissage efficient, c'est-à- dire réutilisable à long terme.

Discussion et conclusion

L'analyse des procédés mobilisés par les étudiants lors de la pratique de la PDN était l'objectif de notre travail auquel nous associons une évaluation du degré de mobilisation du savoir-faire acquis précédemment en L1.

Les principaux résultats obtenus, en particulier par rapport à l'emploi des procédés de condensation nous permettent de conclure que dans le cadre du contexte expérimental présenté, les étudiants abrègent environ 1.38% des mots qu'ils transcrivent. Ce pourcentage inquièterait tout enseignant quant à la poursuite des études universitaires des étudiants en raison du fait que «pouvoir condenser ce qui est écrit est constitutif de la performance d'un noteur. Plus un noteur utiliserait de procédés abréviatifs, plus il montrerait qu'il note avec une certaine aisance» (Barbier, Faraco, Piolat et Branca, 2004: 149) ce qui lui permet d'appréhender le contenu des cours et réussir ses études.

Le recours au procédé abréviatif est rare et la variation, à savoir la différence des

été diffusé. Quant aux symboles, ils n'ont pas fait l'objet de travaux dirigés.

Cette présentation de l'état de la situation nous a conduite à nous intéresser au niveau lexical, à l'emploi des procédés de condensation, et au niveau phrastique ou discursif, au recours aux opérations de schématisation, singulièrement par l'emploi de pictogramme pour vérifier la présence ou l'absence de tableaux, schémas et cartes heuristiques dans les notes des étudiants, et vérifier également l'éventuel emploi d'autres précédés non enseignés en première année mais permettant de débloquer une situation problème puisque « les étudiants développent des savoir-faire personnels, acquis de façon « autodidacte » au fur et à mesure de leurs parcours, et en fonction de leurs propres référents» (Barbier, Faraco, Piolat et Branca, 2004: 144).

5. Résultats

Nous avons analysé chaque copie de l'ensemble des participants en fonction des paramètres suivants :

5.1. Utilisation des abréviations

L'analyse descriptive fondée sur la comparaison de la proportion de mots notés et celle de mots abrégés nous permet d'avancer que concernant le procédé abréviatif, les étudiants abrègent près de 80 mots sur un total d'environ 5991 mots notés, soit 1.33 %. Les abréviations sont totalement absentes dans les écrits de 22 étudiants sur 39, soit 56.41%. Quant aux 17 restants, ils contiennent de rares abréviations. La liste de mots abrégés est très pauvre et limitée. Il s'agit généralement des mêmes abréviations répétées, comme :

-*document* ***doc***, répété 07 fois sur un total de mots abrégés de 09 mots;

-*synthèse de documents* ***s.d,*** répété 05 fois,

-*texte* ***txt***, répété 04 fois,

-*résumé* ***R,*** répété 02 fois,

-*développement* ***developp***, répété 02 fois sur un total de mots abrégés de 20 mots

-*synthèse de documents* ***S de D***, répété 02 fois,

-*toujours* ***tjrs***, répété 02 fois sur un total de mots abrégés de 04 mots.

Certaines abréviations, particulièrement la réduction par apocope ou troncature se répètent dans plusieurs copies, exemple : ***doc*** (abréviation de *document),* qui figure dans 07 notes. L'abréviation par conservation de la charpente consonantique également, tel que le mot « *toujours » qui* a été abrégé ainsi ***tjrs*** par 05 étudiants.

Sur le plan lexical, les noteurs ont employé massivement la contraction d'unités syllabiques en optant pour des abréviations générales et connues (tjrs, txt, R). Leur emploi n'est donc pas nécessairement le résultat d'un enseignement/apprentissage en milieu académique, à l'exception du "R" (abréviation de résumé) qui est une réduction à l'initiale figurant dans la liste donnée par l'enseignante.

5.2 Utilisation des symboles

L'utilisation rare et restreinte des symboles est limitée entre un (01) symbole à quatre (04), figurant une seule fois ou répétés, dans les écrits de seize (16) étudiants sur trente-neuf (39), soit environ 41,02% des noteurs.

Durant les 85 fois où les seize noteurs ont pensé aux symboles, ils ont fait appel à 6 formes différentes de flèches (↓ ; → ; ↳> ; ↔ ; => ; ↻>) pour désigner un rapport, une suite ou un résultat et quatre autres signes : +, §, /, // pour exprimer l'addition, le paragraphe, la séparation de termes, séquences ou phrases et enfin la répétition.

en présentant le cours de la PDN. Ces questions ont été posées à ladite enseignante qui a été chargée de l'enseignement de la matière « Techniques du Travail Universitaire » l'année précédente. Nous avons donc mobilisé un entretien semi-directif, de face à face, à usage exploratoire auprès d'une personne-ressource avec prise de notes des réponses.

Cet entretien est le suivant :

Q1 : Quel était le programme à enseigner dans la matière TTU?

R1 : Nous avions la recherche universitaire, la recherche documentaire, la prise de notes, la fiche de lecture et l'exposé oral.

Q2 : Comment vous avez géré ces cours durant les deux semestres ?

R2 : Le premier semestre était plus riche que le second. Il contenait la recherche universitaire et documentaire, ensuite la prise de notes et enfin la fiche de lecture. Quant au deuxième semestre, il était consacré à la pratique. Il y avait l'exposé oral, avec des présentations orales et individuelles d'exposés.

Q3 : Avez-vous effectué des changements dans le programme proposé par l'université ?

R3 : Non, je n'ai rien changé.

Q4 : le programme proposé était-il détaillé (les composantes de chaque cours, déroulements des leçons…) ?

R4 : Malheureusement, non. On avait les intitulés des cours uniquement.

Q5 : De quoi se composait votre cours de prise de notes ?

R5 : Il y avait d'abord la définition de la prise de notes, ses objectifs, les situations dans lesquelles on peut prendre des notes et les techniques de prise de notes.

Q6 : Quelles sont les techniques que vous avez enseignées ?

R6 : Les abréviations et les symboles.

Q7 : Sont-ils les seuls techniques de PDN ?

R7 : Non, il y a bien d'autres, mais j'ai choisi les plus importantes parce que je n'avais pas du temps pour tout aborder.

Q8 : avez-vous fait des applications sur ces contenus ?

R8 : Oui, bien sûr.

Q9 : Sur quoi ?

R9 : Sur les abréviations.

Q10 : l'enseignement de la prise de notes a duré combien de temps ?

R10 : je ne me rappelle pas.

Comme cité *supra*, ces réponses se reflètent au niveau des cours présents sur les cahiers des étudiants. Après la définition et les objectifs de la PDN, les situations qui exigent une prise de notes, les différents supports à partir desquels nous pouvons prendre des notes ; une importante partie du cours a été réservée aux abréviations comme étant une des plus importantes stratégies de prise de notes. Les symboles ont été également abordés mais de façon plus succincte en comparaison aux cours abordant les abréviations. Ainsi, ces pratiques déclarées correspondent aux pratiques effectives. À côté de la manière d'abréger, l'enseignante a doté les apprenants d'une liste d'environ 53 abréviations de mots et expressions pour servir d'exemple (voir annexe); cet exemple ne s'est pas étendu aux symboles. Au sujet de la pratique, nous trouvons quelques applications sur les abréviations à partir d'un seul support écrit et de trois supports oraux (une vidéo et deux textes oralisés par l'enseignante). Aucun cours magistral n'a

Le choix du public s'est fondé sur les raisons suivantes :

- Deux ans d'apprentissage et de pratique de français à l'université ;
- Ils ont déjà étudié la prise de notes en première année de licence ;
- Ils n'ont plus la prise de notes en tant que contenu d'enseignement dans les programmes de formation de la deuxième année ;
- Ils sont astreints à prendre des notes dans le cadre de quelques matières.

Les participants ont été invités à prendre des notes lors d'un cours de « Compréhension et expression écrite (CEE) », avec leur enseignant habituel; le dimanche 13 février 2016, à 09h30. La prise de notes était une activité routinière durant les séances théoriques de cette matière. Autrement dit, l'enquête s'est déroulée dans les conditions didactiques écologiques, ordinaires.

1.2. Le cours à prendre en notes

C'était un cours d'environ quarante-cinq (45) minutes, dont l'intitulé est « la synthèse de documents ». Il fait partie du programme de cette matière. Il a été structuré ainsi :

1. Définition de la synthèse de document
2. Comparaison de la synthèse de documents avec les techniques étudiées précédemment : le résumé et le compte-rendu
3. Méthodologie de la synthèse de documents

✓ Lecture et analyses séparées des documents
✓ Extraction des éléments primordiaux de chaque document
✓ Comparaison des documents : points communs et points de divergence
✓ Rédaction de la synthèse (introduction, développement et conclusion)

4. L'analyse

Notre analyse s'est réalisée sur deux plans complémentaires.

Par le premier, nous avons évalué l'utilisation des procédés de condensation, enseignés l'année précédente dans le cadre de la matière TTU. La description des notes prises a été faite selon les critères ou descripteurs suivants :

- Présence ou absence des abréviations, ainsi que des proportions de mots abrégés par rapport au nombre de mots notés ;
- Présence ou absence de symboles ;
- Présence ou absence de schémas et tableaux ;
- Présence ou absence de cartes heuristiques.

Cette analyse a pour fonction non seulement, de favoriser une étude des procédés de condensation figurant dans les PDN recueillies ; mais également, de vérifier l'éventuelle efficacité de la prise en charge didactique de la technique de prise de notes telle qu'elle est enseignée actuellement à l'université et son effet sur le volet procédural c'est-à-dire l'exercice de la technique.

Par le second, en référence aux travaux d'Aubrée 2007, nous nous sommes intéressées à l'exploitation didactique qui devrait découler des notes prises durant le cours. En effet, il convient de préciser que ces notes ne sont que des prémices pour une élaboration approfondie du cours.

Nous précisons que lors de l'enseignement de la PDN l'an passé, l'enseignante s'est seulement intéressée aux abréviations et aux symboles. Ce constat émane de la lecture des cahiers de cours de nombreux étudiants, ainsi que des réponses obtenues à un ensemble de questions relatives au contenu et à la démarche suivie

jugées importantes, l'élagage des informations considérées à ce moment comme étant superfétatoires, et enfin la réécriture lisible de certaines notes prises à la hâte.

En second lieu, les auteurs considèrent que la mise au point favorise l'ordonnancement des blocs d'informations par leur regroupement sous l'égide de divers intitulés, permettant ainsi un classement des contenus sémantiques des notes prises, soit par rapport à une progression chronologique, ou thématique, ou toute autre jugée pertinente.

Un troisième objectif valide l'intérêt de la mise au point. Il s'agit de la rectification du sens des notes ambigües ou confuses ou encore insuffisamment conceptualisées par rapport aux autres. En plus, de cet aspect sémantique, cet objectif permet de rectifier la dimension orthographique des notes prises.

Enfin, le quatrième et dernier objectif énoncé par Offbeck et Walter est que la mise au point permet de compléter la prise de notes nécessairement sélective. Cette activité est multidimensionnelle. Il s'agit de compléter les lacunes des notes prises par la comparaison avec les notes d'autrui, la réminiscence du cours ou encore la lecture d'ouvrages ressources. Il s'agit également de compléter le contenu sémantique des notes par une conceptualisation graphique/schématique fondée sur l'opération mentale qu'élabore toute personne à partir des mots clés et des liens de logique ou rapports de raisonnement pouvant les associer : cause, conséquence, but, opposition, comparaison, …etc.

En définitive, l'après PDN est donc un moment constitutif de la didactique de la prise de notes et une situation problématique posant des difficultés aux apprenants puisqu'elle confronte « le discours source-à partir duquel se fait l'activité (processus) - et les notes (produits) des étudiants » (Boch, Tutin et Grossmann, 2003, p. 30).

De ce fait, au regard des exigences de ces deux moments de la PDN, cette dernière est désormais *un objet d'enseignement*. *Le socle commun s'*est présenté avec d'importants changements : introduire des matières, répartir d'autres en cours et TD et enrichir des programmes, notamment par l'enseignement de la PDN. Elle est enseignée dans le cadre de la matière de l'unité méthodologique « techniques du travail universitaire », pour les étudiants de première année licence de français avec d'autres techniques rédactionnelles nommées pour le premier semestre uniquement, à savoir la recherche universitaire, la recherche documentaire et la fiche de lecture.

Qu'en est-il de l'écho de cet enseignement ? Permet-il l'instauration d'une efficace démarche d'apprentissage ? L'enseignement proposé rend-il l'étudiant capable d'utiliser aisément les procédés de condensation lors des cours magistraux ? Pour répondre à ces questions, nous avons mené une enquête que nous explicitons dans les lignes qui suivent.

3. Méthode

3.1. Participants

Les participants sont au nombre de trente-neuf (39) étudiants de deuxième année licence de français, inscrits à l'université Mohammed Chérif Messaâdia de Souk Ahras. Ils se composent de neuf (09) garçons et de trente (30) filles, dont l'âge varie de dix-neuf (19) à trente (30) ans.

Kilomètre/ Dr Docteur/ Av Avenue/ N.B. Nota bene/ Fig Figure/ c'est-à-dire c-à-d/ beaucoup bcp.

La majorité des procédés d'abréviations est basée sur :

1) La concentration sur les consonnes qui consiste à supprimer les voyelles graphiques et à préserver la première et la dernière consonne ; ex : *dans/ds, vous/vs.*

2) La troncature de la terminaison en signalant les suffixes par leur dernière lettre ; ex : *tion/n.*

3) La concentration sur l'amorce du terme, ex : *idéologie/ idéo, système/syst…*

4) La méthode Meras (Méthode d'Ecriture Rapide Abrégée Simplifiée) élaborée par Ysabelle Cordeil-Le Millin en 2007 et dont le principe est de représenter chaque syllabe par une lettre et privilégier les sons entendus tout en supprimant les accents, la ponctuation, les voyelles à l'intérieur des mots, toutes les lettres muettes et les consonnes doublées.

1.2 Les symboles

Dans le même but d'économiser le temps et l'espace, le noteur doit penser à symboliser des mots, des concepts, des idées et même des relations logiques. L'opération se réalise à l'aide de symboles, pictogrammes, topogrammes et idéogrammes qui représentent la signification de ce qui est transcrit, sans avoir besoin de traduire la prononciation, ex : & pour l'addition, ≠ pour *différent,* → pour *la conséquence,* ← pour *la cause* ou *l'origine,* ≈ pour *stagnation,* ♥pour *amour* [2] …

1.3 Schéma et tableau

Penser à schématiser le contenu de son cours ou organiser les principales idées dans un tableau permet l'aération des pages, la simplification des notes, l'économie du temps et de l'espace, pour une meilleure exploitation des notes prises après le cours et pour se préparer aux évaluations.

1.4 La carte heuristique

Cette carte donnant une représentation globale du contenu à sauvegarder avec un réseau associant images, mots, abréviations et symboles peut être un pertinent moyen assurant une prise de notes entièrement sélective, parce qu'elle nécessite uniquement l'utilisation de mots clés ou d'images (Cordeil-Le Millin, 2007 : 109).

2. La prise de notes : au – delà de la technique

En suivant Hoffbeck et Walter (1987, page 6) « la prise de notes est toujours une attitude active » puisque non seulement durant la technique, le noteur hiérarchise les informations et les structure, mais en plus, la relecture des notes devrait ressusciter le souvenir du cours, remettre dans le bain l'apprenant pour « pallier les défaillances ou les approximations » de certaines notes (op.cit. page 10) et élaborer ainsi un contenu plus riche du cours noté, nécessitant souvent des informations complémentaires.

Selon ces auteurs, le moment de l'après PDN est une dimension chronologique constitutive de la didactique de la prise de notes puisqu'il sert à la structuration des données sémantiques.

L'après PDN, ainsi, devrait contribuer à mieux structurer les données recueillies puisque cet aspect chronologique permet d'hiérarchiser les informations et une mise au point des notes prises. L'après PDN est une étape de la didactique de la prise de notes. En effet, d'après Offbeck et Walter (1987, pages 53-54) quatre objectifs fondent cette étape :

Il s'agit en premier lieu, de clarifier les informations par le maintien des données

apprentissage de la prise de notes par les étudiants participants. Ces derniers n'avaient pas reçu un enseignement spécifique de la PDN, durant le cursus de la licence classique (se référer à l'étude conduite en magister). Nos résultats nous ont permis de noter que nos étudiants participants employaient très peu de procédés de condensation et de rares abréviations et de symboles. Avec le timide changement de la situation par l'introduction du socle commun, nous avons pensé à refaire la recherche dans un contexte différent, puisque désormais les étudiants ont obligatoirement un enseignement de la PDN. Le contenu de formation élaboré par les membres du Comité pédagogique national de domaine LLE en témoigne.

Accorder une valeur à la PDN par son introduction dans les programmes à enseigner est une reconnaissance didactique certaine qui nous ouvre d'importantes voies d'études, à l'instar de la comparaison entre le contenu sémantique du document écouté, lu ou observé et celui des notes prises; ou encore l'analyse des effets des connaissances linguistiques et encyclopédiques sur la PDN. Dans le cadre du présent article, nous nous sommes focalisées sur d'une part, le degré de maitrise des procédés de condensation nécessaires en situation de PDN ; et d'autre part, sur l'efficience de la PDN en tant que stratégie d'apprentissage, c'est-à-dire son opérationnalisation en situation de travail.

Avant d'orienter cette étude vers l'analyse des données collectées, il nous semble important de rappeler d'abord les stratégies de la PDN qu'un étudiant universitaire doit maîtriser ainsi que la technique telle qu'elle est enseignée au niveau de notre université.

Il est certain que les notes sont prises durant un cours, cependant leur bonne réalisation se fait en trois moments fondamentaux : se préparer « *avant le cours*, noter *durant le cours* et exploiter ses notes *après le cours* » (Aubrée, 2007 : 20). Dans le cadre de cet article, nous analysons deux moments constitutifs de cet acte : pendant et après la PDN.

1- La prise de notes : une technique

Pendant la PDN, le noteur est contraint d'utiliser diverses techniques ou procédés de condensation permettant de réduire la taille des notes et gagner du temps. Ces procédés d'ordre technique comportent essentiellement :

1.1. L'abréviation

C'est l'un des principes fondamentaux de la prise de notes, comme le confirme Piolat (2001 : 6) « *La PDN serait, alors, l'opération par laquelle un individu parviendrait à abréger des informations et à les transcrire sous une forme résumée* ». Il s'agit de retranchement :

-de lettres dans un mot,

-de mots dans une phrase pour écrire plus rapidement ou prendre moins de place (Robert, 2001 : 8).

Utilisées à bon escient, les abréviations facilitent considérablement la prise de notes. A cet effet, leur constitution ne se fait pas en fonction de l'inspiration du moment, mais en respectant un code établi durablement. C'est ainsi qu'en didactique de la PDN, le processus l'emporte sur l'application éphémère d'une technique comportant un ensemble de procédures d'abréviations à utilisation limitée. Certaines abréviations sont stables, comme : *Km*

Introduction

L'étudiant universitaire dans les diverses spécialités : littéraires, scientifiques et techniques est confronté à des contraintes majeures liées à la manière dont il reçoit le savoir (**le cours magistral**), ainsi que la démarche lui permettant une meilleure sauvegarde des informations jugées importantes, c'est-à-dire l**a prise de notes**.

Etant définie par LE ROBERT (2001 : 1684) en tant que « *brèves indications recueillies par écrit (en écoutant, en étudiant, en observant)* » et par la spécialiste du domaine en tant *qu'« opération par laquelle un individu parviendrait à abréger des informations et à les transcrire sous une forme résumée* » (Piolat, 2001 : 06), la prise de note est un paramètre fondamental de la didactique de l'écrit en rapport avec des situations orales et/ou écrites. Sa présence au niveau de ces deux situations langagières ainsi que sa visée de transcription rapide d'informations lui confère un rôle important, *a fortiori* en raison du fait que l'étudiant est souvent inhibé ou trahi par les capacités limitées de ses ressources mémorielles, notamment en situations d'évaluation. Nous pensons que la maitrise de la pratique de la prise de notes, aux niveaux formel et conceptuel, peut contribuer à résoudre le problème et offrir à l'étudiant « une mémoire externe » (Piolat, 2003 : 01) lui évitant l'échec. Une prise en charge didactique de la prise de notes est donc indispensable au regard de sa complexité plurifactorielle, sa forte présence dans la majorité des matières d'enseignement, voire de son incidence sur la réussite du parcours de formation.

En dépit de son importance en tant que moyen d'apprentissage, la prise de notes (désormais PDN) n'a pas constitué un objet d'enseignement/apprentissage obligatoire en licence classique de français. En effet, malgré l'existence du module « techniques d'expressions écrite et orale, TEEO », la PDN n'a pas constitué un paramètre approuvé au niveau du contenu de formation [1] . Ainsi, en l'absence de programme ministériel, c'est à l'initiative de l'enseignant de l'inclure dans son programme. C'est cet état qui explique la disparité de prise en charge de la prise de notes au niveau des enseignements de la licence classique. Ainsi, elle était présente au niveau de certaines universités et absentes pour d'autres. En revanche, avec la généralisation du « socle commun » (année universitaire 2013/2014), dont l'objectif est d'unifier les programmes enseignés dans toutes les spécialités linguistiques et littéraires des universités algériennes, la PDN a pu avoir un caractère obligatoire, voire national. Elle est devenue l'une des techniques à enseigner, durant un semestre, aux étudiants de première année, de toute licence en lettres et langues étrangères dans le cadre de la matière « Techniques du travail universitaire » (TTU) ; en association à d'autres techniques.

Nous estimons à travers ce travail, vérifier si l'intégration de la PDN avec les autres techniques de recherche universitaire, de recherche documentaire et la fiche de lecture a donné les fruits escomptés par la tutelle. Est-ce que cet enseignement semestriel est suffisant et efficace au sens d'opératoire ?

Nous nous sommes déjà intéressées à la manière dont les étudiants algériens prennent des notes lors des cours magistraux dans le cadre de la recherche en magister (Bouchaïr, 2009). Mais cette recherche a été conduite en l'absence totale d'un préalable

Le socle commun en Algérie, a-t-il aidé la prise de notes à trouver sa place parmi les autres pratiques de l'écrit à l'université?

1- Wafa BOUCHAÏR
Département des langues étrangères
Université de Souk-Ahras

2 - Pr. Nawal BOUDECHICHE
Département de des langues étrangères
Université Chadli Bendjedid. El-Tarf

ABSTRACT

Note taking is a writing activity of teaching methodology and interdisciplinary of university culture from oral and/ or written issues. It is obviously an important means to learning. It has become a teaching/ learning subject body with the generalization of the common standard in Algeria. We intend, through this work, to check whether the way note taking is handled is sufficient and efficient.

KEY WORDS : note-taking , teaching/ learning, common standard.

الملخص :

إن تدوين رؤوس الأقلام تعد من أهم الممارسات الكتابية كونها إحدى وسائل التعلم في الجامعة. وبفضل تعميم برنامج التعليم القاعدي المشترك في الجامعة الجزائرية، أصبحت تدوين رؤوس الأقلام مادة تعلم و تعليم. نسعى من خلال هذا العمل إلى التأكد من كفاءة و فعالية الطريقة التي تدرس بها تقنية تدوين رؤوس الأقلام حاليا.

الكلمات المفتاحية : تدوين رؤوس أقلام - تعلم- تعليم- القاعدة المشتركة

REFERENCES BIBLIOGRAPHIQUES

1 -Les exemples présentés ont été recueillis et enregistrés auprès de personnes âgées. Leur mémoire étant le plus authentique des témoignages sur l'histoire de la chanson à Souk Ahras.

Bibliographie

- Argaud Evelyne, 2006, La *civilisation et ses représentations*, Berne, Peter Lang.
- Collectif, 1986, *Aspects de la culture algérienne*, Paris, Centre culturel algérien à Paris.
- Collectif, 1987, *Aspects de la société algérienne*, Paris, Centre culturel algérien à Paris.
- Dumont Pierre [en collaboration avec Renaud Dumont], 1998, *Le français par la chanson. Nouvelles approches de l'enseignement de la langue et de la civilisation françaises à travers la chanson populaire contemporaine*, Paris, L'Harmattan.
- Espinosa Aurélie, (dir. Jean Rocher), 2004, *Les musiques du monde en question : entre enjeux actuels et perspectives d'avenir*, mémoire de fin d'Etudes à l'IEP de Lyon, [en ligne] URL: http://doc-iep.univ-lyon2.fr/Ressources/Documents/Etudiants/Memoires/MFE2004/espinosa_a/pdf/espinosa_a.pdf.
- Estival Jean-Pierre, 1999, « Les musiques du monde et l'Etat », In *Les musiques du monde en question*, Internationale de l'imaginaire, N° 11, Babel, pp 68-80.
- Garmadi Juliette, 1981, *La Sociolinguistique*, Paris, P.U.F.
- Levi-Strauss Claude, 1987, « Musique et identité culturelle », In *Harmoniques*, Ircam.
- Marcel-Dubois Claudie, 1965, « Les musiques traditionnelles et ethniques » In *La Musique*, Paris, Librairie Larousse, tome 1, pp 6-14.
- Oriol Michel, 2000, « La chanson populaire comme création identitaire: le rebetiko et le rai; De la transgression locale à la reconnaissance mondiale. », *Revue européenne des migrations internationales*, Volume 16, Numéro 2, pp 131-142, [en ligne] URL: http://www.persee.fr/web/revues/home/prescript/article/remi_0765-0752_2000_num_16_2_1731.

considérer comme un document au même titre que d'autres (textes littéraires ou non, articles de journaux, publicités, documents vidéo, etc.) qui permettent d'élargir considérablement le champ d'investigation du professeur en s'appuyant sur des activités ayant l'heur de plaire aux élèves. » (Dumont Pierre et Dumont Renaud, 1998 : 73). Ainsi, l'enseignant peut proposer, comme consigne à ses apprenants, de lire ces textes traduits et d'en produire d'autres en s'y référant (pastiches, parodie, poèmes etc.), différents par le contenu, la forme ou la longueur, etc.

Par ailleurs, la chanson populaire traditionnelle se présente comme l'un des meilleurs supports pour promouvoir une approche interculturelle de la langue. En effet, en raison de la présence d'emprunts et d'interférences avec la langue française, il serait plus facile d'expliquer aux apprenants le phénomène de contact des langues et des cultures. D'ailleurs, elle en présente, à divers degrés, une preuve ancrée dans l'histoire et la culture algérienne. Appréhender une approche interculturelle permettrait aux apprenants de découvrir l'Autre dans sa différence mais aussi sa richesse ; de comprendre ce qui peut rapprocher deux cultures et ce qui les différencie et de discerner en quoi et sous quelle forme (ou contenu) une culture peut influencer une autre. Il s'agit, en ce sens, d'encourager un processus réflexif permettant de questionner ses propres représentations de l'Autre, en confrontant l'image de l'Autre dans ces chansons avec celle, plus contemporaine, véhiculée par les médias et rendue encore plus accessible grâce aux technologies numériques. La chanson devient alors un espace culturel historicisé qui témoigne à la fois d'un croisement et d'un clivage identitaire entre deux peuples, deux cultures.

Conclusion

La chanson populaire traditionnelle est porteuse non seulement de la culture d'une société (coutumes, relations, changements, aspirations...) mais également de ses valeurs esthétiques qui déterminent sa conception de la beauté poétique et musicale. Bien entendu, toutes ses composantes sont issues d'une élaboration qui s'est faite dans le temps, soumises aux changements politiques, aux rencontres culturelles, aux différents artistes qui se les sont appropriées. Se référer à une tradition musicale signifie donc envisager l'ensemble des savoirs, des pratiques et des répertoires d'une société en tant que domaine culturel identifiable et cohérent. C'est aussi évoquer sa signification et son rôle au sein de son contexte, son développement historique, ses stades d'évolution, ses mutations, les évènements et les influences qui l'ont marquée.

C'est dans cet esprit que l'on peut considérer la chanson populaire traditionnelle souk ahrasienne comme porteuse d'une identité culturelle de la région. Elle se présente comme la mémoire du passé d'une culture et constitue un élément, sinon indispensable, essentiel à la construction et/ou à la compréhension de soi et de sa culture. C'est pourquoi il nous semble important de préserver ce patrimoine et de penser aux modalités garantissant sa transmission, notamment à travers son exploitation en tant que support didactique et comme moyen permettant d'impulser une approche interculturelle en didactique du français langue étrangère.

Dans la Deuxième chanson, l'utilisation d'un mot français (préfet) intégré à l'arabe dialectal rend compte de l'influence du colonialisme, en tant que fait historique, sur le parler et la société algérienne. Cette chanson nous offre également un aperçu des diverses instances administratives ou autres qui régissait la société à cette époque (Bey, surveillant, préfet..).

4- La chanson populaire traditionnelle : quel potentiel didactique ?

L'une des principales questions, qu'il importe de poser, concerne le statut de la chanson populaire traditionnelle à notre époque. Faut-il l'enseigner ? Si oui, comment et quelle fonction peut-elle assurer dans notre société contemporaine?

Pour répondre à ces questions rappelons ici que la didactique des langues a d'abord privilégié la chanson traditionnelle ou folklorique en tant que support didactique avant de s'intéresser à la chanson contemporaine. Damoiseau et Marc note à ce propos : *«L'enseignement, lorsqu'il s'est intéressé à la chanson, s'est tourné surtout vers la chanson folklorique.* » (Damoiseau et Marc, cité par Argaud, 2006 : 177).

Ainsi, il n'est pas nouveau que de vouloir exploiter la richesse de ce support. Cependant, peu de travaux ont été réalisés quant à l'utilisation de la chanson traditionnelle algérienne. Plusieurs raisons peuvent être avancées. L'on suppose que la langue de ces chansons (l'arabe dialectal) n'en fait pas un support privilégié pour l'enseignement de l'arabe et encore moins pour l'enseignement du français langue étrangère. S'ajoute à cela, le fait que ce patrimoine culturel reste confiné dans son oralité et n'a pas fait l'objet de véritables travaux permettant de le transcrire ou de le transmettre.

En l'absence de textes écrits ou d'ouvrages pouvant rendre son exploitation et sa didactisation plus aisés pour les enseignants, la chanson populaire traditionnelle s'est vue reléguée au domaine extrascolaire. Or, la préservation de tout patrimoine culturel passe par sa transmission d'une génération à une autre. Un rôle que l'école peut et doit assurer.

A cet effet, nous pouvons proposer diverses activités permettant d'exploiter la chanson populaire traditionnelle en tant que support didactique pour l'enseignement du français. En effet, cette chanson peut constituer un excellent moyen pour impulser une réflexion linguistique autour de la relation entre la langue maternelle et la langue étrangère, tout en favorisant une approche interlinguistique. L'on peut, à titre d'exemple, la proposer comme support pour des activités de type "thème et version". Les apprenants seront invités alors à traduire des chansons traditionnelles en français. Ce type d'activités ne leur permettrait pas seulement de découvrir leur patrimoine culturel mais aussi de constater les particularités de chaque langue et la manière dans le sens se construit dans une langue et qui peut différer d'une langue à l'autre. Les textes traduits par les apprenants peuvent eux mêmes donner lieu à des activités de corrections orthographique, grammaticale et/ou lexicale. Les apprenants peuvent ainsi corriger les textes de leurs pairs ou s'auto-corriger à la lumière des indications de l'enseignant.

De surcroit, les textes de ces chansons, traduits en français, peuvent donner lieux à diverses activités d'analyses textuelles et/ ou littéraires. Notons ici que « *La chanson en classe de français est à*

3.4- Réalités sociales et/ou politiques

A travers les différents thèmes abordés, les chansons traditionnelles nous permettent souvent de prendre conscience de la réalité sociale des peuples car elles en dépeignent des faits, des évènements, des situations de la vie quotidienne. Elles présentent, ainsi, des témoignages authentiques sur une époque et sur une région et ses habitants.

Les exemples suivants évoquent certains aspects de la société souk ahrasienne durant la période coloniale.

Exemple 1

يا ربي سيدي واش عملت انا و وليدي نبكي و نهاتي من المشروحة لواد زناتي
Je pleure et je crie de Mechroha jusqu'à Oud Zenati
Ô Seigneur qu'avons-nous commis mon fils et moi
يا ربي سيدي واش عملت انا و وليدي ربيتو بيدي واداتو بنت الرومية
Ô Seigneur ! Qu'avons-nous commis mon fils et moi
Je l'ai élevé de mes main et la fille d'une française l'a emmené loin de moi
ربيت راجل و كي كبر ظهر لي عاجل كي ينول عاجل اداتوا و الراجل رحل علي
J'ai élevé un homme, une fois grand, il m'a semblé bien pressé
Empressé il était d'acquérir ; elle l'a pris et il m'a quitté
نبكي ونهاتي على ولدي لداتو رومية الرومي الغدار دالي ولدي و شبعني عار
Je pleure et crie pour mon fils qu'une française a pris
Le français infidèle (traitre) a pris mon fils et d'un déshonneur m'a accablé

Exemple 2

طالع نشكي للباي و نزيد المراقب طالع نشكي للباي ونزيد المراقب
J'irai me plaindre au le Bey et aussi au surveillant (2 fois)
نسهر نايا و خي كشتا نتعاقب
Je passerai la soirée avec mon aimé même si j'en serai punie
طالع نشكي للباي و نزيد البريفي طالع نشكي للباي ونزيد البريفي
J'irai me plaindre au le Bey et aussi au préfet (2 fois)
نسهر نايا و خي وتعدي على كيفي
Je passerai la soirée avec mon aimé et elle se déroulera selon mes désirs

La première chanson dénonce les mariages (ou relations) mixtes. Elle présente la complainte d'une mère dont le fils s'est lié à une française « bent roumia ». Sa détresse est décrite d'une façon poignante : elle pleure et veut faire entendre au monde son désespoir. La distance entre Mechroha et Oued Zenati, que cette mère affligée parcourt à pied en pleurant, montre l'étendu de son malheur.

Cette chanson souligne également un autre aspect de la société souk ahrasienne de l'époque, qui considère cette relation avec une « roumia » comme un déshonneur.

La femme pleure la perte de son fils mais également le déshonneur qui l'a accablée suite à son départ avec une française (roumia).

Proclamant la grandeur d'Allah, cette chanson invite les croyants à s'adonner à la prière, au carême et aux bonnes actions car la vie est éphémère. Elle leur rappelle la mort, le tombeau, le jugement et les exhortent à se préparer, dans cette vie, pour celle qui les attend.

Les images qu'elle suggère sont très expressives et visent à inciter les inconscients à l'amour d'Allah et à s'investir dans ses sentiers.

3.3- Conseils et leçons

Les chansons traditionnelles sont chargées d'un ensemble de valeurs qui leur confèrent leur identité, leur originalité et leur portée symbolique. Elles présentent des exemples à suivre, des comportements à bannir. L'essentiel étant d'inculquer les valeurs auxquelles adhère le groupe : courage, honneur, hospitalité, etc. De même elles ont un rôle socio-didactique dans le sens où elles transmettent les expériences viatiques passées et tentent de transmettre aux générations montantes une sagesse ancestrale.

Exemple

يا صاحبي نوصيك لاتصحب الغري في وجهك يضحك وفي قفاك يوري

Mon Ami, je te conseille, d'amitié ne te lie pas à un sacripant

En ta présence il rit et en ton absence de toi il rigole

يدي خبرك للنساء والذري

Il dévoile tes secrets aux femmes et aux enfants,

اما اصحب الشاطر في وجهك يضحك

Mais prends comme ami un brave en ta présence il rit

و في قفاك يخاطر

et en ton absence, pour toi, il prend des risques

لبلاد الساهلة يلوحلك عليها قنطر

Vers les pays abondants, il te construit des ponts

ولبلاد الواعرة يلوحك خلاص عليها

Et des rudes il te dévie

يا ناس نا خاطري خص لكون شاورت شايب

Ô gens, je suis accablé Si seulement, conseil, à un vieillard, j'avais demandé

يا فيها ينهيش على العيب يا فيها ينعتلي المسلرب

Il m'aurait ou des péchés éloigné, ou vers les bons chemins orienté

Cette chanson incarne le rôle socio-pédagogique que la société veut assigner à la chanson. Elle se présente sous forme de conseils insistant sur l'importance à accorder au choix de ses amis. Elle dépeint, à cet effet, le rôle déterminant que les amis peuvent jouer dans la vie d'un individu. De même, elle décrit la sagesse de la vieillesse et encourage les jeunes à écouter les enseignements des personnes âgées, marquées et assagies par les expériences de la vie.

pour ce genre de chansons.

3.2- La religion

Moyen de communication fort et rassembleur, la chanson représente un outil efficace pour clamer son appartenance à un groupe ou à une religion.

Nombreuses sont les chansons populaires traditionnelles ayant pour thème les sentiments religieux : elles exaltent la religion, parlent de l'adoration de Dieu, de l'amour pour le prophète, des efforts à fournir au service du bien. Elles accompagnaient souvent les travaux agricoles (labeurs, moissons…). Leur présence est d'autant plus marquée dans les fêtes et cérémonies religieuses comme la naissance du prophète (le mawlid), le nouvel an islamique, l'aïd, les circoncisions, etc.

Exemple

الله ولااله إلاالله أي واش خلافونا عبادة

Dieu, Il n'y en a qu'un et nous n'adorons que lui

أي عين الجنة راهي تجري والقبلة مجراها

La source du paradis coule et en direction de la Mecque s'écoule

و اللي ما صلى ما صام ما يشربش من ماها

Et ne peut s'abreuver de son eau celui qui ne prie ni jeûne

وها بونادم يا المشوم لا تصلي لا تصوم

Ô vil personne qui ne prie ni jeûne

وطامع ليك الدنيا تدوم ما دايم غير وجه الله

Qui espère que la vie te soit éternelle il n'y a que Dieu seul l'éternel

يا بونادم يا وسواس يا وكال نتاع الناس

Toi qui attise la tentation et t'approprie ce qui aux autres appartient

دني على قبرك عساس وغدوة بين يدين الله

Mets sur ta tombe un gardien et de Dieu protège-toi

انا ماشي للجبانة ونلقى فيها الناس رقود

Moi, vers le cimetière je me dirige Je trouverai des gens endormis

كتانة ولوخر على جنبه ممدود لوخر متوسد

L'un n'a qu'un chiffon comme oreiller et l'autre sur un côté est étendu

قلتلهم يا عمر الهانة قالوا لياهكا تعود

Je leur ai dit : quelle vie de misère! C'est à quoi tu es destiné, m'ont-ils répondu

لا اله الا الله واش خلافو نا عبادة

Dieu, Il n'y en a qu'un et nous n'adorons que lui

3.1- L'amour et les relations Homme/ Femme

L'amour est l'un des principaux thèmes de la chanson traditionnelle souk ahrasienne. Il prend différentes formes et se subdivise en sous-thèmes : la description de la (le) bien aimé(e), complainte suite à l'absence de la personne aimée, la peine, l'espoir, le chagrin, la joie, la solitude, l'indifférence, le dilemme entre l'amour et la religion/société, etc.

Les chansons évoquant l'amour sont, sans doute, les plus répandues et les sentiments amoureux sont, par conséquent, ceux privilégiés et abondamment décrits dans les fleurons de ces chansons.

Exemple[1]

جابيت على سوق اهراس لاحولي الحدايد في رجلي
Passant par Souk-Ahras On m'a mis les fers aux pieds
هو الشيطان بنالحرام ويا ربي تغفرلي السية
C'est le diable qui m'a tenté et je prie Dieu pour me pardonner
عام السنا راو يفوت وهذيك اعمالي بيدي
Le temps passera et ceci est ce que, de mes mains, j'ai commis
يا لالا راو جاني خبرك ورحت للبيت نزارب
Ma chère, j'ai eu de tes nouvelles et je me suis empressé vers ta demeure
يا للا نشهدلك شهدة ونحطك في خيار المضارب
Ma chère, en ta faveur je témoignerai et dans les meilleures des endroits je te placerai
يا للا راك شويتيني شية الكبدة علي الجمرات
Ma chère, pour toi, je brûle Comme le foie sur la braise
حلي حزامك ودسيني ونطفوا طراش من الميعاد
Ouvre ta ceinture et cache- moi Laisse notre rencontre éteindre ce feu en moi

cette chanson, l'auteur met en avant le poids de la société et de la religion par rapport aux sentiments amoureux. Il commence par décrire le châtiment subi avant d'invoquer Dieu et de prier pour sa miséricorde. Il enchaine ensuite par l'expression de son amour et de son désir de la femme aimée. Cette progression thématique nous renseigne sur le déchirement qu'il éprouve entre son amour-désir et les interdits sociaux et religieux.

Parler d'amour n'est donc pas seulement parler d'une relation. Au-delà de ce qui se passe entre deux personnes, sont évoquées les valeurs sociales fondamentales de la communauté dans laquelle se chantent les paroles en question.

En ce sens, la chanson fait entendre la dimension sentimentale des rapports sociaux et aide à comprendre qu'ils ne sont pas simplement affaire de conscience ou d'analyse objective mais marqués de tensions voire de conflits.

La chanson exprime donc des passions, évoque les interdits sociaux qui en bannissent toute manifestation publique. Elle loue la pudeur colorant l'ensemble des comportements féminins, et le courage (ou l'audace) caractérisant les comportements masculins. Souvent, elle s'insurgent même contre les exigences morales et religieuses de la société. Autant de sous-thèmes qui expliquent l'engouement de la communauté

répertoire des chansons folkloriques se composent souvent de chants à formules simples facilitant la répétition et donc l'apprentissage.

Aujourd'hui encore, la transmission continue de se faire oralement par l'intermédiaire de nouveaux moyens de communication de masse tels que la télévision, la radio, les cassettes, les CD, Les enregistrement audio sur Internet, etc. Il va sans dire que les technologies modernes de conservation de ces productions ont permis de sauver définitivement une quantité de ce patrimoine.

2- Tradition et renouveau dans la chanson populaire tradionnelle

La chanson populaire traditionnelle n'est pas, comme certains peuvent le croire ou comme le qualificatif "traditionnelle" laisse supposer, figée dans la tradition. Elle est constamment renouvelée par des interprètes dont le potentiel créatif est inépuisable. En effet, le propre d'une tradition musicale n'est pas de conserver intact un patrimoine hérité du passé, mais de l'enrichir selon les circonstances du présent pour en transmettre les fruits aux générations à venir.

Comme les langues, cet héritage patrimonial est donc un idiome en constante mutation. La chanson populaire traditionnelle, comme tout genre musical, constitue à la fois un héritage, reçu avec ses spécificités et ses caractéristiques et un legs à transmettre. La dimension créative n'en est pas exclue car consciemment ou pas, chacun s'approprie cet héritage et le façonne à la mesure de son talent : chaque chanteur s'approprie le répertoire transmis. Il le fait revivre selon son style personnel et le fait correspondre à son époque. Il n'est pas cantonné dans le rôle d'un imitateur mais imprègne ce patrimoine de son empreinte personnelle tout en garantissant à la fois sa conservation et sa transmission aux générations futures. Ainsi il y intègre ses contributions personnelles et sa façon d'interpréter la chanson traditionnelle.

Les chansons populaires traditionnelles subissent alors diverses variations du fait que les interprètes se les approprient et les inscrivent dans le prolongement d'un mouvement de renouveau. C'est ce qui explique que différentes versions existent d'une même chanson. Néanmoins la reconnaissance par la société dont l'interprète fait partie fixera la limite de ce qui est perçu comme un apport vivifiant d'une tradition, de ce qui s'en écarte en opérant une rupture.

C'est en ce sens que de nouvelles versions voire de nouvelles productions s'inscrivent dans le prolongement de cet héritage, sans chercher à le renier et encore moins à le remplacer: Il s'agit d'avantage d'assurer une continuité musicale que la communauté culturelle peut reconnaitre et accepter sans sentir les dissensions d'une rupture et sans subir de déroutants effets de mode.

3-Thématique de la chanson populaire traditionnelle

La chanson traditionnelle accorde une place de choix à certains thèmes. Ceux-ci rendent compte des préoccupations des membres de la communauté culturelle; de leurs joies et espérances, de leurs aspirations et angoisses, voire de leur sens et de leur acception de la vie. Nous tenterons ici d'appréhender les principaux thèmes abordés.

Introduction

La chanson populaire traditionnelle est une chanson qui identifie un groupe, une communauté, une population. Ceux-ci la reconnaissant comme étant le fruit de leur culture. Elle est définie par un instrumentarium et une fonction sociale déterminés (Estival , 1999: 71).

La région de Souk-Ahras dispose d'un répertoire assez important de chansons traditionnelles. Elles se caractérisent par une prééminence de la voix de l'interprète, accompagnée généralement de la "gasba" et du "bendir". Des chanteurs originaires de cette région tels que El hadj bouregaa et Baggar Hadda ont réussi à se faire connaître à travers tout le territoire national et même l'échelle maghrébine.

Nous tenterons dans ce qui suit de présenter quelques aspects de la chanson populaire traditionnelle dans la région de Souk-Ahras et de nous pencher sur son potentiel didactique pour l'enseignement/apprentissage des langues-cultures.

1- L'oralité comme base de production et de transmission

La société souk ahrasienne reste une société traditionnelle où l'oralité revêt une importance de premier ordre. Elle est fondatrice de la pratique culturelle et caractérise donc les modes de production et de transmission des chansons populaires traditionnelles. Ceci se reflète clairement dans la langue même de ces chansons. Une langue, exclusivement orale, qui se distingue par ses sons, mots et/ou tournures de l'arabe classique (ou littéral). Elle en représente, toutefois, une variante qu'on peut appeler arabe dialectale.

A ce sujet, il est à noter que l'Algérie connait une assez grande diversité de parlers (Garmadi, 1981:139). En plus de l'arabe littéral, on trouve des langues dites orales qui constituent l'arabe dialectal. Elles représentent un outil linguistique adapté à la vie du peuple qui lui permet d'exprimer ses besoins et ses aspirations.

L'arabe dialectal est, de ce fait, la langue véhiculaire des créations populaires, portant en elle un grand patrimoine culturel dont les chansons traditionnelles constituent une partie non négligeable.

En outre, il n'est pas exclu de trouver des emprunts du français dans cette variante dialectale de l'arabe. En témoignent certains passages de nos chansons populaires traditionnelles. Ainsi Baggar Hadda chante « "train" تاع الربعة » (train de quatre heures) ou encore « " la gare"دمه سايح طريق » (son sang versé sur la route de la gare), etc.

Le mode de transmission de ces productions est principalement oral : par imprégnation et répétition mais aussi avec un certain degré d'improvisation et de créativité. Les chanteurs apprenant ces chants « d'oreilles ». C'est pourquoi le patrimoine musical s'est souvent transmis au sein de la cellule familiale. L'émulation et l'imprégnation peuvent s'y montrer très vivaces. En effet, c'est en répétant la chanson ou le répertoire que le chanteur parviendrait à les apprendre et à produire la mélodie désirée. Du reste, il est à noter que la composition même de ces chansons traditionnelles implique la répétition puisqu'elles contiennent de nombreux passages ou refrains que le chanteur est appelé à répéter afin d'obtenir l'effet désiré sur son auditoire. L'apprentissage des chansons est alors assuré par le biais de la répétition qui permet de reproduire les sons tel qu'ils doivent être réalisés. De fait, le

La chanson populaire traditionnelle de Souk Ahras : Spécificités et potentiel didactique

Dr . Lamia MEBARKI

Département des langues étrangères

Université de Souk-Ahras

ABSTRACT

Oral literature is the background of cultural rehearsal. It features the transmission productive modes of traditional popular songs in Souk Ahras area. This fact is obviously reflected in the used language itself. A language, exclusively oral, that is distinct by its sounds, words, and/ or deviations from classical Arabic.

Which rank could one assign to oral literature and culture in didactics of languages and culture? Is it important to teach them? And mainly how?

In , the present study, we try to come out with replies to these questions particularly through traditional songs of Souk Ahras and its speificities.

KEY WORDS traditional popular songs, oral literature, Souk Ahras, Culture, didactics of languages and cultures.

الملخص :

تعد المشافهة أساسا للممارسة الثقافية وهو ما يميز أساليب إنتاج ونقل الأغاني الشعبية التقليدية في منطقة سوق أهراس .ينعكس هذا بوضوح في لغة هذه الأغاني، كونها لغة شفوية بحتة ، تختلف من حيث أصواتها أو كلماتها أو حتى تراكيبها عن اللغة العربية الفصحى.

ما هي المكانة الذي يجب منحها للأدب وللثقافة الشفهية في تعليمية اللغات-الثقافات ؟ هل من المهم تعليمهم؟ كيف يمكن أن يتم ذلك؟

نحاول في هذا البحث تقديم بعض الإجابات على هذه الأسئلة من خلال التركيز على الأغنية الشعبية التقليدية بمنطقة سوق أهراس ومن خلال إبراز خصائصها.

الكلمات المفتاحية : الأغنية الشعبية التقليدية ، الشفوية ، سوق أهراس ، الثقافة ، تعلّيمية اللغات-الثقافات.

.

Maisonneuve et Larose.
-Khatibi, Abdelkébir, 1983, *Maghreb pluriel*, Paris Denoël.
-Laroui, Abdallah,*1974, La Crise des intellectuels arabes*, Paris, Maspero.
-Mazouni, Abdallah, *1969, Culture et enseignement en Algérie et au Maghreb*, Paris, Maspero.
-Miquel, André, *1969, La Littérature arabe*, Paris. Puf., Coll. « Que sais-je ? ».
-Mosteghanemi, Ahlem, *1985, Algérie, femmes et écritures*, Paris, L'Harmattan.
-Robert, Marthe, *1972, Roman des origines et origines du roman*, Paris, Grasset.
•-Taleb Ibrahimi, Ahmed, *1972, De la décolonisation à la révolution culturelle (1962-1972)*, Alger, Sned.
-Tomiche, Nada,*1 972, La littérature arabe traduite, mythes et réalités*, Paris Geuthner.
-Tomiche, Nada, 1993, *La Littérature arabe contemporaine*, Paris, Maisonneuve et Larose, Coll.Orient-orientation.
-Turin, Yvonne, *1971, Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale,* Paris, Maspero.
- waṭṭār, Ṭahar, 1974, *L'As*, Alger, Sned.
- waṭṭār, Ṭahar, 1974, *Al-Zilzâl*, Alger, Sned.
-Zeraffa, Michel, *1972, Révolution romanesque*, Paris, UGE,10/18.

Articles de revues

-Al- Mili, Mohammad, 1964, « Pourquoi le roman arabe n'a-t-il pas existé *en Algérie ? » in Novembre, No 2, juillet-août, (Alger).*
-Bamya, Aida, « « L'As » de Tahar Ouettar » in Revue de *l'Occident Musulman et de la Méditerranée*, No22, 2ème trimestre.
-Bois, marcel, 1992, « Littérature maghrébine d'expression arabe », in *Annuaire de l'Afrique du Nord*, Paris, CRESM, CNRS.
-Bois, Marcel, 1987, «Au fil des années 70, émergence du roman de langue arabe», in *Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée,* Aix-en-Provence.
- Bois, Marcel,*1986,«* Tendances nouvelles du roman algérien de langue arabe *», in Annuaire de l'Afrique du Nord*, Paris, CRESM, CNRS
-Boudjedra, Rachid, 1986, « Modernité et vivacité de la langue arabe », in *Révolution Africaine*, no 1187.
-Grandguillaume, Gilbert, 1979, « Langue, identité et culture nationale au Maghreb », in *Peuples méditerranéens*, no 9.
- Hadj Ali, Bachir, 1963, « Culture nationale et révolution », in *Nouvelle critique*, (147), juin.

REFERENCES BIBLIOGRAPHIQUES

1- Nada Tomiche, *1993, La Littérature arabe contemporaine*, Paris, éd. Maisonneuve et Larose.

2-Selon Aïda Adib Bamya : « *Houhou a écrit quelques nouvelles d'une qualité littéraire qui dépasse de loin celles écrites après l'indépendance. Car il s'agit d'un écrivain qui maîtrise parfaitement l'art de la nouvelle ainsi que celui de la littérature »*, in *Evolution de la littérature romanesque algérienne* (1925-1967), p.72 .

[3]Jean, Déjeux, *1975, La Littérature algérienne contemporaine*, PUF. Coll. « Que sais-je ? », *.p. 110.*

4 Interview accordée par l'écrivain à la revue de langue arabe *Al Churuq* (supplément culturel), Alger, N08 du 26 août au 8 septembre 1993.

5- Interview accordée par l'écrivain à Ahmed Farhat, in *Voix culturelles d'Algérie*, Beyrouth, Maison internationale, 1984, p. 108

6 - Abdallah Mazouni,1969, *Culture et enseignement en Algérie et au Maghreb*, Paris, Maspero, PP. 53-54

7- Mahmoud Bouayad*, 1990, "*Le livre et la lecture en Algérie*",* in *Recueil de conférences*, Paris, Publication du Centre Culturel Algérien p. 56.

8 - *Les intellectuels arabophones revenus du Moyen-Orient ainsi que ceux des médersas réformistes sont totalement absorbés par des activités auxquelles ils assignent une valeur messianique (retour aux sources, restauration culturelle, repersonnalisation, désaliénation, etc.). Même les écrivains, qui ont publié des nouvelles, des récits et des poèmes pendant la guerre (tel que* waṭṭār *et* ban Haddūga*), se lrouvent englués dans cette ambiance frénétique non propice à fa création littéraire qui requiert des conditions particulières.*

9- *Bachir Hadj Ali,1964,* « *Culture algérienne et développement culturel », in* Alger républicain, 18 août 1964

-Cf. également, Jean Dejeux, 1983, Culture algérienne dans les textes, Alger /Paris, Opu-Publisud, p. 114,

BIBLIOGRAPHIE

Cette étude a exploité une multitude de références bibliographiques afin d'approfondir le débat, enrichir la réflexion et contribuer ainsi à élucider une problématique cruciale ayant trait aux phénomènes de transition, de passage, de transformation et de limites. Certaines références n'ont pas été mentionnées dans le corps de l'article, mais m'ont été particulièrement utiles pour apporter une contribution personnelle à l'intelligence d'une historicité romanesque particulière. Pour des raisons d'ordre méthodologique, nous nous contentons d'un nombre limité de références.

Ouvrages

- Ban Haddūga, ʿAbd Al-Ḥamīd, 1971, *Rîh al janûb*, Alger, Sned.
- Ban Haddūga, ʿAbd Al-Ḥamīd, 1975, *Nihâyat al-ams*, Alger, Sned,1975
- *Bamya, Aïda*,1982, *L'Evolution du roman algérien de 1925 à 1967*. Alger, O.P.U.
-Beheiri, K.,1980, *Influences de la littérature française sur le roman arabe*, Sherbrooke, Naaman.
-Berque, Jacques, 1980, *Langages arabes au présent*, Paris, Gallimard/NRF.
- Bouayad, Mahmoud, 1990, « Le livre et la lecture en Algérie », in *Recueils de conférences*, Paris, Publications du Centre Culturel Algérien.-Bouzar, Wadi, *1982, La Culture en question*, Alger/Paris, Silex-Sned.-Daoud, Mohamed, 2002, *Le roman algérien de langue arabe, Lectures critiques*, Oran, Crasc. -Dejeux, Jean, 1975, *La Littérature algérienne contemporaine*, Puf, Coll. « Que sais-je ? » .
-Dejeux, Jean, 1981, *La Culture algérienne dans les textes*, Alger/Paris, OPU- Publisud.
-Etienne, Bruneau, 1977, *L'Algérie, culture et révolution*, Paris, Seuil.
-Farḥāt Aḥmad, 1984, *Voix culturelles d'Algérie*, Beyrouth, Maison internationale.
-Grandguillaume, gilbert, 1983, *Arabisation et politique linguistique au Maghreb,*

4- Perspectives

Ces éléments de réponse fournissent certains éclairages nécessaires à l'intelligibilité des conditions pénibles d'émergence et de réception et d'individuation de ce roman qui, en l'espace de trois décennies, devient une réalité culturelle majeure dans l'Algérie contemporaine. De grands écrivains, tels que Boudjedra, Wassini et Mousteghanemi, assurent la relève de leurs ainés prestigieux de langue française et parviennent à inscrire le roman algérien dans l'universalité et à dialoguer avec les différentes cultures du monde entier. Passée la décennie de l'émergence, une décennie dominée essentiellement par l'écriture réaliste, on assiste à l'éclosion de nouvelles voies de la création esthétique. Les nouveaux romanciers qui ont émergé, à partir des années quatre –vingt, disposent dans ce domaine d'atouts majeurs : ils sont souvent polyglottes et à l'affût de nouvelles écritures qui apparaissent, tant dans le monde arabe que dans les pays occidentaux. D'ailleurs, certains d'entre eux, du fait de la maîtrise de deux compétences linguistiques, ont pu réaliser des traductions de textes de langue française et contribuer ainsi au rapprochement entre les deux expressions romanesques. Grace à eux, s'amorce un dialogue fécond entre la littérature de langue arabe et celle de langue française. Le clivage linguistique tend à faire place à la convergence et à la pluralité linguistique qu'il faut assumer pleinement et s'en imprégner.

Ainsi, le roman de langue arabe tend à se développer au plan qualitatif et quantitatif, compte tenu des progrès réalisés par les politiques d'arabisation. Avec les années quatre-vingt-dix s'amorcent de profondes transformations dans le champ romanesque. Parvenu à l'âge adulte, ce roman s'émancipe et inscrit ses pratiques d'écriture dans un cadre plus vaste, celui des dialogues de cultures et de civilisations. Boudjedra qui s'est converti à l'écriture en arabe, à partir de 1982, se découvre une vocation de « passeur » de cultures. Wassini lui emboite le pas. A l'instar d'Amin Malouf, ils tentent de mettre en présence de vastes ensembles culturels, les uns avec les autres, dans la perspective d'une littérature-monde. Grâce à cette aventure romanesque inédite, et à la position géostratégique de l'Algérie en tant que carrefour de toutes les civilisations, l'Algérie est en passe de réussir une entreprise interculturelle et universelle des plus prometteuses dans le monde.

devient alors au service d'un projet de société proposé /imposé par le pouvoir et auquel adhère l'écrivain avec enthousiasme (sincère ou simulé).

7) Le manque de lecteurs, on l'a vu, ne stimule pas la publication. Les écrivains de langue arabe ont souffert de cet inconvénient. L'arabisation, esquissée timidement dans les années soixante, se radicalise et s'approfondit à l'aube de la décennie suivante. Cette politique linguistique ouvre des perspectives prometteuses aux œuvres de langue arabe qui se voient légitimées, publiées et surtout encouragées par le discours officiel. C'est dans cette euphorie de l'arabisation, du retour aux sources et du socialisme arabe, que sont nés les premiers romans pour répondre à une attente, combler un vide et satisfaire des besoins stratégiques.

8) Si le roman, comme l'affirme Lukacs, est l'expression de l'épopée de la bourgeoisie occidentale triomphante au 19ème siècle, le roman algérien ne serait-il pas, lui aussi, l'expression de cette bourgeoisie d'Etat à la fois conquérante et envahissante, et le miroir qui lui permet de s'y réfléchir et de s'y complaire?

9) La guerre de juin 1967, au Proche-Orient, fut vécue comme un traumatisme par les intellectuels algériens. Elle sonna le glas pour l'utopie nationaliste et panarabiste. Les intellectuels algériens, notamment les arabophones, réagissent radicalement en envisageant l'avenir de l'Algérie dans une perspective socialiste, loin du mythe du panarabisme. Pour la première fois, la littérature algérienne est appréhendée en tant que littérature autonome et indépendante par rapport aux autres littératures des pays arabes. La culture algérienne de langue arabe, a été longtemps conçue comme une culture périphérique, mineure et marginale par rapport à un centre culturel toujours situé au Moyen-Orient et qui lui sert de modèle, de référence et de reconnaissance; cette culture s'émancipe et s'autonomise. A la faveur de cet événement qui fait écrouler bien des mythes, les écrivains algériens se détournent du Centre et tendent à fonder leur autonomie littéraire et leur système culturel propre, à partir de leur historicité propre de leur génie spécifique.

Le roman algérien qui y émerge porte alors la marque de cette conscience aiguë d'un avenir à construire en tenant compte essentiellement de la personnalité culturelle algérienne qui ne doit pas se définir par rapport à un ailleurs, mais par rapport à l'identité algérienne. Ainsi s'accomplit difficilement l'individuation du roman algérien de langue arabe après maints balbutiements

écrivains (des deux langues) qui ont longtemps porté le rêve de l'indépendance dans leur cœur. Ecrire est devenu secondaire pour ces écrivains confrontés au destin cruel et implacable. Le poète algérien, Bachir Hadj Ali, s'est inquiété, dès 1964, de ce vide culturel et de ce silence troublant qui caractérisent le champ culturel algérien depuis l'indépendance. Ses interrogations ne manquent pas d'intérêts :

«*Depuis la fin de la guerre peu d'œuvres marquantes ont été écrites en arabe ou en français. Quelles en sont les raisons? S'agit-il d'un contrecoup de la crise du FLN au sein des intellectuels? Nombre de ces derniers ont pensé qu'après la libération, la Révolution se ferait d'une façon linéaire, innocente, sans douleur. Vue idéaliste des choses! La lutte des classes est une réalité et l'appétit des gros commerçants et propriétaires fonciers interdit de penser à la Révolution comme à une braderie.*

(...) L'absence d'œuvres marquantes depuis l'indépendance est-elle due à la distanciation par rapport à l'actualité ou bien les écrivains algériens d'expression française jugent-ils que, utiles à un moment de l' histoire, ils sont appelés à disparaître?[9]».

Le coup d'Etat de juin 1965 met fin à trois années d'instabilité politique et de romantisme révolutionnaire (et Bachir Hadj Ali dont on vient de citer l'extrait, se verra imposer par le nouveau pouvoir une vie en résidence surveillée au Sahara jusqu'en 1972, à cause de son opposition au nouveau régime).

La structuration idéologique du champ culturel par le nouveau pouvoir nécessite une certaine durée (une structuration est un processus plus ou moins long). La structuration, par ailleurs, est globale. Et il a fallu attendre la fin des années soixante pour voir s'accomplir cette hégémonie idéologique et politique à tous les niveaux et à travers tous les rouages de la société. L'écrivain, à son tour, s'est trouvé enserré dans les filets du pouvoir (édition, Union des écrivains, mass-médias, instances de contrôle et reconnaissance, institution littéraire, jdanovisme, etc.). Les écrivains réagissent de deux manières: les uns choisissent une pratique oppositionnelle (exil interne ou externe), les autres (la majorité) privilégient l'intégration au système politique en lui apportant la caution culturelle dont il a besoin. Aussi, conçoivent-ils leurs œuvres comme un instrument dont la logique première est la satisfaction de la demande idéologique formulée par le pouvoir politique. L'écriture

historique, une vision du monde cohérente, un engagement dans l'écriture, une culture sociologique, une maîtrise des techniques romanesques, etc).

La faiblesse des premiers romans d' Assia Djebar, qui sont parus à la veille de l'indépendance, est significative à cet égard. Il a fallu toute une décennie (les années soixante) de formation, d'apprentissage et de mûrissement pour l'élite arabophone pour que naissent, dès les débuts des années soixante-dix, la première génération romanesque de langue arabe.

5) La théorie des urgences est souvent invoquée par les critiques pour expliquer l'absence de création dans les années soixante. Le pays accuse, en effet, un grave déficit en matière de cadres et de personnel compétent de haut niveau. Et par souci d'optimisation des ressources intellectuelles et culturelles, toutes les énergies se trouvent drainées vers les tâches immédiates de l'édification du pays. Mahmoud Bouayad situe le problème au plan national :

«*Les intellectuels et les cadres,* remarque-t-il, *disponibles au moment de l'indépendance, furent absorbés pendant de longues années, par des tâches jugées plus urgentes: administratives, politiques, diplomatiques et économiques et aussi par des tâches d'enseignement et de formation*[7]».

D'ailleurs, tous les intellectuels algériens tant arabophones que francophones se sont trouvés mobilisés par toutes sortes de responsabilités (qui sont alléchantes pour nombre d'entre eux). Le départ massif et précipité des « pieds noirs» en 1962, a laissé un vide en matière de gestion, d'encadrement et de fonctionnement des différents secteurs de l'Etat. Un vide qu'il fallait combler par le recours aux élites algériennes (d'ailleurs peu nombreuses, car l'analphabétisme était dominant).

6) Mais la théorie des urgences[8], pour pertinente qu'elle soit, n'explique pas tout. Car la réalité est beaucoup plus complexe, et les phénomènes socioculturels ne se réduisent jamais à une seule explication et à une seule détermination. L'approfondissement de la réflexion nécessite la prise en compte de multitude de paramètres.

On peut ajouter aux facteurs énoncés précédemment, d'autres déterminations qui relèvent du politique (en Algérie, le politique prime sur l'économique. Pour des considérations historiques propres à l'Algérie, on peut dire qu'il est déterminant en dernière instance). Il est certain que la confusion et le désordre généralisés qui ont régné en Algérie, durant les premières années de l'indépendance, ont troublé et obscurci les conceptions et les idéaux de ces

inappropriées et qui ignorent jusqu'aux principes élémentaires de la traduction. Si l'on ajoute à cela que les romans arabes sont en deçà des attentes, l'on comprend aisément les difficultés rencontrées par ces écrivains dans leur entreprise d'assimilation du genre romanesque et de fondation d'un nouvel imaginaire romanesque.

3) L'absence de tradition romanesque algérienne de langue arabe, comme on l'a constaté, décourage toute tentative pour s'attaquer à ce genre. L'intertextualité nous a appris qu'aucun texte n'émerge du néant, in *ex nihilo,* et que tout texte est une absorption d'une infinité de textes. En effet, l'absence de modèles fondateurs dans ce domaine inhibe toute volonté de création. Cette attitude est renforcée par le prestige du roman algérien de langue française qui domine seul et sans partage l'espace romanesque. Il s'agit en fait d'une « chasse gardée» et d'un monopole qu'il vaut mieux ne pas s'en approcher. (Les romans algériens de langue française ont acquis leur légitimité en détrônant le roman colonial de son piédestal et en fondant le mythe fondateur de la nation algérienne. Ils sont associés au processus de décolonisation à l'échelle planétaire. Ils sont, pour la plupart, traduits dans plusieurs langues. Ainsi leur universalité est devenue une réalité reconnue mondialement.). Ajoutons à cela que le clivage linguistique en Algérie n'est pas propice aux phénomènes de d'interférence, de symbiose et de synergie. Il s'agit là, peut-être, d'une interculturalité pathologique basée sur l'exclusion, le rejet et l'ostracisme. Il s'agit là des évolutions parallèles peu propices à la fécondation et à l'enrichissement mutuel, compte tenu de la violence de l'Histoire et des affrontements culturels qui en découlent. Cette situation ne manque pas de «complexer» l'écrivain algérien de langue arabe vis-à-vis du romancier francisant, mais aussi, vis-à-vis des romanciers arabes du Moyen-Orient qui sont de plus en plus fascinés par les romanciers de la première génération dont certaines œuvres romanesques sont traduites en arabe.

4) N'est pas romancier qui veut. En effet, rien n'est plus étranger au roman que l'amateurisme et le volontarisme. S'il fut plus facile pour certains intellectuels algériens de célébrer à travers la poésie et la nouvelle, la geste révolutionnaire (la nouvelle et la poésie s'inscrivent dans l'instant et la contingence), il fut par contre impossible pour eux d'épouser les contraintes et la logique du roman qui nécessitent un minimum de conditions requises (une conscience du devenir

des infirmières[4]».

Abdelhamid Benhaddouga, de son côté, revendique la paternité du roman arabe en Algérie (il associe Tahar Ouattar à cette entreprise de fondation) : «*Moi et* Tahar Ouattar, avoue-t-il, *nous sommes les premiers* à *avoir fondé le roman algérien au sens plein du terme.* Rih aljanoub et Al-l'As *sont parus presque au même moment (...) Ceci ne veut pas dire qu'il y ait absence de tentatives, dans le passé,* en *matière* de *nouvelles et de romans. Mais* à *notre avis, et* à *l'avis des critiques et des spécialistes de la littérature, ces tentatives sont demeurées des balbutiements qui n'ont pas pu atteindre la dignité d'une référence stable et reconnue dans l'histoire du roman arabe* en *Algérie*[5]».

3-Hypothèses d'explication de l'émergence tardive

Ce retard dans l'émergence de ce roman soulève souvent des questions qui restent sans réponses face à la béance du discours critique. Nous essaierons d'élucider cette problématique en apportant quelques éléments de réponse:

1) Tout d'abord, il apparaît que ce retard a trait à l'état de la langue arabe classique en Algérie. En effet, cette langue qui a vécu toute la période coloniale dans l'étouffement et la clandestinité n'a pas bénéficié du renouveau linguistique et culturel accompli dans les autres pays arabes, principalement au Moyen-Orient. La culture arabe y est demeurée une culture de reproduction et non de production. Selon Mazouni, cette langue est restée en dehors des transformations historiques qui ont bouleversé la physionomie d'une Algérie confrontée aux multiples défis: «*Les valeurs et les sentiments qu'elle véhicule [la langue arabe] sont assez fortement orientés vers les idées religieuses ou sous-tendus par elles. Le contenu de la culture arabe, considéré dans sa totalité, reste, en majorité, de caractère poétique et dogmatique. Or, l'image qui en est donnée, en Algérie surtout, sciemment et du fait des circonstances aggrave encore cette situation*[6]».

Cette langue non sécularisée et ankylosée est incompatible avec les langues romanesques qui exigent une langue souple, maniable et modulable à merci, une sorte de langue-pâte. L'état de l'arabe, en Algérie, et de ce fait, dissuade les écrivains de s'aventurer dans un monde où la langue doit se transformer en langue-objet.

2) La plupart des écrivains algériens de langue arabe sont des arabisants monolingues (à titre d'exemple, waṭṭār se dit arabisant à 100 %). Et de ce fait, leur rapport au genre romanesque est médiatisé par le Moyen-Orient qui met à leur disposition des traductions pour le moins

limite singulièrement leur portée. Ceci est dû principalement au climat culturel de l'époque qui impose ses catégories intellectuelles et son horizon littéraire à toute pratique littéraire. N'oublions pas que l'interdiction de la langue arabe en Algérie, ainsi que la persécution de tout ce qui se rattache à la personnalité culturelle arabo-musulmane ont été un facteur déterminant dans le retard de l'éclosion romanesque de langue arabe. Ajoutons à cela, l'influence grandissante du réformisme religieux qui a imprimé une orientation militante et prosélytique à toute expression littéraire de langue arabe. L'autonomie de la sphère littéraire est impensable donc dans ce contexte. On observe d'autre part, que le lectorat de langue arabe (quasi inexistant, du fait de l'analphabétisme régnant) est, tant au plan qualitatif que quantitatif, un facteur de découragement pour cette littérature. Jean Déjeux souligne les limites de cette œuvre :

«Son œuvre, écrit-il, *reste sans doute modeste mais tout de même importante pour l'époque. Il ne semble pas qu'elle ait trouvé un public aussi large que celle des romanciers de langue française, Feraoun, Dib, Mammeri, Kateb, etc., qui eux bénéficiaient d'une audience auprès des Français. Le milieu algérien de langue arabe était encore en ce temps là assez limité et en outre la manière dont Reda Houhou dévoilait ses compatriotes en pleine situation coloniale n'était pas faite pour être accueillie, sans réserve*[3]».

Ridha Houhou, en tant que précurseur du roman algérien de langue arabe n'a fait que tracer quelques jalons qui, certes, sont prometteurs, mais qui sont restés sans portée décisive. Aussi, l'absence de « père fondateur» pour le roman algérien, est-il péniblement ressentie par les écrivains qui désirent s'attaquer au genre romanesque, au lendemain de l'indépendance, mais qui se trouvent inhibés et découragés par l'absence de tradition et de modèles romanesques algériens de langue arabe. Ajoutons à cela que la guerre a fait table rase des modèles et des crédos anciens. Tahar Ouattar souligne ce vide:

«L'élite arabophone se caractérise généralement par son origine rurale et par l'absence de paternité. Les années cinquante, à travers la guerre de libération, ont détruit tous les idéaux et toutes les valeurs historiques. Après l'indépendance, il n'a pas été possible de fonder de nombreux idéaux et de nouvelles valeurs. Ainsi l'intellectuel arabisant a ouvert les yeux dans un « orphelinat» où il n'y a ni père, ni mère... Mais que des infirmiers et

- riwaya s'applique au roman.

Nada Tomiche souligne, à cet égard, cette imprécision relative à la terminologie: « Le substantif riwaya dont la racine signifie étymologiquement «abreuver» et, par extension « abreuver de paroles (…) désigne, à l'époque moderne, d'une manière très large « le récit », la « narration ». Récemment encore, dans la préface de Youssouf ldriss, *AI Farafir* (1964), le terme renvoie au récit théâtral, à la pièce de théâtre. Il tend toutefois à se spécifier dans le sens « roman» et à s'opposer au genre de la nouvelle (Qissa) et au théâtre (masrah)[1]».

2- Ridha Houhou précurseur des romanciers de langue arabe ?

En Algérie, le roman de langue arabe est un produit de l'indépendance. Mais les balbutiements et les ébauches demeurés inaboutis ne manquent pas. La première tentative dans ce domaine fut celle de Ridha Houhou (né en 1911 à Sidi Oqba, près de Biskra, il fut assassiné en 1956 à Constantine par une organisation para militaire). Son parcours littéraire, il l'inaugure en 1947, par la publication d'un petit roman (ou une longue nouvelle), *Ghadatou Oumi-Algoura (La Belle de la Mecque).* Grâce à sa culture moderne et à son ouverture d'esprit, il a su assimiler parfaitement la technique de la nouvelle. Ses trois recueils de nouvelles, Maa Himari Alhakim *(Avec l'âne du Hakim),* (1953), Sahibatou alwahyi *(L'Inspiratrice)* (1954) et Namadhij bachariyya *(Types humains)* (1955) révèlent un écrivain de grand talent. Ces nouvelles rencontrent un large écho auprès des lecteurs arabophones et ce, d'autant plus que l'auteur use abondamment de l'humour, de la satire et de la parodie. Son style simple, dépouillé lui permet d'être accessible et compris par une large frange de lecteurs algériens. Cet écrivain dynamique et de double culture paraît être porteur d'un véritable projet culturel. Ses activités s'étendent à différents domaines: publication de nouvelles, publications d'articles dans les journaux, animation de l'activité théâtrale (à Constantine surtout), etc. Homme d'une grande culture, il a réussi à concilier l'apport arabo-musulman avec les exigences des défis de la modernité.

Au lendemain de l'indépendance, les premiers arabisants découvrent ses récits et gouttent avec saveur le ton novateur et le style charmeur. Le lecteur s'y laisse prendre et envoûter par l'univers de ces nouvelles: Il y découvre, pour la première fois, un nouvelliste algérien qui peut rivaliser avec les grands nouvellistes du Monde arabe[2].

Mais les écrits de Ridha Houhou, en dépit leur valeur littéraire incontestable, sont restés prisonniers d'une vision idéologique moralisante et didactique qui

conflits de civilisation. Des romans européens sont traduits également en arabe. Ils seront le ferment et le creuset d'une orientation culturelle particulièrement féconde, à tous points de vue. Certaines traductions sont des adaptations, comme en témoignent celles réalisées par l'Egyptien Al-Manfalouti. Ces adaptations parviennent parfois à s'affranchir de leurs sources pour s'imposer en tant qu'œuvre authentique débarrassée de liens la rattachent au texte initial de référence, si ce n'est le titre du nouveau texte.

L'archéologie du roman arabe puise aux sources vives des récits historiques, légendaires, mythiques, hagiographiques et autobiographiques. Le socle occidental est tout récent. Et il faut attendre 1915, pour voir naître le premier roman arabe digne de ce nom, au plan esthétique, formel et thématique. II s'agit d'un roman réaliste intitulé *Zayneb*, écrit par Mohammed Hasanine Haykel (1888-1956).

Né en marge du système culturel arabe, parce que produit de l'acculturation, le roman arabe va connaître une évolution fulgurante qui le place au centre des réalités culturelles contemporaines. Le prix Nobel en littérature décerné en1988 au grand romancier égyptien Nadjib Mahfoud consacre la prééminence de ce genre sur les autres expressions littéraires. Que de chemins parcourus depuis Zayneb ! Mais beaucoup restent à faire. En effet, malgré ces avancées et ce progrès incontestables dans la création romanesque, le roman arabe n'a pas pu se frayer sa propre voie et forger ainsi ses propres modèles d'écriture indépendamment des modèles occidentaux initiaux. Les modèles romanesques classiques demeurent, pour beaucoup, la référence majeure dans ce domaine (roman psychologique, mélodrame, réalisme critique, réalisme socialiste, roman d'aventure, etc.). Et il est impropre de parler, à cet égard, d'école romanesque arabe, en dépit d'une originalité certaine (comme les critiques aiment évoquer à ce propos, l'école romanesque latino-américaine).

La terminologie employée pour traduire le mot roman se prête à quelque équivoque. A l'origine, le mot employé est qissa qui désigne aussi bien le roman que la nouvelle et le récit. Mais, progressivement, on devient de plus en plus précis. Trois expressions se sont imposées à partir des années soixante: qissa, qissa qassira, riwaya .

- qissa signifie un court roman (ou petit roman) ;
- qissa qassira signifie nouvelle (Short Story en anglais) ;

Le roman arabe est une réalité fondamentale de la culture arabe contemporaine. Après deux siècles d'histoire, il a réussi à occuper le centre du système culturel arabe et à détrôner le genre poétique de son piédestal. Ce dernier s'essouffle, vacille, car frappé de plein fouet par la crise qui secoue les sociétés arabes modernes. Le Monde arabe a trouvé dans le genre romanesque une expression totale, lui permettant de restructurer son imaginaire culturel, de réactiver sa mémoire collective, de rendre compte de son vécu, de forger son destin et de porter haut ses idéaux de liberté, d'émancipation, de progrès et de transformation de la société.

1- Le roman arabe en tant que produit de l'acculturation.

Certains critiques, à partir d'une conception extensive et élargie du roman, croient déceler, ici et là, à travers différentes littératures du passé, des exemples d'invention romanesque. C'est cette même vision qui autorise certains critiques arabes à affirmer que le patrimoine littéraire arabe a connu, par le passé, le genre romanesque, à l'instar de toutes les cultures du monde (se reporter, à ce propos, aux différentes thèses émises sur la généalogie du roman, notamment celles de G. Dumézil, G. Lukacs, M. Bakhtine, M. Robert, R. Etiemble, E. Said, etc.). IL n'en demeure pas moins que le roman, au sens strict du terme, et en tant que genre historiquement constitué en Europe au 19ème siècle (thèse contestée par certains, comme on l'a évoqué précédemment) ne réussit à s'acclimater dans le monde arabe qu'à l'aube du vingtième siècle. En effet, dès la deuxième moitié du 19ème siècle, des écrivains du Moyen-Orient découvrent avec étonnement et émerveillement le genre romanesque, soit directement dans sa langue d'origine, soit par l'intermédiaire des traductions. On y trouve les premières ébauches allant dans le sens de l'assimilation de ces nouveaux langages venus d'ailleurs. Des noms illustres s'y sont exercés, tels que R. Tahtawi et F.Chadiaq qui ont tracé les premiers jalons. D'autres, prennent le relais pour affermir et confirmer une orientation littéraire irréversible qui s'inscrit dans la dynamique interculturelle et intercivilisationnelle. Des célèbres écrivains tels que Djorji Zaydane (fondateur du roman historique arabe, et grand admirateur de Walter Scott et d'Alexandre Dumas), Djobrane Khalil Djobrane (figure mythique du romantisme arabe), Taha Hussein (fervent défenseur d'un projet modernité inspiré par les Lumières) tentent de jeter les bases d'un imaginaire romanesque qui serait uns sorte de maïeutique culturelle transcendant les irréductibilités et les

Revue Apuleius
Volume 05 Numéro 09 juin 2018

Réflexions sur l'émergence tardive du roman algérien de langue arabe

Pr. Tayeb BOUDERBALA

Département de langue arabe

Université de Batna1

ABSTRACT

This sud tries to sketch a réflexion winch concernés the problème of the latte émergence of the Algerian novel in Arabic language. It is about the first stammering by making a kind of archaeology to clarify the difficult and complex conditions of production, legitimization and reception of the first narrative texts which do not meet the pride of the novel, yet it holds the germs the later romantic developments. The problem of genealogy, models and filiation is handled with regards to the cultural and political History of Algeria and to its historicity. Then, the reflection is concerned with the analysis of the various determinations which were at the origin of this absence of interest for the novelistic genre in Arabic language in spite of the major transformations which profoundly marked the Algerian reality after the Independence. The study ends with the perspective set by a new works of fiction in Arabic language which contributed to shape, significantly, the cultural face of contemporary Algeria.

KEY WORDS : Emergence, Romanic, Algerian, genealogy, French, generation, independence, culture, politics, revolution

الملخص :

تسعى هذه الدراسة إلى طرح إشكالية الظهور المتأخر للرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية مقارنة مع نظيرتها المكتوبة باللغة الفرنسية، وذلك برسم بعض حفريات المعرفة لتبيان الظروف الصعبة والمعقدة التي أحاطت بالإرهاصات الروائية الأولى التي أدت إلى تحقق بعض التراكم الإبداعي في هذا المجال. يتناول البحث بعد ذلك دور العوامل الحاسمة التي كانت وراء تأخر هذا الجنس الأدبي الهام وغيابه عن المشهد الثقافي الجزائري على الرغم من التحولات الكبرى التي عرفتها البلاد غداة الاستقلال. تنتقل الدراسة بعد ذلك إلى رصد معالم التأسيس الفعلي الذي تحقق في السبعينيات من القرن الماضي على يد كل من عبد الحميد بن هدوجه والطاهر وطار. في الختام، تتوج الدراسة بالإشارة إلى النقلة النوعية التي تحققت بداية، من الثمانينيات، في مجال الكتابة الروائية، والتي سمت بالإبداعات الجزائرية، عن جدارة واستحقاق، إلى مستوى روائع الآثار الأدبية العالمية الخالدة.

الكلمات المفتاحية : الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية ،الثقافة الجزائرية .

Table des matières

Pr. Tayeb BOUDERBALA [Université de Batna1]

Réflexions sur l'émergence tardive du roman algérien de langue arabe..... **p 01 -13**

D. Lamia MEBARKI [Université de Souk Ahras]

La chanson populaire traditionnelle de Souk Ahras : Spécificités et potentiel didactique.....**p 14 -23**

Wafa BOUCHAÏR Et Pr. Nawal BOUDECHICHE [Université de Souk Ahras / Université de EL-Tarf]

Le socle commun en Algérie, a-t-il aidé la prise de notes à trouver sa place parmi les autres pratiques de l'écrit à l'université?..... **p 24 -38**

Amir GAHMIA [Université de Souk Ahras]

L'aspect juridico-législatif de la question des langues en milieu professionnel algérien..... **p38 -53**

APULEIUS

Journal of Letters and Languages

Indexed and Refereed Each Semester Scientific Journal Published by the Faculty of Letters and Languages

Mohamed Cherif Messaadia University – Souk Ahras – Algeria

Honorary President

Professor: Zoubir BOUZEBDA

Director of the University Mohamed Cherif Messaadia
Souk Ahras

Journal Director:

Makhlouf LOUNI

Dean of the Faculty of Letters and Languages

Editor-in-Chief

Dr. Jemoui SAADI

d.saadi@univ-soukahras.dz

Editorial Board

From the Mohamed Cherif Messaadia University

Dr.Madani ZIKEM
madani.zikem@univ-soukahras.dz

Dr.Imed CHAREF
imed.charef@univ-soukahras.dz

Dr.Lamia MEBARKI
lamia.mebarki@univ-soukahras.dz

Dr.Haron BOURAS
haron.bouras@univ-soukahras.dz

From Abroad :

- Pr. AbouBaker El azzaoui [Morocco]
  azzaouiboubker@yahoo.fr
- Pr. Kheiri douma [Egypt]
  abou.el.khier62@gmail.com
- Pr. Mohamed El kadhi [Tunisia]
  medelkadhi@hotmail.com
- Pr. Abdelmalek Achahboune [Morocco]
  abdelmalek.achahboune@gmail.com
- Pr. Abd Errahim Marashdeh [Jordan]
  abd_marashdeh@yahoo.com
- Pr. Razan Mahmoud Ibrahim [Jordan]
  ibrahim@hotmail.com
- Dr. Nader kadhim [Bahrain]
  naderkadhim@gmail.com
- Dr. Ali Chabaane [Saudi Arabia]
  alichabaane@yahoo.fr
- Dr. Khalid kadhim Elhomedi [Iraq]
  dr.khalidhomedi@yahoo.com

From Algeria

- Pr. Tayeb Bouderbala
  tayebouderbala@yahoo.fr
- Pr. Ali khefif
  alikhefif@yahoo.fr
- Pr. Salah Djedid.
  djedid.salah@ymail.com
- Pr. Cherif Habila
  habilacherif@gmail.com
- Pr. nawel Boudechiche
  boudechiche2005@yahoo.fr
- Dr. Nabila Maarfia
  maarfianabila@yahoo.fr
- Dr. Wafia Benmessaoud
  wafia.benmessaoud@umc.edu.dz

9 أبوليوس المجلد 05 العدد 09 جوان 2018

ISSN:1112-5071

APULEIUS

Journal Of Letters And Languages

Indexed And Refereed Each Semestre Scientific Journal Published By The Faculty

Of LetterAnd Languages Mohamed Cherif Messadia University - Souk Ahras - Algeria

VOLUME 5 N° 9 JUIN 2018

IMP. NIDHAL
MOB: 0661 33 40 09